مجلّة

المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية محكمة تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية

العدد 28 السنة الخامسة عشرة / ربيع الأول - ربيع الثاني 1439 - 1440هـ - الموافق ديسمبر 2018 م

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية محكمة يصدرها المجمع الجزائري للغة العربية

مؤسس المجلة

د.عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس التحرير

عثمان شبوب

اللجنة العلمية

د. محمد صاري

د.أحمد حساني د. تواتي بن التواتي

د. بشير إبرير د. عبد الجليل مرتاض

عنوان المراسلة : 06 شارع العقيد محمد بوقرة-الأبيار – الجزائر

ص.ب-402- الأبيار – الجزائر

هاتف: 90 07 23 021 213 الفاكس: 81 07 23 021 213 / 71 07 23 021 213

البريد الإلكتروني: académie@aala.dz

* المقالات التي ترد إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أولم تنشر
* كل باحث مسؤول عن آرائه

محتويات العدد

1- شركاء التواصل اللغوي وكيفية استعمال الوسائل اللغوية وغير اللغوية في صناعة الخطاب وفي تلقيه

أ.د. عبد القادر هني.....9

2 - المباحث البلاغية في ضوء اللسانيات النصية: أثر مباحث علمي المعاني والبديع في بناء النص وتماسكه

د. عثمان بريحة.....65

3 - البعد النصي في النحو العربي من خلال كتاب المقتصد لعبد القاهر الجرجاني

أ.خديجة بوساحة.....91

4 - تجليّات ظاهرة الإبدال بين الصوامت في العاميّات الجزائرية (العامية التلمسانيّة أنموذجا)

أ.إيمان هنان.....119

5 - لام التعريف وتعدد معانيها الوظيفية في سياق الكلام

أ.رحمونة معمري.....141

6 - التقابل في القرآن الكريم : دراسة تطبيقية في سورة الليل.

د. محمد تمزغين.....173

7 - السياسة اللغوية في الجزائر وأثرها في تعليم اللغة العربية بالمدارس الابتدائية

أ.الكاسية عليك.....197

8 - التأصيل لمصطلحات نقدية عند إبراهيم عبد الرحمن محمد

د. حواس بري.....215

شركاء التواصل اللغوي وكيفية استعمال الوسائل اللغوية وغير اللغوية في صناعة الخطاب وفي تلقيه

أ.د. عبد القادر هني
قسم اللغة العربية وآدابها
-جامعة الجزائر -2

توطئة:

يفرض علينا العنوان الذي اخترناه لمقالنا أن ننطلق من سؤال مؤداه: هل يُشرك منشئ الخِطاب* متلقيه في صناعة خطابه أم يتعامل معه بوصفه مُستهلكا سلبيا لما يُقدم له في الخطاب ليس إلا؟.

المسألة في هذا المضمار تتعلق بالاعتراف أو عدم الاعتراف بالمتلقي شريكًا كامل الحق في عملية التواصل التي تجري بين المتخاطبين بوساطة اللغة التي هي الأداة المشتركة الأولى بين أقطاب عملية التواصل، وإن لم تكن القاسم المشترك الوحيد بينهم، على اعتبار أن أي تواصل يجري بين متخاطبين سواء أكان هذا التواصلُ شفويا أم كتابيا تتدخَّل فيه جملة من العوامل يتوقف إنجازه ونجاحُه أو إخفاقُه بها مجتمعة، ولا تتوقف مسؤولية ذلك على اللغة وحدها.

صحيح، هناك عدد من علماء اللغة ومن اللسانيين قديمًا وحديثًا عرَّفوا اللغة على أنها أداة تواصل، فابن جني في "باب القول على اللغة ما هي" يقول:" أما حدُّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1] وفي نفس هذا الموضوع يقول الزجاجي:" **إن الله عزوجل إنما جعل الكلام ليعبر به العباد**

(1)- أبو الفتح ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، طبعة القاهرة، 1/ 33.

عما هجس في نفوسهم وخاطب به بعضهم بما في ضمائرهم مما لا يوقف عليه بإشارة ولا إيماء"[1].

إن الإلحاح على الوظيفة الاتصالية للغة واضحٌ في كلام ابن الجني وفي كلام الزجاجي، لأن تعبير المرء عن أغراضه وعمّا هجس في نفسه، ليس موجهًا لذات نفسه في مثل هذه الحال، إنما وهو يُعبّر (سواء أحدث ذلك شفويًا أم كتابيا) فإنه يتوجه بخطابه إلى الأغيار ممن يشاركونه في استخدام هذه الأداة للتواصل.

حسب ما ذهب إليه بايلون (Christian Baylon) ومنيو(Xavier Mignot) فإن عددًا كبيرًا من اللسانيين الوظيفيين المحدثين يجعلون من التواصل (Communication) الهدف الأساسي للغة [2]. فالقول إن الوظيفة الأولى للغة هي التواصل يعني في تقديرنا التواصل مع الآخر لإفادته بأمر ما من خلال الرسالة اللغوية (message) التي وجهها إليه*. فما يبدو من ظاهر ما قيل بهذا الشأن سواء عند ابن الجني وعند الزجاجي أو عند اللسانيين الوظيفيين الذين قصدهما بايلون ومينيو أن الأمر بيد مستعمل اللغة وحده، فهو يتوسل باللغة ليعبر من خلال ما ينتجه من نصوص (شفوية أو مكتوبة)، عن أشياء تخصه أو تخص محيطه الاجتماعي وما اتصل به، ويكون مستقبل هذه النصوص التي يُضَمِّنُهَا صائغها ما يشغله من قضايا أو ما يريد تبليغه من

---

(1)- الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، القاهرة، 1959، ص.42 . وينظر عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية ، ص. 49.

* سنستعمل: منشئ الخطاب والمخاطب، وصانع الخطاب وناسج الخطاب والمؤلف بمعنى واحد والمخاطب والمتلقي والجمهور بمعنى واحد أيضا.

(2)- Christian Baylon, et Xavier Mignot, La Communicaton , 2 ème éd Nathan Paris, 1999, p . 77.

Voir aussi Judith Lazar, La science de la communication, serie, que sais je ? P. U. F, Paris, 1992, p.80.

معان وأفكارتتصل بشؤونه أوبالعالم المحيط به، ليلقاها المقصود بالخطاب جاهزة من خلال قاسم مشترك بينهما هو اللغة. فإلى هنا يبدو وكأن منجز الخطاب هوسيد الموقف وربانُه وأنه ليس لمتلقي خطابه أي دخل في صناعة هذا المنجز اللغوي. فكأن الرسالة التي يتضمنها الخطاب تنقل من صائغها إلى متلقيها تامة مكتملة كما ينقل الشيء من يد المانح إلى يد الممنوح له حسب تعبير كاترين كيربرات أوريكيوني منتقدة رومان جاكسون فيما يفضى إليه التعريف الذي وضعه للغة. [1]

1 - مراعاة منشئ الخطاب متلقيه في صناعته:

يبدو لنا من المهم، في سياق تحديد الدور الذي يعود للمتلقي في صناعة الخطاب الموجه إليه أن نُذَكّر أن لكل من الخطاب الشفوي والخطاب المكتوب خصوصيتَه في تحقيق التواصل، وإن كانت اللغة قاسمًا مشتركًا بينهما. كما أنه مثلما أن لمنشئ الخطاب الشفوي شريكا في عملية التواصل، فإن لمُنشئ الخطاب المكتوب شريكه هو الآخر،، سواءً أكان هذا الشريك معينا ومعروفا لدى الكاتب أم كان جمهورًا افتراضيا، لأن الكاتب لا يكتب في فراغ وخالي الذهن تمام الخلو ممن سيقرأ ما هو بصدد كتابته. فكما يقول جون بول سارتر : « ليس بصحيح أن المرء يكتب لنفسه (...) ولكن عملية الكتابة تتضمن عملية القراءة لازما منطقيا لها. وهاتان العمليتان تستلزمان عاملين متميزين الكاتب والقارئ (...) فلا وجود لفنٍ إلا بواسطة الآخرين ومن أجلهم » [2] فما دامت الكتابة دعوة موجهة من الكاتب إلى القارئ مثلما أكد سارتر في مواضع أخرى من كتابه " ما الأدب" [3]، فإن هذا القارئ ستكون له

(1)- Katherine Kerbrat- Orecchionie, L'énonciation, Armand Colin, Paris 1997, p. 16.

* قال جون بول سارتر : « غاية اللغة الاتصال بالآخر والإفضاء»، جون بول سارتر ما الأدب ترجمة محمد غنيمي هلال ، دار النهضة المصرية للطباعة والنشر ، مصر (د. ت)، ص. 21.

(2)-جون بول سارتر، ما الأدب، مرجع سابق، ص 49.

(3)- ينظر مثلا المرجع السابق، ص 53 - 58 وص 65.

صورة على الأقل في ذهن المؤلف حتى قبل الشروع في الكتابة وإلا كانت كتابة سابحة في فراغ، كتابة من دون غاية، لذلك فإن من النقاط التي تعرض لها سارتر في الفصل الثالث من كتابه المذكور ما يلي إن « كل الأعمال الأدبية محتوية في نفسها على صورة القارئ الذي كتبت له "[1]، وهذه الصورة ليست سوى نتاج مما يرشح من ذهن المؤلف على نصه، وهو ما نلمسه بوضوح في بعض الأعمال الإبداعية، ويمكننا أن نمثّل لذلك بمؤلفة رواية " الحب في زَمَنِ حربٍ" لويز ترامبلاي ديسيامبر(Louise Tremblay d'Essiambre) التي تخاطب قراء روايتها مُتحدثة إليهم عن شخصياتها على النحو الآتي :" لو تعرفون المتعة المؤثرة التي أشعر بها كل صباح عندما ألقاها مثلما هي، أجد هذه الشخصيات جميلة كل بطريقتها (...)[2] وتضيف في السياق نفسه " إذًا أنا مثلكم، أرجو، بل أنا مستعجلة لرؤية ما يخبئه المستقبل لكل هؤلاء الناس الذين يقاسمونني حياتي منذ سنة من الآن"[3].

معنى هذا أن الروائية تكتب بالدرجة الأولى إلى جمهور معين هو الجمهور الذي يقاسمها مثل هذا التعلق بشخصيات الرواية وبما ستؤُول إليه مصائرها داخل العمل الروائي. ولا يعز على قارئ ديدرو في روايته " جاك القدري" تبين تقاسيم صورة القراء الذين توجَّه إليهم بعمله هذا وذلك من خلال مخطباته المتكررة لهم على امتداد الرواية، فهم قراء تَهُمُّهم معرفة الحقيقة وتَبَيُّن ما هو صحيح مما هو خاطئ، فيجب من أجل ذلك أن يتوافروا على القدر المناسب من الذكاء والفطنة لاستشفاف الحقيقة مما يروى ومن مضمون الخطابات المباشرة الموجهة إليهم في أضعاف العمل الروائي نفسه[4].

(1)- سارتر، ما الأدب، مرجع سابق، ص 70.

(2) - Louise tremblay D'essiambre, L'amour au temps d'une guerre, éd, France Loisirs Paris 2015/2016, P. 407.

(3) - Louise tremblay d'Essiambre,op.cit, p . 408.

(4)- Voir Denis Diderot Jacques le fataliste ENAG/ Editions, Alger. 1990, les pages suivantes à titre d'exemple pp, 37, 38, 105, 121.

لكن، عندما لا يكون جمهور الكاتب محددا بمثل هذا الوضوح داخل العمل نفسه فإنه يشكل له – مثلما ذكرنا – صورة في ذهنه ويكتب له من خلالها.

فإذا كانت العلاقة غير مباشرة بين المؤلف وجمهوره في الخطابات المكتوبة فإن هذه العلاقة تكون مباشرة بين المخاطِب ومخاطَبه (أو مخاطبيه) في الخطابات الشفوية.

إذا كانت طبيعة العلاقة بين المتواصلين في نمطي الخطاب المشار إليهما قد اتضحت بعض الاتضاح، فما هي مميزات أداة التواصل الرئيسة بين المخاطِب وجمهوره؟.

2 - اللغة وسيلةً ناجعةً لصناعة الخطاب بفضل:

أ. المواضعة والاستعمال:

تقدمت الإشارة إلى أن اللغة هي الجسر الرئيس الذي يصل بين المتخاطبين، على اعتبار أن المُخاطِب (كاتباً كان أم مُشافِهًا) يتوجه من باب أول إلى من تجمعهم به أداة تواصلٍ وهي اللغة في حالتنا. على أنه من المُحتمل أن يكون لخطابه جمهور آخر لم يضعه في حسابه، وذلك عندما ينقل نصه إلى لغة غير اللغة التي صيغ بها ابتداءً.

يقتضي منا التعرف على مميزات الآداة الرئيسة التي يتوسل بها المخاطِب لصناعة خطاب موجه إلى جمهور فعليٍّ أوْ افْتِرَاضِي أن نؤكد على جملة من الأشياء ذات علاقة بما وصفناه بالجسر الرئيس الذي يعقد العلاقة بين المتواصلين بوساطة الكلمة وهو اللغة التي قال عنها إدوارد سابير إنها " وسيلة التواصل بامتياز في كل مجتمع"[1].

إذا كانت اللغة على هذا النحو الذي ذكره سابير، وهي كذلك حقا، فما الذي يؤهلها لأداء هذه الوظيفة الحيوية في المجتمع أو في مجموعة اجتماعية

(1)- Edward Sapir cité par Roman Jakobson, in Essais de linguistique générale, les éditions de minuit, Paris 1973 p. 91.

معينة تستخدمها للتعبير عن أغراضها ولقضاء شؤونها اليومية حتى قبل أن نتحدث عن استعمالها في غير الخطابات الاجتماعية النفعية اليومية؟.

إن أهلية اللغة لتحقيق التواصل بين مستخدميها في المجتمع لا تتأتى لها كيفما اتفق، إنما تقوم هذه الأهلية على شروط قبلية لا بد من توافرها، وهي شروط تطرق لها منذ القديم المهتمون باللغة من لغويين ولسانيين وغيرهم.

وفي هذا السياق نرى القاضي عبد الجبار يجعل من الاتفاق أو المواضعة الشرط الأول لأي تفاهم يحصل عن طريق اللغة، يقول: " فلو لم يتواضعوا عليها لما صح في لغات أدلة تفهم بها الأغراض يقع بها التخاطب (...) كما لا بد في اللغات من تقدم المواضعة " [1]، ويضيف في موضع آخر: " إن الكلام إنما يحصل مفيدا بالمواضعة لا لأمر يرجع إلى جنسه ووجوده وسائر أحواله، لأن وقوع الفائدة به يتبع المواضعة والعلم بها يحصل بحصولها ويرتفع بارتفاعها" [2]. واعتبر فرديناند دو سوسور حديثا اللغة مجموعة من المواضعات الضرورية (Ensemble de conventions nécessaires) تتبناها الهيئة الاجتماعية لتمكين الفرد من استعمال ملكته اللغوية[3]»، أي في تواصله مع بقية أفراد هذه الهيئة الاجتماعية.

إن ما يُستفاد من كلام القاضي عبد الجبار ومن كلام سوسور كذلك هو أن حصول التخاطب لا يتحقق إلا بمشاركة المُخَاطِب مُخَاطَبِهِ (أو مُخَاطَبيه) في معرفته وضع اللغة التي يجري بها التخاطب بينهما، وهذه المعرفة المشتركة معرفة قبلية، أي إنها تسبق عملية التخاطب نفسها، لأنه كما جاء في شرح

(1)- القاضي أبو الحسن عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تح أمين الخولي، ط1، القاهرة، 1380 هـ 1960 م، ج 16، ص 309 - 310، وينظر عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 32.

(2)- القاضي أبو الحسن الجبار، المرجع السابق، ص 101 - 102 والخطاب والتخاطب، ص 32.

(3)- Ferdinand De Saussure, Cours de Linguistique générale, ENAG/ Editions, 2ème éd, Alger 1994, p . 23.

الكافية. " لا يحسن أن يخاطب بلسان من الألسنة إلا من سبق معرفته لذلك اللسان" [1] .

سوى إن هذه المعرفة المشتركة بأوضاع اللغة لا تعني البتة أن مستعملي لغة من اللغات والتي بها يصنعون الخطابات التي يتواصلون بها يعرفون ضرورة جميع أوضاع اللغة التي يتعاملون بها، فذلك أمر صعب تحقيقه بالنسبة لأي كان من أهل اللغة أنفسهم[2]*، فضلا عن تفاضلهم في تحصيلها، فالأرصدة اللغوية التي يمتلكها مستعملوها متفاوتة ويستحيل أن يحصل فيها التطابق حتى وإن كانت هذه اللغة هي لغة المنشإ بالنسبة إليهم وكان انتماؤهم إلى جماعة اجتماعية واحدة، فبالنسبة إلى العرب ولغتهم على سبيل المثال يقول الزجاجي:" ليس كل العرب يعرفون اللغة كلها غريبها و واضحها ومستعملها وشاذها، بل ذلك طبقات يتفاضلون فيها". [3]

إن هذه المسألة لا تخصُّ العرب والعربية، إنما هي ظاهرة تنسحب على كل الشعوب ولغاتهم، فقد أكد لسانيون محدثون أنه ليس من الصواب في شيء أن نتصور أن شركاء عملية التواصل يتحدثون بدقة نفس اللغة وإن انتموا إلى نفس المجموعة اللغوية، فكفاءاتهم اللغوية ليست متطابقة بل متباينة كمًّا ونوعًا، على الرغم مما يحصل بينهم من تفاهم عند تواصلهم بهذه اللغة [4].

لكن، قد يوحي كلامنا عن المواضعة التي هي قاسم مشترك بين المتخاطبين وأنها ضامنة للتفاهم الذي يصل بينهم أننا نسوي بينها وبين الاستعمال، أو أن مستخدمي اللغة سواء في الخطابات النفعية (التداولية) أو في غيرها من

(1)- ابن الحاجب، شرح الكافية ص 128، وينظر الخطاب والتخاطب ص 52.

(2)* هذا على الرغم من أن الرصيد اللغوي في أي لغة مهما كان امتداده وثراؤه فإنه محدود وغير مفتوح إلى ما لا نهاية بل هو قابل للإحصاء.

(3)- الزجاجي، الإيضاح ، مرجع سابق، ص 92 وينظر الخطاب والتخاطب، ص 52.

(4)- Voir Cathérine Kerbrat- Oricchioni l'Enonciation, op. cit pp 14-15 et Jasette Rey Debove, Le métalangage, Armand Colin, Paris 1997, p. 25.

الخطابات كالخطابات الأدبية مثلا يلتزمون بالدلالات الوضعية للغة التزاما صارما ولا يحيدون عنها كما قد يفهم من كلام القاضي عبد الجبار الذي نعود إلى التذكير به، وهو أن " الكلام إنما يحصل مفيدا بالمواضعة (...) لأن وقوع الفائدة به يتبع المواضعة والعلم به يحصل بحصولها ويرتفع بارتفاعها".

إن المواضعة أو المواطأة شيء والاستعمال شيء آخر، فعلى الرغم من ضرورة توافر المواضعة بين مستعملي اللغة الواحدة، فإن ذلك لا يعني مثلما ذكرنا التطابق الكامل بين الرصيد المفرداتي الذي يمتلكه منها كل واحد منهم، سوى إن ذلك لا يعني أيضا عدم وجود قواسم مشتركة بين الأرصدة التي يتوافرون عليها وإلا انتفى التفاهم بينهم مثلما ينتفي بين من يستخدمون أنظمة لغوية متباينة.

وإذا كنا قد جعلنا من المواضعة شرطا لحصول التوصل فليس معنى ذلك أن هذا التواصل يضمنه اللفظ بوصفه وحدة لغوية معزولة، لأن اللغة ليست قائمة من المفردات لكل منها معنى تدل عليه وفقط، فاللغة كما يقول سوسور نظام من الأنظمة العلامية[1]، وكونها نظاما يفيد أن التواصل لا يحدث بالألفاظ معزولا بعضها عن بعض، إنما تؤدى هذه الوظيفة الاتصالية عن طريق الاستعمال؛ استعمال الأرصدة التي يقدمها الوضع لمستعملها، لذلك يميز عبد القاهر الجرجاني بين واضع اللغة (وهي الجماعة) وواضع الكلام وهو المتكلم فالاعتبار كما يقول "ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له"[2]. الذي يحترم في صناعة الكلام نظام اللغة التي يستعملها وقواعدها، بمعنى إنه لا يستعمل أوضاع اللغة في خطابه كيفما اتفق، إنما عليه أن يحترم قوانينها وإلا فسد كلامه أو خطابه وأخطأ تحقيق وظيفته الاتصالية، لذلك يقول :" (...) ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي

(1)- Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, op.cit, P. 33.

(2)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة، ط3، 1992، ص 417، وينظر كلامه على واضع اللغة في الصفحتين: 29 و49.

يقتضيه " علم النحو " وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تُخِلُّ بشيء منها"[1]، وقال أيضا: " (...) ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل" [2].

معنى هذا أن المسألة الأخرى التي لها علاقة بالجسر الواصل بين منشئ الخطاب وجمهوره هي مسألة التأليف، أي التأليف بين العناصر اللغوية التي أقرتها المواضعة والتي يختارها من الرصيد اللغوي المتاح له وفقا للرسالة اللغوية التي سَيُضَمِّنُهَا مقاصده التبليغية، وعلى ضوء قواعد النظم أو التأليف التي يسمح بها نظام لغة الخطاب. فاللغة إذًا تضع في متناوله أصنافا مختلفة من العناصر منها الأسماء بأنواعها والأفعال والظروف وحروف الجر والإشاريات...إلخ، لكن في التأليف بين هذه العناصر لصناعة الجمل والفقرات التي سيتكون منها خطابه يرعى طرائق هذه اللغة وأساليبها في الصياغة، فهو يخضع في ذلك للقواعد الصرفية والنحوية والتركيبية الخاصة للغة التي يُخَاطِبُ بها جمهوره، وحينئذ يكون قد وَلَجَ مجال الاستعمال، وهو عملية مرتبطة به بوصفه منشئًا للخطاب، فهو المسؤول عنها، وفيها يخضع حقيقة، كما ألمحنا، لنحو اللغة من حيث هو مجموعة أصول تضبط السلامة اللغوية دَلاَلَةً وتركيبًا، سوى إن ذلك لا يمنعه من ابتداع تراكيب جديدة إذا توافرت لديه الأهلية لتحقيق ذلك، فيأتي " بصور مبتدعة من الكلام وبتراكيب ذات المحتوى اللفظي غير المسبوق فيها"[3]، لأن ما يجيزه النحو كما قال الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح وهو محق:" وإن كان كثيرا بالنسبة إلى التراكيب فإن أصوله محدودة العدد، لأنه يدخل في الوضع، وأوضاع اللغة ومقاييسها محدودة العدد بالضرورة"[4] معنى هذا الكلام أن لمنشئ الخطاب حرية في

(1)- عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 81.

(2)- عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 49 - 50.

(3)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 138 - 139.

(4)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 139.

استخدام أوضاع اللغة سواء أكانت افرادية أم تركيبية، دون أن يحول ذلك أيضا بينه وبين استعمال وضع من أوضاع اللغة كما هو لفظا ومعنى بأن يبقيه على أصله إذا ما اقتضى ذلك الخطاب ومقاصده التبليغية.

وما يجب التذكير به فيما يخص الاستعمال الذي له هو الآخر علاقة بما أسميناه الجسر الواصل بين المُخَاطِب ومُخَاطَبِه (أو مخاطبيه)، هو تحوُّل المعاني الوضعية عند الاستعمال إلى معانٍ خطابية، فالمعنى الوضعي للاستفهام مثلا هو الاستنباء والاستفسار، لكنه قد يتحول إلى معنى آخر في الخطاب كأن يكون اسْتِنْبَاءً أو استعلامًا في اللفظ ومعناهُ غير ذلك كما في قوله تعالى يخاطب أهل الكتاب ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنت تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ (البقرة: 44)، فتعالى الله علوًّا كبيرًا أن يستفهم عباده على سبيل الاستخبار والاستفسار، فهو يَعْلَمُ ما تكنه الصدور وما توسوس به الأنفس ولا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض، فالمعنى الذي أدَّاه الاستفهام في الآية هو ذم المقصودين بالخطاب وتوبيخهم وتنبيههم على عظمة خطئهم في حق أنفسهم وهو أمر جلل، وهذه المعاني تؤكدها القرينة اللفظية الواردة في الآية وهي "أفلا تعقلون" وهو استفهام آخر يفيد معنى الاستنكار الشديد لما يفعله هؤلاء الناس، فالأفعال المجانبة للعقل لا يمكن إلا أن تكون منكرة، مذمومة ومتعجبٌ من سلوك المقدم عليها.[1]

فالاستعمال يُحَرِّرُ مُنْشئ الخطاب من التمسك الصارم بالمواضعة، وهو ما ستكون له انعكاساته على الخطاب، سواء على مستوى صياغته أو على مستوى تلقيه، على الرغم مما سبق تأكيده من أن المواضعة شرط من شروط حصول التفاهم وأنه من دونها لا يحصل التواصل بين المتخاطبين لأن الأساس في تحول المعاني الوضعية إلى معانٍ خطابية في صُلب الخطاب هو المواضعة نفسها التي يقاس على أساسها التغيير الذي يحدث للمعاني عند الاستعمال،

(1)- يُنظر في تفسير هذه الآية ، ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، 1969، ج 1، ص: 85 - 86.

فالخبر مثلا يحتفظ بصيغته المعروفة في الاستعمال، لكنه بتظافر جملة من العوامل في الخطاب يحدث تَحَوُّلٌ في المضمون الوضعي لصيغته وهو الإعلام بأمر أو بشيء ما فيفيد معاني أخرى غير معناه الوضعي مثل التحسر أو النصح أو إظهار العجز وما إلى ذلك، وهي معانٍ خطابية يظهرها الاستعمال حسب مقتضى الرسالة التي يتضمنها الخطاب. ومثاله من القرآن الكريم ما أخبر به نوح ربه من رفض قومه ما دعاهم إليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١...۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ نوح: آ.5 21-. إن الله وهو علام الغيوب يعلم علمًا قبليا هذا الذي يخبره به نبيه نوح الذي يعلم هو أيضا أن ربه على بينة بما يرويه له من أخبار، معنى ذلك أن الخبر في هذه الحالة لا يفيد جديدا يجهله المخاطَب، أي إنه خالٍ من المضمون الإفادي الذي يراد منه إزالة شك أو جهل، فلو كان قصد نوح منه تحقيق هذه الغاية لكان مُحِيلاً على حدِّ تعبير عبد القاهر الجرجاني، لأن إخبار المخاطَب بما أحاط علمه به خارج عن الصواب [1]، وبناءً عليه يظهر أن الخبر في الخطاب القرآني في الآيات التي أثبتناها وُظف لإفادة معان أخرى وهي شكوى نوح إلى ربه مما لقيه من قومه من ازورار وشدة أعراض عما دعاهم إليه وعجزه عن ثنيهم عن غيهم وعن إصرارهم على البقاء على الكفر والشرك على الرغم مما صرفه من جهد في سبيل ذلك معتمدا الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى، ويتضمن هذا الخبر أيضا معنى التحسر والتذمر الشديدين اللذين غلبا على نفس نوح وهو

(1)- يُنظر، عبد القاهر الجرجاني المقتصد في شرح الإيضاح للفارسي، نقلا عن عبد الرحمن الاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 71.

يرى قومه يعرضون عن الدعوة التي جاءتهم ويديرون لها ظهورهم متخذين الغيّ بدلاً من الرشد سبيلاً في الحياة على هذا النحو نرى أن الخبر غادر في الآيات المذكورة معنى الإعلام والإنباء ليؤدي معاني أخرى، وهي معانٍ خطابية أظهرها الاستعمال حسب مقتضى الرسالة التي يتضمنها الخطاب.

إن مثل هذه الإمكانية التي تتيحها اللغة تفتح أمام صانع الخطاب المجال اسعًا للتعبير عن عدد كبير من المعاني، لأنه لو كان كل ملفوظ لغوي (énon-cé linguistique) يحيل على عملية تلفظية (énonciation) خاصة تماما لا تقبل أي تغيير، " فإن التواصل بوجه عام يغدو مستحيلاً بين البشر"[1]، لأن ذلك يقيد الدور الاستعمالي الخطابي للغة ويضيّق المجال على مستعمل اللغة، فلا يستطيع التعبير عن جميع أفكاره أو سيؤدي ذلك إلى أن تكون عناصر اللغة غير قابلة للحصر وستمتد إلى ما لا نهاية له، وإلى ما تعجز ذاكرة الإنسان عن استيعابه وتخزينه.

ب ـ الظلال الإيحائية للغة:

إن هذه الوسيلة التي تضعها اللغة بين يدي مستعملها، وهو منشئ الخطاب في حالتنا، لتشكيل خطابه حسب الأهداف التبليغية لرسالته اللغوية، ذات علاقة بظاهرة لغوية أعم. وقبل التوقف عند هذه الظاهرة التي تُعَدُّ وسيلة شديدة الفعالية لتمكين مستخدمي اللغة عامة من التعبير عن جميع الأفكار والمعاني التي يريدون الإفصاح عنها، وهي أفكار ومعانٍ مُتَجَدِّدَة ومتطورة مع الزمن وليست محصورة في عدد معين لا تتجاوزه، لذلك يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح:" فلو دلّ كل لفظٍ في أصل وَضْعِهِ وفي الكلام على معين في جميع الأحوال، لتعذر التعبير عن أكثر المعاني المعروفة والتي لا يعرفها الناس وسوف تظهر على مَمَرّ الأيام"[2].

أقول قبل الوقوف على الظاهرة التي ألمحنا إليها، تجدر الإشارة إلى ظاهرة

---

(1)- Jean – René Ladmiral, Traduire ; Théorème pour la traduction, éd Galimard, Paris 1994, P. 141.

(2)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 139.

لغوية أخرى يجد فيها مستعمل اللغة، لاسيما في الخطابات الأدبية، وسيلة ناجعة لتبليغ مقاصده إلى متلقيه، ونعني بها ما يرافق اللفظ ، فضلا عن دلالته المباشرة المتواضع عليها من ظلال إيحائية تحف بمعناه المعجمي وهي ما يعتبره بلومفيلد(Bloomfield) قيما دلالية إضافية ترتبط بالدلالة الحقيقية للكلمة. (1)

وبخصوص النكهة الإيحائية التي تضيفها هذه الدلالات على الخطاب يقول: « [...] كل شكل من أشكال الخطاب له نكهته الإيحائية الخاصة بالنسبة إلى الجماعة اللغوية بأكملها"(2). فبإمكان منشئ الخطاب إذًا استثمار هذه الطاقة الإيحائية المشحونة بها الألفاظ في تبليغ مقاصده، فيكون لذلك وقعه الخاص على جمهوره، لأن مسألة الإيحاء هذه ذات طبيعة اجتماعية وثقافية، وبصفتها هذه يمكننا أن نعدها ضربًا آخر من المواضعة(3)*، ما دامت مرتبطة بثقافة أهل اللغة ونابعة من تجاربهم الاجتماعية الخاصة، لأنها تُكْتَسَبُ في أثناء اكتساب الإنسان اللغة داخل مجتمعه. وفي هذا المضمار يقول لادميرال يتحدث عن الظلال الإيحائية للغة : يجب أن نعيد لها طابعها الاجتماعي بأن نرى فيها " حدثا جماعيا يتعلق – بعبارات سوسورية– باللغة بدلاً من الكلام" (4)، فالأمر فيها مثلما يقول غاليسون(R. Galisson)، وكوست (D. Coste)، "لا يتعلق فقط بتنوعات فردية وانفعالية وإنما بثوابت على مستوى ما يمكن أن يطلق عليه استخدامات ثقافية"(5). فالإيحاء ليس

(1)-L. Bloomfield Cité par G.Mounin, in les problèmes théoriques de la Traduction, éd. Gallimard, paris, 1963, p. 145.

(2)- L. Bloomfield Cité par Jean-René Ladmiral, in Traduire : théoréme pour la Traduction, op. cit, p. 133.

(3)* وهذا لا يُلْغي البعد الفردي للظلال الإيحائية، يُنظر:Dictionnaire de rhétorique Michel Pougeoise, Armand Colin, Paris, 2004, p. 87

(4) - Jean – René Ladmiral, Traduire ; op. cit , p. 145.

(5)-Galisson.R et Coste. D, Cité par Ladmiral, op. cit, p. 145.

متعلقا بالكلام الفردي إنما باللغة من حيث هي مؤسسة اجتماعية، فكثير « من المتكلمين يمكنهم أن يتعارفوا من خلالها ويتواصلوا على أساس هذا الافتراض المسبق المشترك"[1]، لذلك فإن وورف (Worf) في تأكيده على الحمولة الثقافية لجملة من العناصر اللغوية يقول:" هناك وحدات لغوية الثقافة هي التي تحددها وبشدة" [2] وعليه فإنه " عندما ندرس الرصيد اللغوي للغة أجنبية، فإنه من السهل نسبيا تعلم دلالات الكلمات، لكن بالمقابل من الصعب بكثير التمكن من إدراك القيم الإيحائية التي لها علاقة شديدة بحساسية وتجارب متكلمي هذه اللغة. والإقامة لمدة طويلة في البلد الذي يتكلم هذه اللغة تمكن شيئا فشيئًا من اكتساب الإحساس بجميع أنواع الإيحاء"[3]، فورود كلمة "خنزير" مثلا في نص عربي ترافق دلالتها الوضعية التي تعني الحيوان المعروف جملة من الدلالات الإيحائية السلبية كالنجاسة والضعة والقبح والحقارة ورداءة الطبع وسوء الخلق، وما إليها، وهي إيحاءات لا تصاحب هذه الكلمة بالضرورة في جميع اللغات، إن لم نقل قد تحفها في بعضها إيحاءات إيجابية . وعلى سبيل المثال أيضا من الإيحاءات التي ترافق كلمة "ثعلب" في العربية المكر والدهاء بينما نجد هاتين الدلالتين الإيحائيتين منسوبتين إلى ابن آوى (Chacal) في إفريقيا وإلى الغراب في أمريكا الشمالية[4]، بينما الدلالة الإيحائية للغراب في العربية هي الشؤم وحدوث المفاجآت غير السارة التي تُنَغِّصُ الحياة على الإنسان وتملأ نفسه أَلَمًا وحُزْنًا، لذلك أضحى قوْلاً سائرًا قولهم: " أشأمُ من غراب وأفسق من غراب"[5].

إن مثل هذه الإيحاءات، إذا أحسن المخاطِبُ استثمارها، والتعامل معها، فإنها تُسْهِمُ إسهامًا كبيرًا في تشكيل البنية الدلالية للخطاب، بل

(1)- Jean – René Ladmiral, op. cit p. 146.

(2)- B. L Whorf, Cité par Mathieu Guidère, in Introduction à la Traductologie, De Beock, Bruxelles, Belgique, 2010, p. 142.

(3)- Jean- Claude Margot, Traduire sans trahir, la théorie de la traduction et son application aux textes bibliques, éd, L'Age de l'Homme, Lausanne / Suisse 1997, p. 118.

(4)- Voir , Jean- Claude Margot, op. cit, p 285.

(5)- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت (د. ت)، مادة «غرب».

وتُسْهِمُ أيضًا في تلقيه، أو لنَعُدْ إلى القول إنها وسيلة أخرى لربط الاتصال بين الجمهور والخطاب الذي يتوجه به إليه منشئه، على اعتبار أنها راسخة في ثقافة اللغة التي يتواصل بها المخاطِب مع مخاطبيه، أو بعبارة أخرى، إنها ظاهرة ثقافية لغوية يشارك فيها المخاطِب مخاطَبه (أو مخاطَبيه). ونعتقد أن رتشنباخ كان يومي إلى وظيفتها هذه عندما عدها " قيمًا تواصلية" (Valeurs communicatives)[1]، فبواسطتها يستحضر المتلقي دلالات غير الدلالات المباشرة لما يسمعه أو يقرؤه، على اعتبار أن الكلمة في هذه الحالة لا تدل على معنى وحيد لصيق بمرجعها وإنما تثير في ذهن مُتلقيها إيحاءات وانفعالات لا تحدثها في ذاته الدلالات المعجمية للغة.[2]

ج- إبهام أوضاع اللغة:

- قلنا فيما تقدم هناك ظاهرة لغوية يجد فيها المخَاطِبُ ومستعمل اللغة عموما سندا كبيرا لصناعة خطاباته التي يتواصل بها مع غيره، لأن ألفاظ اللغة خارج الاستعمال غير زمنية ومبهمة، وهي في هذه الحالة افتراضات[3]. هذه الظاهرة تنبه لها علماء النحو واللغة منذ القديم وتحدثوا عنها في أثناء تناولهم عملية التخاطب فأبانوا أن اللغة تضع بين يدي منشئ الخطاب (متكلما كان أم كاتبا) وسائل تمكنه من إيصال مقاصده إلى مخاطبه، ويعنون بذلك "أوضاع اللغة". وأهم ما يميز هذه الأوضاع هو " الإبهام" قال الرضي في " شرح الشافية " يتحدث عن هذه الظاهرة المميزة للغة البشرية، " لا يريد (أي ابن الحاجب) به (أي الإبهام) أن الواضع قصد في حال وضعه واحدا معينا، إذْ لو أراد ذلك لم يدخل في حده إلا الأعلام، إذ المضمرات والمبهمات

(1)- Reichenbach cité par Ladmiral in Traduire, Théorèmes pour la traduction, op.cit, p 134.

(2)- ينظر، شابحة حمرون، «نقد ترجمة الجملتين الاسمية والفعلية، من العربية إلى الفرنسية في رواية عبد الحميد بن هدوقة «ريح الجنوب»، ترجمة مارسيل بوا، دراسة نماذج، أطروحة دكتوراه في الترجمة ، جامعة الجزائر، 2007 /2008، ص 15.

(3) - Voir, Danica Seles kovitche, in interpreter pour traduire, p . 183.

وذو اللام والمضاف إلى أحدها تصلح لكل معين قصده المستعمل فالمعنى: ما وضع ليستعمل في واحد معين سواء كان ذلك الواحد مقصود الواضع كما في الأعلام أو كما في غيرها" [1].

والمقصود من الإبهام عند هؤلاء القدماء ليس الغموض، إنما المقصود منه هو عدم التعيين كما أشار إلى ذلك الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في أكثر من موضع من كتابه "الخطاب والتخاطب"، وسيبويه يستعمل هذا المصطلح في مقابل الاختصاص، من ذلك قوله في أثناء حديثه عن التمييز والمضاف إليه: " لي عشرون" فقد أبهمت الأنواع، فإذا قلت: " درهما" فقد اختصصت... فإذا قلت: " ويحه" فقد تعجبت وأبهمت من أي أمور الرجل تعجبت... فإذا قلت: فارسًا فقد اختصصت ولم تبهم"[2] .

أن تكون أوضاع اللغة غير دالة في أصل وضعها على شيء محدد يمنح مستعمل اللغة فرصا واسعة للتعبير عن مقاصده، وذلك حسب ما تقتضيه الرسالة اللغوية التي يسعى لإيصالها إلى مخاطَبِه(أو مُخاطَبيه)، بمعنى إن استعماله هذه الأوضاع المبهمة غير الدالة على شيء معين عندما تكون خارج الخطاب يقتضي منه أن يُكَيِّفَهَا حسبما تستوجبه طرائق رفع الإبهام عن أوضاع اللغة حال استعمالها. وليس المراد من هذا إخضاعها فقط لما تتطلبه السلامة النحوية، إنما أيضا لما يحقق للخطاب النجاعة في تبليغ المقاصد وهو ما يخضع لكفاءة منشئة في الاهتداء إلى أضرب من التوليف بين العناصر التي تضعها اللغة وقواعدها بين يديه وفقا لما يريد التعبير عنه من الأغراض كما يظهر من ردّ عبد القاهر الجرجاني على أولئك الذين يحصرون وظيفة النحو في معرفة سليم الكلام من سقيمه، فَمِمَّا قاله في ردّه هذا يتحدث عن

(1)- الرضي، شرح الشافية نقلا عن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 91.

(2)- سيبويه، الكتاب 1/288 و 299 نقلًا عن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 77.

الصفة:" وإذا نظرتم في الصفة مثلا فعرفتم أنها تتبع الموصوف، وأن مثالها قولك:" جاءني رجل " ظريف" و " مررت بزيد الظريف"، هل ظننتم أن وراء ذلك علمًا وأن ههنا صفة تُخَصِّصُ وصفة توضِّح وتُبَيِّن وأن فائدة التخصيص غير فائدة التوضيح كما أن فائدة الشيّاع غير فائدة الإبهام وأن من الصفة صفة لا يكون فيها تخصيص ولا توضيح ولكن يُؤتَى بها مؤكدة: كقوله " أمس الدابر" وكقوله تعالى:" فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة" (الحاقة: 13)، وصفة يراد بها المدح والثناء كالصفات الجارية على اسم الله تعالى جدُّه ؟ وهل عرفت الفرق بين الصفة والخبر وبين كل واحد منهما وبين الحال؟ وهل عرفتم أن هذه الثلاثة تتفق في أن كافتها لثبوت المعنى للشيء ثم تختلف في كيفية ذلك الثبوت؟"[1].

أوردنا كلام عبد القاهر على طوله لنؤكد من خلاله ما يعود إلى كَفَاءَةِ منشئ الخطاب في استغلال أوضاع اللغة وقواعدها النحوية والصرفية والتركيبية في بناء خطابه على النحو الذي يضمن به النجاعة في تحقيق الأهداف التبليغية المرسومة له، وعليه فإن نسج الخطابات خاضع لهذه الكفاءة التي يتوافر عليها المخاطِبُ لاستعمال أوضاع اللغة ونظامها الاستعمال المفضي إلى الغاية التي يسعى لبلوغها من خلال خطابه. وإلى هذه الكفاءة يعود الفضل فيما يفضُلُ فيه " النظمُ النظمَ والتأليفُ التأليفَ والنسجُ النسجَ والصياغةُ الصياغةَ، ثم يَعْظُمُ الفضلُ وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيرَه والمجانسَ له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القِيمُ التفاوت الشديد، كذلك يفضل بعضُ الكلام بعضا ويتقدم منه الشيءُ الشيءَ ثم يزدادُ فضله ذلك ويترقى منزلةً فوق منزلة ويعلو مرقبًا بعد مرقبٍ ويُسْتأنفُ له غاية بعد غاية حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع وتَحْسَرُ الظنون وتسقط القوى وتستوي الأقدام في العجز"[2].

(1)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص 30 - 31.

(2)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 35.

إذا كانت العبارة الأخيرة في كلام عبد القاهر هذا تنطبق أكثر ما تنطبق على الخطاب القرآني الذي بلغ الغاية التي لا يُدرِكُها جهدُ إنسان مهما ارتقت كفاءته في نسج الكلام، فإن النص في مجمله يُومِئُ فيما يخصُّ البشر إلى التفاوت الذي يحصل في تأليف خطاباتهم التأليف الأكثر قدرة على تحقيق أهدافهم التواصلية بما تتيحه لهم كفاءاتهم من إمكانات في توظيف ما توفره لهم اللغة من وسائل لأن استغلال طاقات اللغة في صناعة الخطابات لا ينحصر في حالة واحدة لا غير وإنما يختلف ويتعدد ويتنوع بحسب مستعملي اللغة وما أوتوه من قدرات في التأليف وتصريف أساليب الكلام التصريف الذي يقتضيه تحقيق المقاصد وبلوغ الغايات؛ متجاوزين في نسج خطاباتهم مستوى السلامة بالمفهوم النحوي التقعيدي الذي لا يتسم فيه الخطاب بفضيلة أو مزية ما، إنما يحصل له ذلك عندما يتفق لمنشئه أن "يخلق" بوساطة ما تتيحه له اللغة من وسائل تراكيب وهيئات وتآليف ذات أصالة بأن يعرف على وجه الدقة المواضع التي يضع فيها أوضاعها من خطابه وكيف يَضُمُّ بعضها إلى بعض ويستعمل بعضها مع بعض استعمالا يتخطى فيه الدارج المألوف إلى ما يُضفي على خطابه من المزايا ما يؤهله لبلوغ الأغراض التي أنشئ من أجلها، فكما يقول عبد القاهر: [....] ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تَؤمُّ" [1] ، وقوله أيضا "[...] لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعاً، وحتى تجد إلى التخير سبيلاً وحتى تكون قد استدركت صوابا"[2] والبلوغ بالخطاب إلى مثل هذا المستوى من الإحكام والصناعة اعتمادا على وسائل متاحة لأهل اللغة جميعا يحوج ليس فقط لمعرفة أوضاع اللغة وقواعد نظامها التي تضمن السلامة النحوية للخطاب وإنما يتطلب من منشئه فوق ذلك حسب عبارات عبد القاهر قوة

(1)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 87.

(2)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 98.

ذهن وفكر لطيف وفهم ثاقب، [1] وهي مؤهلات ذاتية تضفي على خطابه لمسته الخاصة التي تميزه عمَّا سواه من خطابات من جنسه صيغت بنفس اللغة.

إن الأوضاع المبهمة من حيث هي وسائل تتيح لمستعملها التعبير عن المقاصد التي يروم إيصالها إلى مخاطَبِه (أو مخاطبيه) تتطلب العلم بكيفية رفع الإبهام عنها عند انخراطها في نسيج الخطاب لتغدو مكونا من مكوناته، وهذا يقتضي منه ابتداءً المعرفة بأصنافها كيما يتعامل معها عند استعمالها وفق ما يتطلبه الصنف الذي إليه انتماؤها، فلا يعامل ما هو مبهم منها إبهاما مطلقا مما هو غير مقيد بجنس معاملته لما هو مبهم في جنسه: فالنوع الأول من حيث اتصافه بشدة الإبهام فإن أوضاعه لا تدل على ذوات أو أحداث، مثلما هي حال الضمائر وأسماء الإشارة على سبيل المثال، أما النوع الثاني فيخص اسم الجنس أو الاسم المختص والمقصود به " اللازم لما وُضِعَ له، مثل زيد وعمرو ورجل وفرس"[2] ورفع الإبهام عن هذين الصنفين حال استعمالهما في واقع الخطاب لا يحصل بطريقة واحدة فبالنسبة إلى النوع الأول من الأوضاع المبهمة التي منها كما ذكرنا الضمائر وأسماء الإشارة وغيرها مما لا يدل على شيء معين في الوضع كالظروف وأسماء الزمان والمكان مثلا، فإن محتواها يتعين بالقرائن المقالية والحالية حسب طبيعة هذه المبهمات، يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح يتحدث عن توظيف هذه المبهمات في الخطاب وتحويلها إلى أدلة ذات محتوى معين:" وهي مبهمة بمعنى أنها لا تدل على شيء معين في الوضع وبالتالي في الكلام المجرد من القرائن، فوجود هذه الدلائل المبهمة لا ينفصل أبدا عن القرائن وهي تمكين وضع اللغة لمستعملها من أن يرمز في كلامه إلى نفسه وإلى المُخاطَب والمُحَدَّثِ عنه والزمان الذي هو فيه أو ما قبله أو ما بعده وللمكان الذي هو فيه كمتكلم وبعلامات تقوم مقام الأسماء وهي الضمائر والظروف وغير ذلك... والجدير بالملاحظة بالنسبة

(1)- ينظر عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 98.

(2)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 92.

إلى عملهم هذا (أي النحاة العرب) هو توضيحهم أن الأسماء المبهمة يتحصل معناها ويتعين محتواها بالحال الخطابية بحضور المتخاطبين وتقدم الذكر على حد تعبيرهم وهم أول من قال بأن الزمان الذي تدل عليه الظروف المبهمة كالآن واليوم وأمس وغدوة أو غدا هو زمان المتكلم فهو بذلك مرجع الخطاب الزماني، فاليوم هو اليوم الذي يتكلم فيه وأمس اليوم قبل يومه وهكذا"[1].

إن هذه الأوضاع المبهمة بالمفهوم الذي ألمحنا إليه للإبهام والتي يتحدد معناها ويتعين في متن الخطاب يجب أن يرعى منشئ الخطاب في توظيفها سياقات استخدامها والقرائن القمينة برفع الإبهام عنها كيما تُسهم مع بقية مكونات الخطاب في التعبير عما يتضمنه من مقاصد: فهو مثلا لا يستعمل ضمير الغائب " هو" أو "هي" في خطابه إلا إذا كان قد تقدم له كلام عن الشخص الذي يعود عليه هذا الضمير[2]، ففي هذه الحالة يحل الضمير محل الاسم الذي تقدم ذكره، وبناء عليه يتعين محتواه الدلالي فيتجلى الغرض منه، وكل ذلك حسب ما يقتضيه السياق وغرض المتكلم (أو الكاتب) من إيثار استعمال الضمير في هذه الحالة بدلا من تكرار الاسم الذي جاء هذا الضمير عوضا عنه، على اعتبار أن " كل كلام ينظر إليه من حيث إفادته للأغراض التي يختارلها المتكلم الدلائل بالصيغ المناسبة لها". [3]

إن كون هذا النوع من الأوضاع المبهمة خاليا من أي محتوى دلالي خارج الاستعمال[4]، يتيح لمنشِئ الخطاب هامشا معتبرا من الحرية في التعامل معها، فالضمير "أنت" ليس له من حيث هو وضع مرجع محدد، من ثم فإن المخاطِب (متكلما كان أم كاتبا)، يمكنه أن يحيل من خلاله على أي مخاطب ذكر، ففي

(1)-عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع السابق، ص 226 - 227.

(2) - Voir Jean – Michel Gouvard, La pragmatique Outils pour l'analyse littéraire, Armand Colin, Paris, 1998, pp 12-13.

(3)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 140.

(4)- Voir Christian Baylon et Xavier Mignot, Sémantique du langage, éd Nathan, Paris 1995, pp 78-79.

الآية 116 من سورة المائدة على سبيل المثال ورد هذا الضمير مرتين بمرجعين مختلفين، قال المولى تعالى﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ في الاستخدام الأول للضمير " أنتَ" في الآية كان المرجع هو المسيح عليه السلام، أما في الاستخدام الثاني فإن مرجعه هو الله جلت قدرته.

إن مثل هذا التنوع للمحتوى الدلالي للضمائر سواء أكانت للمتكلم والمتكلمين أم للمُخاطَب والمُخاطَبين أو للغائب وللغائبين كما هو ذائع في الخطابات ينسحب أيضا على أسماء الإشارة وعلى الظروف المبهمة ، والأمثلة عنها كثيرة جدا في الخطاب القرآني وفي الخطابات الأخرى، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾الأنبياء: 106، مرجع اسم الإشارة"هذا " مذكور في الآية التي قبلها؛ وهو ما ورد في الزبور مما وَعَدَ به الله الذين يعبدونه ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾الأنبياء: 105.

وإذا جئنا إلى الآية 191 من سورة آل عمران وجدنا مرجع اسم الإشارة "هذا " هو السماوات والأرض: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ من البين أن اسم الإشارة في الحالتين اللتين استشهدنا بهما تحدد محتواه الدلالي من خلال السياق الذي ورد فيه وما صاحبه من قرائن مقالية، فقد اكتسب في كل حالة من الحالتين محتوى دلاليا معينا حسب الغرض من استخدامه وهذا ينسحب على بقية أسماء الإشارة مثل " تلك" التي نراها هي الأخرى تأخذ في كل استعمال في الآيتين الآتيتين محتوى دلاليا معينا، قال تعالى يخاطب نبيه موسى عليه السلام : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾طه: 17، إن

المحتوى الدلالي لـ "تلك " في الآية تحدد من خلال قرينة مقالية هي اللفظة "يمينك" التي فهم موسى من خلالها أن الأمر يتعلق بما يحمله في يمناه، كما وضحته الآية التي تلتها: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾طه: 18، وهذا الاسم الإشاري نفسه نراه يتعين بمحتوى دلالي مغاير في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾البقرة: 11. تدل "تلك" هنا على مزاعم أهل الكتاب التي جاءت الآية لتفندها، فإذا كان محتواها الدلالي ماديا في الآية الأولى فإن محتواها هنا محتوى معنوي، والأمثلة على تعين محتوى هذه الإشاريات المبهمة داخل الخطاب وداخل الخطاب فقط كثيرة سواء في القرآن الكريم أو في الخطابات الأدبية، ويصدق ذلك على الأسماء الموصولة أيضا مثل :" الذي" و "التي" و "الذين" وغيرها، فإنها لا تدل على شيء معين في الوضع هي الأخرى. إن كون هذه الأوضاع على النحو الذي حاولنا بيانه يُمَكِّن منشئ الخطاب كما ذكرنا من توظيفها حسب أهدافه التبليغية ووفقا لما تقتضيه بنية الخطاب، وهو ما تتيحه له أيضا طائفة من ظروف الزمان والمكان التي يتعين مدلولها من خلال مستعملها: زمانه ومكانه كما هي الحال في المقطع الآتي من رواية عبد الحميد بن هدوقة " ريح الجنوب" على سبيل المثال: " ويلاحظ رابح عابد بن القاضي خارجًا من داره متجهًا نحو مصلاه، فقال مخاطبا إياه في نفسه: " صل ما شئت، فالغنم لن أسرح بها اليوم ولا بعد اليوم" [1].

إن ظرف الزمان" اليوم" في هذا الحوار النفسي لرابح الراعي مرجعه الزمان الذي تتحدث فيه الشخصية الروائية، وهو زمنٌ محدَّدٌ في الخطاب، أما خارجه فان الظرف" يوم" لا يدل على" يوم" معين، والأمر نفسه ينطبق على

(1)- عبد الحميد بن هدوقة، « ريح الجنوب» (رواية) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970، ص 110.

عدد من ظروف الزمان والمكان. فالظرف "هنا" مثلا خارج نسيج الخطاب ليس له مضمون محدد؛ فهو يصلح من حيث هو وضع للدلالة على أي مكان. وإذا وظف في الخطاب فإن دلالته تتحدد بالنسبة إلى المخاطِبِ والمُخَاطَبِ ، كما في المقطع الآتي من الرواية المذكورةآنفًا :" [...] فقال الشيخ:

" إن الناس هنا منذ الاستقلال لم يعد يروقهم أي عمل، كل واحد صار ينتظر أن يُمْنَحَ شهرية مقابل ما عمله أو لم يعمله أثناء الثورة "[1].

إن لُجُوءَ منشئ الخطاب إلى استعمال الظرف بدلاً من ذكر المكان الذي يحيل عليه يبرره في هذه الحالة كون الشخصية الروائية تتحدث عن مكان معروف لدى الشخصية التي تحاورها بحكم أن المكان الذي تتحدثان عنه هو المكان الذي يجمعهما أثناء تحاورهما.

أما بالنسبة إلى القارئ فإن الإبهام يرتفع عن هذا الظرف ويتعين له محتواه، لأن الكاتب سبق له التعرض للمكان الذي يحيل عليه وهو القرية التي تجري فيها أحداث الرواية، من ذلك قول السارد في مفتتح الفصل الثاني من الرواية " أصبحت القرية نشيطة حافلة بالرغم من الحر، تستعد لتحيا يومًا قلما شهدت مثله"[2].

إن ظرف المكان "هنا" سمح للكاتب أن يحيل من خلاله على مسرح الأحداث (القرية) من دون أن يلتبس الأمر على القارئ، بهذه الكيفية وحسب ما يقتضيه الخطاب تخرج مثل هذه الظروف من اللاتعيين إلى التعيين، فتؤدي الوظيفة التي حددها لها منشئ الخطاب وفقا للأغراض التبليغية التي توجهه في اختيار الأوضاع المناسبة لإنجازها. فاستعماله " هنا" مثلاً ليس كاستعماله "هناك"، على اعتبار أن "هنا" تُحيل على المكان الذي يتموقع فيه المتحدث أما "هناك" فتحيل على مكان لا يتواجد فيه أثناء حديثه، وهكذا يكون الحال مع ظروف أخرى مثل " أمس" الذي يستعمله في خطابه للإحالة على اليوم

(1)- المرجع السابق، ص . 44.

(2)- عبد الحميد بن هدوقة، المرجع السابق، ص . 41.

الذي يسبق اليوم الذي يتحدث فيه وقد يستعمله للإحالة على ما يسبقه مطلقا، والقرائن التي ترافقه في الخطاب هي التي تحدد محتواه الدلالي، وهو ما يحدث كذلك مع ظرف الزمان " غدا" الذي يحيل هو الآخر حسب القرائن التي يحيطه بها منشئ الخطاب عل اليوم الذي يتلو اليوم الذي يجري فيه الكلام مباشرة، وقد يدل على أي يوم يعقبه، ففي قوله جلَّ جلاله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ءَأُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾القمر: 23 - 26. إن سياق الخطاب يُبَيِّنُ أن الظرف "غدًا" في هذه الحالة لا يدل على اليوم الذي يتلو مباشرة اليوم الذي يُخَاطَبُ فيه قوم ثمود، وإنما مدلوله هو يوم الحساب، وقرينته قوله تعالى في الآية الأولى من السورة: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾﴾القمر: 01، وقد يحمل هذا الظرف نفسه دلالة أخرى، فيدل على اليوم الذي يلي اليوم الذي يتكلم فيه مُسْتَخْدِمه في الخطاب كما في المقطع الحواري الآتي من نص روائي:

" - هل يجب غلق الباب بإحكام ؟

أعتقد أن ذلك حسن !وبَلِّغْ خاصة ألا يسمح بالدخول غدا لأي شخص قبل منتصف النهار".[1]

وَفَّر الكاتب في هذا السياق قرينة لظرف الزمان " غدًا" رفعت عنه الإبهام ومنحت له مدلولاً محددًا وهو اليوم الذي يعقب اليوم الذي تتحادث فيه الشخصيتان، خلافا لما دلَّ عليه في المثال الذي تقدمه، إذ كان مدلوله كما رأينا اليوم الذي يجمع فيه المولى تعالى عباده لمحاسبتهم على أفعالهم ، وهو يوم بعيد جدًا – حسب تقديرنا الإنساني للزمن – عن اليوم الذي يجري فيه الخطاب.

(1)- Alexandre Dumas fils, La dame aux Camélias (Roman), librairie générale française, Paris 1993. P. 143.

هكذا يبدو واضحا أن مثل هذه الأدلة المهمة تمكن منشئ الخطاب من أن يستعملها عوضا عن أدلة أخرى في صناعة خطابه كلما اقتضى منه الأمر ذلك، فأضحت بالنسبة إليه دلائل على دلائل حسب عبارة الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح [1]، بعد أن كانت في الوضع وحدات لا تحمل دلالة معينة.

إذا كانت الأوضع المهمة المار ذكرها تتيح لناسج الخطاب استغلالها على النحو الذي حاولنا إلقاء الضوء عليه، فإن هناك أوضاعا مهمة أخرى يلجأ إليها لتأدية وظائف أخرى تتطلبها عملية التواصل حسب الغاية التي يرسمها لخطابه، وفي هذا السياق يجب التذكير ابتداءً أن في اللغة ما لا يحتاج إلى علامة زائدة تدخل عليه لتعيينه، لما يتوافر عليه من استقلالية في ذلك، وهذه هي حال اسم العلم، فالعلم " معرفة بنفسه لا بشيء دخل عليه أو فيما بعده "[2]وفي توضيح ما يتميز به اسم العلم عن بقية أوضاع اللغة يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح:" فكل اسم علم يطلقه الناس على فرد معين بالضرورة، فإما أن يرتجل وإما أن يكون أصله من مجموعة الأعلام التي تعارف عليها الناطقون بلغة من اللغات، ولهذا لم يكن هذا العلم بعد وقبل التسمية مخصصا لمعين لأنه من عرف المجتمع الخاص بالأعلام فينتقل إلى المسمى به هو الشخص المعين فإطلاقه على فرد معين يعتبر ذلك النحاة بأنه صار معرفة بالوضع الخاص... فليس واضع اللغة (المتواضعون عليها) هو الذي يخصص العلم الخاص لمعين، لأنه لا وضع في أي لغة كانت إلا لغير معين، ولأن تسمية الأشخاص أخص من الوضع، كما قال الخليل: [زيد] جعلوه سمي بذلك خاصًا ". إلا أن النحاة قالوا بأن :" العلم المعرفة بالوضع" وهو أنك تسمي الرجل باللفظة التي هي زيد فيعرف بها وتصير علامة له".[3]

(1)- ينظر كتابه، الخطاب والتخاطب، ص. 255.

(2)- سيبويه، الكتاب، قلا عن عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص. 83.

(3)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 83 - 84.

يترتب على هذا الذي يتميز به "العَلَمُ"عما سواه من عناصر اللغة أن منشئ الخطاب متكلمًا كان أم كاتبا لا يحتاج لأن يوفر له، ليضحي معروفًا لدى مخاطَبِه، أَضْرُبَ القرائنِ التي يُحوجُهُ إليها تعامله في خطابه مع بقية أوضاع اللغة، فمع أسماء الأعلام لا يحتاج المتلقي في معرفتها للعودة ضرورة إلى حال الخطاب ولا إلى تقدم الذكر، إنما تغنيه عن ذلك معرفته السابقة لها.[1] إن هذه الخاصية التي يتفرد بها اسم " العلم" هي إذًا من الإمكانات المهمة التي توفرها اللغة لمستخدميها لصناعة خطاباتهم. سوى إن هناك مسألة فيما يخص التعامل مع اسم العلم لا بد من الإشارة إليها لدفع اللبس عما قلناه عن تفرده دون أوضاع اللغة الأخرى بالاستقلالية في التعيين. تتعلق هذه المسألة بالحالات التي تدخل فيها العِدةُ عليه، أي بالمناسبات التي يُؤتَى به مثنى أو جمعًا، قال سيبويه:" فإن قلت هذان زيدان منطلقان ... لم يكن هذا الكلام إلا نكرة من قبل أنك جعلته من أمة كل واحد منهما زيد... وليس واحد منهما أولى به من الآخر"[2] . ففي هكذا حالات يتعامل منشئ الخطاب مع العلم تعامله مع النكرة. فإذا أحوجه غرض من أغراض التداول إلى تعريفه مع احتفاظه بالعدة اقتضى منه ذلك إلحاق أداة التعريف به مثلما يصنع عندما يحتاج في موضع من مواضع الخطاب إلى تعريف النكرة لغاية تبليغة معينة، فيحق له في ضوء ذلك استخدام مثل التعابير الآتية:" غادر المحمدان القرية عند الفجر " و " أقبل العمرون على المدينة وأهلها يترقبون جديد الأخبار، فألقوا عليهم البشرى" و " بينما كان زيدا السفينة يتبادلان أطراف الحديث في هدوء بال مُسْلِسِين لها القياد، إذا بعاصفة هوجاء تأخذها في كل اتجاه " و " مرَّ وقت طويل على العليين وهما يتناقشان في أمر تسريحهما من العمل" إلخ.

(1)- ينظر المرجع السابق، ص 84.

(2)- سيبويه، الكتاب، نقلا عن عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 85.

إن إمكانية المجيء بالعلم نكرة وما يوفره نحو اللغة من طرائق لتعريفه في هذه الحالة يعد في حد ذاته مما تقدمه اللغة لمنشئ الخطاب من وسائل لبناء خطابه على النحو الذي يتوافق مع ما يسعى لإيصاله إلى المتلقين المقصودين به.

هناك، كما تقدمت الإشارة، أوضاع مبهمة غير التي مر ذكرها تتيحها اللغة لصانع الخطاب لتأدية وظائف أخرى تتطلبها عملية التواصل، منها على سبيل المثال لا الحصر: كل ، وبعض، ومثل، وجميع، وغيرها من أوضاع اللغة مما لا يختص قبل الاستعمال بما هو معين، شيئا كان أم ذاتا. فهذه الأوضاع تتيح هي الأخرى لصانع الخطاب أضربا من الاستعمال حسب ما تمليه عملية التواصل باللغة. يمكننا أن نمثل لهذا الصنف من الأوضاع باستعمالات في القرآن الكريم وفي بعض النصوص الأبية. قال تعالى في كلامه عما ينتظر الظالمين يوم القيامة من عذاب لا يصرف عنهم ولو ملكوا خيرات الأرض كلها وقدموها ليفتدوا بها أنفسهم من هذا المصير :﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾ الزمر : 47 - 48. إن «مثل» في ما أقره الله عزَّ وجلَّ في حقّ الظالمين في خطابه لها مضمون دلالي معين، يتمثل في كلّ ما يوجد على وجه البسطة من خيرات أنعم الله بها على عباده.

إن استعمالها بهذه الكيفية خلصها من الفراغ الدلال الذي كان يميزها وهي وضع، أي قبل أن تندرج في الخطاب لتصبح وحدة من الوحدات المكونة لنسيجه. وهذه الوحدة نفسها نراها في مواضع أخرى من القرآن الكريم، تكتسي مضامين دلالية غير المضمون الدلالي الذي امتلأت به في الموضع الذي استشهدنا به. ففي التعرض لمن أنكر من قوم نوح عليه السلام نبوته ينقل لنا القرآن قولهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي

﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ المؤمنون: 33 - 34، ففي الموضعين من الآيتين امتلأت الوحدة «مثل» بمضمون دلالي غير المضمون الدلالي الذي رأيناه من قبل، فهي هنا تُحيل على مجموعة من البشر يعيشون في زمن ومكانٍ محدّدين ويحملون معتقدات معينة ولهم موقف معين من الرسول الذي بُعث إليهم لهدايتهم كي يقلعوا عمَّا هم فيه من ضلال، وهي في سياقها هذا تشمل الذُكران كما الإناث من الأناسي ممن بلغ سن التكليف على اختلاف أسمائهم وأشكالهم وألوانهم وتباين أعمارهم. وقد يُضيّق مستعملها في السياقات الأخرى من دائرتها الدلالية حسبما يقتضيه خطابه فيحدّدُ مضمونها حينئذٍ بمفرد، سواء أكان هذا المفرد شيئًا ماديا أم معنويا، وسواء أكان جماداً أم كائنا حيًّا على النحو الذي استخدمه فيه عبد الحميد بن هدوقة في أثناء محاورة العجوز رحمة بطلة الرواية (نفيسة)، فقد قالت تخاطبها: «... الرجال هنا كالوحوش يلتهمونك بأعينهم إن رَأُوك، فهم لا يرون مثلك في بيوتهم ولا في غدوهم ورواحهم» [1].

مَكَّنت الوحدة اللغوية «مثل» الكاتب في هذا الاستخدام من استرجاع جميع ما يتعلق بشخصية نفيسة من سمات مادية ومعنوية تعرضت لها الرواية من قبل، فمضمونها الدلالي يحيل على هذه الفتاة الجميلة المثقفة التي تطبَّعت بطوابع المدينة وأضحت لها نظرة للحياة مخالفة لنظرة أهل القرية التي أصبحت تنتسب إليها بالبدن ليس غير، أما أفكارها فغير أفكار أهلها، وقناعاتها وتطلعاتها غير قناعاتهم وتطلعاتهم، فهي تختلف عنهم في كل شيءٍ حتى في لباسها. وهذه كلها دلالات تلتقي في هذه الوحدة التي استخدمتها المتحدثة في المقطع المذكور من الخطاب للإحالة على المتحدث إليها، ومن خلال ذلك يكون المؤلف قد ذكَّر قراءه بما سبق للخطاب رَصْدَهُ من ملامح

(1) - عبد الحميد بن هدوقة، «ريح الجنوب»، مرجع سابق، ص.38.

ومواصفات فارقة لهذه الشخصية وبذلك تكون الوحدة اللغوية «مثل» قد غادرت في سياق استعمالها إبهامها لتحيل على شخصية مفردة أنثى تحمل اسماً خاصا وذات نسب معين وأوصاف مادية ومعنوية يشكل مجموعها هويتها التي تجعل منها ذاتا متميزة عن بقية أفراد قريتها. معنى هذا أن ما امتلأت به هذه الوحدة المبهمة في أضعاف الجزء الذي أثبتناه من الحوار غير ما امتلأت به في سياق الآيتين القرآنيتين اللتين وقفنا عندهما.

إن مثل هذه الإمكانات التي تتيحها «مثل» لِمُنشِئ الخطاب لصياغة خطابه وفق ما يناسب الرسالة التي يروم إيصالها إلى مُخاطَبيه تُتيحُهُ له أيضا الأوضاع المبهمة التي من صنفها، ونعني بها تلك التي سبق ذكرها وهي: «كل وبعض وجميع وغير»، ونكتفي بالتمثيل إضافة إلى ما قدمناه عن «مثل» بالوحدة المبهمة» بعض ، التي كأخواتها لا تدل على معين إلا عندما تغدو عنصرا في بنية الخطاب كما في قوله تعالى ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ غافر: 77. إن «بعض» في سياق استعمالها في هذه الآية ذات مضمون دلالي غيبي، لأن ما يعد به الله عزَّ وجل الذين يجادلون في آياته ويكذبون بما أُرسلَ إليهم هو العذاب يوم القيامة. ما يوضح هذا المضمون الغيبي الذي تحمله «بعض» في هذا الاستعمال هو قوله تعالى قبل ذلك في السورة نفسها: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾ غافر: 70 - 72، وهو المعنى الذي توصله هذه الوحدة إلى المخاطَب في الآية وهو رسولٌ وإلى المخاطبين بها عامة وهم مجموع البشر على سبيل الاعتبار.

وقد اكتسبت هذه الوحدة نفسها في القرآن مضامين دلالية غير ما رأيناه في الآية السابقة، من ذلك قوله جلَّ من قائل:﴿...وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ١٢﴾ الحجرات: 12،

إن مضمون «بعض» الأولى في الجزء الذي أثبتناه من الآية يحيل على أولئك الذين يتناولن غيرهم بالسوء ويتتبعون معايبهم ونقائصهم، بمعنى إن مرجعها هو المعتدون، أما « بعض» الثانية فمرجعها المُعْتَدَى عليهم، وبالإضافة إلى ذلك فإن المقصودين بالخطاب (المعتدون والمعتدى عليهم) ليسوا عامة خلق الله أجمعين؛ فغير المؤمنين مستثنون من الخطاب ولا يدخلون في المجال الدلالي الذي تستمد منه «بعض» في الحالتين حمولتها الدلالية، لأن الخطاب كما يوضحه القسم الأولى من الآية موجه إلى المؤمنين دون سواهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ...﴿١٢﴾﴾ الحجرات: 12.

بهذه الكيفية التي وُظِّفَتْ فيها في الخطاب القرآني حسب ما يلائم مقاصده التبليغية وظفت أيضا في غيره من الخطابات ومنها الخطابات الأدبية، فإبراهيم نصر الله استعملها هذا الضرب من الاستعمال في روايته « حرب الكلب الثانية» فقد قال ساردها « وجود سيارات إسعاف بصورة مستمرة أعطى الناس بنوعيهما في زمن الظلام الكئيب ثقة كبيرة في أنهم بين أيدٍ أمينة، بل إن بعضهم أصبح يفرط في تناول أشياء لم يكن يتناولها من قبل أو يكثر من تناولها ، سواء أكانت مأكولات أو مشروبات أو ما يعقبهما»[1].

إن «بعض» في هذا المقطع السردي لم تَعُدْ مبهمة الدلالة مثلما كانته قبل توظيفها في الخطاب، فهي في موضعها منه تحيل على صنفين من الناس هم الفقراء، المعوزين والأثرياء الذين دار حولهم الحديث في الرواية من قبل، فأصبحت نتيجة لذلك تعبر عن مُعيَّنٍ، وهذا المُعَّين في هذه الحالة هم بشر من الجنسين ينتمون إلى فئتين اجتماعيتين مختلفتين من حيث وضعهما المادي، وهو ما أراد المؤلف التذكير به في هذا الموضع من خطابه لغاية ذات

(1)- إبراهيم نصر لله، «حرب الكلب الثانية» (رواية) ، ط. 6، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، 2018، ص. 68.

علاقة بالرسالة التي أراد تمريرها وهي التنبيه على الاستغلال البشع الذي يتعرض له الإنسان من أي مستوى اجتماعي كان من قبل محتالين وسماسرة يستغلون حالات الضعف التي هم فيها لاستنزافهم مثلما يفعله مالك سيارات الاسعاف (بطل الرواية) والمتآمرين معه في مشروع إنساني استعمل لأغراض غير إنسانية.

وهناك أدلة مهمة أخرى لا يُستغنى عنها في صناعة الخطاب، وهذه ليست لها وظيفة تلك التي تقدم الكلام عليها، فهي لا تكون مثلها أدلة على أدلة حسب عبارة الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، فعملها يقتصر على تعيين مضامين أدلة أخرى أو تستعمل لتأكيد عدم تعيين مضامينها [1]، كما هو الشأن بالنسبة إلى «أل» التعريف وتنوين التنكير والإضافة والنداء، فهذه الأدلة لها أهميتها هي الأخرى في تمكين المخاطب من التصرف في المعاني التي تحملها العناصر اللغوية المتآلفة في نسيج الخاطب على النحو الذي تتطلبه الرسالة التي يروم إيصالها إلى متلقيه. ففي الخطاب القرآني وفي الخطابات الأدبية استعمال واسع لهذه الأدلة يُميط اللثام عن الدور الذي تؤديه في صناعة الخطاب. من المعروف نحويا أن النكرة تدل على ما يجهله المُخَاطَب سواء أكان هذا المجهول من المخلوقات الحية أم من الأشياء الأخرى التي تحفل بها الطبيعة، وقد يقصد منشئ الخطاب إلى استخدام ما يتحدث عنه بهذه الصفة، أي أن يتركه على إبهامه ليقع على أي مسمى من جنسه، لأن الاسم النكرة كما يقول المبرد: «هو الواقع على كل شيءٍ من أمته ولا يخصُّ واحدًا من الجنس دون سائره» [2]، ففي قوله تعالى: ﴿وجاء رجُلٌ من أقصى المدينة يسعى، قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾

(1)- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 255.

(2)- أبو العباس المبرد، المقتضب، 4/286 نقلًا عن عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص. 79.

(القصص: 20)، إن كلمة «رجل» لا تُعَيِّنُ في سياق استعمالها في الآية مَنْ هو الرجل المقصود من بين جنس الرجال، واستعمالها بهذه الكيفية مقصود لأن إخطار الرجل موسى بالمتربصين به لتصفيته كان في سرية تامة وإلا اكتشف أمره فيقع بين أيدي فرعون وملئه فيقتلوه، معنى ذلك أن اعتماد التنكير في هذه الحالة أملته ضرورة خطابية حتى تنسجم هذه الوحدة (أي كلمة رجل) دلاليا مع السياق الذي وظفت فيه، فيكون للسرية التي سيغادر فيها موسى المدينة معنى﴿ فخرج منها خائفا يترقب قال ربي نجني من القوم الظالمين﴾ (القصص: 21)، وإذا ما اقتضت ضرورة خطابية إزالة الإبهام عن النكرة والانتقال بها إلى التعيين فإن اللغة تضع بين يدي المُخاطِب وسائل لتحقيق هذه الغاية، وهذه الوسائل هي العلامات أو الأدلة التي قلنا، إن وظيفتها في الخطاب هي تعيين مضامين أدلة أخرى كما في قوله عزوجل ﴿ يا نساء النبي من يأتي منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرًا﴾ (الأحزاب: 30).

إن كلمة «نساء» من حيث هي وضع من أوضاع اللغة نكرة ومبهمة ، لأنها في صورتها هذه ذات مضمون دلالي عام يجعلها صالحة لأن تحيل على جميع النساء من دون أي تحديد، بمعنى إنه لا يتأتى للمتلقي عند ورودها في الخطاب على هذا النحو أن يعرف على أيٍّ من النساء تقع على وجه الدقة والتحديد. ودفعا لهذا التعميم، وانسجاما مع الغرض التبليغي في الآية، ولأهمية هذا الغرض أحيطت بعلامتين من العلامات التي وظيفتها في الخطاب تعيين مضامين غيرها من الأدلة: العلامة الأولى هي النداء بـ«يا» وهي الخطوة الأولى لإخراجها من الإبهام الذي كانت فيه، والعلامة الثانية هي الإضافة والإضافة هنا ليست أية إضافة، إنما هي إضافة إلى شخص النبي بكل ما هو مفعم به من حمولة دلالية دينية وقُدسية. والتأكيد على تعيين مضمونها بهاتين العلامتين ذوعلاقة بطبيعة مضمون الخطاب في الآية : فالمسألة تتعلق

بتحذير من أمرٍ عظيم يجب اجتنابه، فالله عزَّ وجلَّ إذا كان قد نهى الناس جميعا عن ارتكاب الفاحشة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾. (النحل: 90)، فإن نهيه نساء النبي من الوقوع فيها أولى، وليس أدل على عظمة هذا الأمر عندما يتعلق الأمر بنساء النبي خاصة أنه تعالى حرَّم حتى اقْتِرَانَهُنَّ بغيره من بعده مصداقًا لقوله جلَّت قدرته يُخَاطِبُ عباده المؤمنين ﴿(. . .) وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾ (الأحزاب: 53). فإذا كان مثل هذا الاقتران أمراً عظيماً عند الله ، فإن إتيانهن الفاحشة أعظم، وعليه تبدو العلاقة واضحة بين الغرض التبليغي في الآية وبين اعتماد التعيين فيها بعلامتين، وكيف أن هاتين العلامتين (النداء والإضافة).الملحقتين كأداتين زائدتين بالوحدة المقصود تعيينُ مضمونها مكنتا من إنجاز هذه الوظيفة حسب ما يناسب الغاية المتوخاة من الخطاب، فلو اكتفت الآية بالنداء مع اعتماد بناء «نساء» على ما ترفع به وهو الضَّم «يا نساءُ» على سبيل النكرة المقصودة، فإن هذا الإجراء ينتقل بها من الشيوع وعدم التحديد إلى التعيين، سوى إن هذا التعيين لا يحقق هدفًا تبليغيًا بالأهمية التي ألمحنا إليها، لذلك وقع تأكيده بالإضافة على النحو الذي حاولنا أن نبينهُ وبُنيت الوحدة المراد تعيين مضمونها على الفتح حسب ما يقتضيه نظام اللغة العربية.

وأداة التعريف «أل» من الأوضاع المبهمة أيضا التي يُعْتَمَدُ عليها كذلك لتعيين مضامين العناصر اللغوية التي يتشكل منها الخطاب عندما تُلْحَقُ عَلاَمَةً بالوحدات المناسبة لها، فهي في استعمالاتها المختلفة تفيد التعيين على اعتبار أن منشئ الخطاب يستغلها فضلاً عن ذلك لأداء أغراض خطابية أخرى[1]* أما لُجُوؤُهُ إليها لنقل الوحدة اللغوية ذات العلاقة في خطابه من

(1)* كأن تُستخدم للعهد الذكري بأن تفيد علم المخاطب المسبق بمصحوبها لِوُروده نكرة

الإبهام أو من العموم والشيوع إلى التعيين حتى يتجلى لمتلقيه مضمونها على وجه التحديد، فمما نمثل له به قوله جلَّ من قائل: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾(الإنسان: 01).

إن الوحدة اللغوية «الإنسان» وردت في سياق الآية معرفة ب «أل»، وصورتها قبل إلحاق هذه العلامة بها هي « إنسان» التي وإن لم تكن متوغلة في الإبهام شأن «مثل» أو «غير» من حيث إنها تحيل على أي فرد من الأفراد في حقل دلالي معين هو حقل المخلوقات الحية الناطقة العاقلة في مقابل الكائنات الحية غير العاقلة وغير الناطقة، وحقل الأشياء ، سوى إنها على الرغم من ذلك لو جاءت في الآية على التنكير، لكان مدلولها مبهمًا على المخاطَب، من جهة أنها ستُحِيلُ على أي فرد من أفراد جنس الإنسان من دون أن تُخَصِّصَهُ بالتعيين من بين أفراد جنسه. ولما دخلت علامة التعريف «أل» في الآية على الوحدة النكرة «إنسان» وهو واحد من بين أفراد جنسه الإنساني، كانت وظيفتها في موضعها هذا لا تعريف الإنسان من حيث هو فرد وإنما تعريف الجنس الذي إليه انتماؤه انسجاماً مع القصد التبليغي في الآية الذي لا يستهدف إنسانًا بعينه إنما يستهدف جميع من في حكمه، أي جميع أفراد جنسه، فمدلولها على إثر تعريفها يغادر الإبهام الذي كان يَلُفُّهُ من حيث إنه كان يدلُّ على أي فردٍ على سبيل الشيوع، ليحيل على الجنس كله من دون استثناء أي فرد من أفراده، فالجميع على وجه التحديد والتعيين مَعْنِيٌّ بخطاب المولى عزَّ وجَلَّ في الآية، فلو قلنا على خلاف ما جاء في الآية: «هل أتى على إنسان حين من الدهر»، لكان استخدامها هنا مُبْهَمًا وغير

في كلام سابق في الخطاب، وكأن تستعمل للدلالة على عهد ذهني أو علمي بين المخاطِب والمخاطَب قبل مجيئها في الخطاب فترمز حينئذ إلى تقدم علم المخاطَب بمصحوبها، أو تكون للعهد الحضوري، عن هذه الوظائف الخطابية لـ «أل» ينظر: مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر 1400 هـ 1980م 1/150، وعباس حسن، النحو الوافي، مصر دار المعارف (د. ت) 1 /423 - 424 و 425.

مُحَدَّدٍ، لأن مثل هذا الكلام لا يَخُصُّ فردًا بعينه، فالكلُّ يمكنه أن يتساءَلَ: منْ المَعْنِيُّ بهذا الخطاب من الأناسي وهم عدد يعزُّ إحصاؤه؟! بينما كان المعني بالخطاب في الآية الجنس البشري كله، فلا يمكن لأي من أفراده أن يستثني نفسه منه. وعن مثل هذا التعيين الذي أفاده التعريف بالعلامة «أل» يقول عباس حسن: «فمنها (أي ألْ) التي تدخل على واحد من الجنس فتجعله يفيد الشمول والإحاطة بجميع أفراده إحاطة حقيقية لا مجازفيها ولا مبالغة»[1].

النموذج الثاني الذي نَسُوقُهُ لتبيان ما تتيحه هذه العلامة لصانع الخطاب من إمكانات لتعيين مضامين العناصر اللغوية التي يستخدمها في خطابه والتي تقبل إلحاقها بها، هو قول السارد في السطور الأولى من رواية سعيد مكاوي « أن تحبك جيهان»: «كُلَّمَا أوغلنا في الطريق كانت قطرات المطر تزداد حِدَّةً وتتسع البقع التي تخلفها على الزجاج الذي لم تفلح المَسَّاحةُ البَائِسَة في جعله صالحًا للرؤية، رغم جهادها الشديد لإزالة الأتربة العالقة به ومُخلفات الطير التي لم يهتم السائق بإزالتها كاهتمامه بنظافته»[2].

ضَمَّن المؤلف هذا المقطع السردي من خطابه عددًا من الأسماء التي يُضَنِّفُهَا النحو العربي في ما يطلق عليه « الاسم المختص» أو « الاسم العام» [3]، وهي أوضاع مبهمة وإن لم يكن إبهامها مطلقا لانحصاره داخل الجنس. وسنكتفي بمعاينة اسم واحدٍ مما ورد في المقطع السردي التي أثبتناه، فتتناوله من حيث هو وضع من أوضاع اللغة ثم من حيث هو وحدة لغوية من مكونات الخطاب حسب الصورة التي اختارها لها منشئ الخطاب: فمن بين الوحدات التي ألحق بها الكاتب علامة التعريف « أل» كلمة «طريق»، التي

(1) - عباس حسن، النحو الوافي، مرجع سابق، 1/426 وقد أفدنا أيضا من كلامه في ص. 425.

(2) - سعيد مكاوي، « أن تحبك جيهان» (رواية)، ط.1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2015، ص 07.

(3) - ينظر عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص 81.

في صورتها هذه، أي من حيث هي نكرة تنسحب على أي طريق من الطرقات على سبيل الشيوع وعدم التعيين، وهو ما لم يقصد إليه مستعملها في المقطع السردي المذكور، فلو كانت تلك هي غايته لجاء بها مجردة من علامة التعريف، فاختياره التعريف بدلاً من التنكير تبرّرُهُ خطابيًا رغبته في استمالة قارئه منذ مفتَتَحِ الرواية ليندمج معه في العملية السردية، لذلك جاء كلامه وكأنه استئناف لكلام سَبَقَ لمتلقيه العِلمُ به وهو ما تؤديه الوحدة «كلما» التي تفيد التكرار، فكأن كلاماً سابقاً جرى عن هذا الطريق الذي يسلكه السارد وسائقه والقارئ على دراية به، فلما عاد (أي السارد) للحديث عنه جاء به معرفا ب «أل» على سبيل العهد الذكري حتى لا ينصرف الذهن (ذهن القارئ) إلى طريق غير الطريق المعروف لهما، لذلك يقول بعض النحاة العرب القدامى في كلامهم عن تعريف النكرة ب»أل» في مثل هذه الحالة: « تعريفها بالألف واللاّم من دلائل الأسماء التي تختَصُّ بها لأنها يشير بها المتكلم إلى عهد بينه وبين من يخاطبه في الذي يدخل عليه الألف واللاّم »[1]. معنى هذا أن منشئ الخطاب لجأ إلى هذه العلامة (أل التعريف) في الموضع المشار إليه من خطابه ليُعَيّن لمتلقيه المضمون الدلالي للوحدة اللغوية التي أدخلها عليها حتى لا يلتبس عليه الأمر في ما يُحَدِّثه عنه، فيتبيّن أن الكلام لا يخص طريقا آخر غير الطريق المعروف لديه من قبل .

هكذا تتبيَّنُ أهمية هذا الصنف من الأدلة الوضعية المبهمة التي يستعملها المخاطِب (كاتبا كان أو متكلّمًا) في صناعة خطابه، باستخدامها وفقا لما تستوجبه الرسالة التي يريد تبليغها لمتلقيه. فهذه الوسائل لا غنى لمنشئ الخطاب عنها عندما يتطلب منه الموقف تعيين مضمون من مضامين العناصر اللغوية المكوّنة لخطابه أو حتى للتأكيد على شيوعه وعدم تعيينه،

(1)-الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، مرجع سابق، ص.120 وينظر عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص.85.

وهو القصد الذي يتوسَّل لإنجازه بتنوين التنكير بوصفه من صنف الأدلة المبهمة التي يلحقها المتكلم أو الكاتب بأدلة أخرى في نسيج الخطاب حسب ما تقتضيه بِنْيَتُهُ. فهذه العلامة (تنوين التنكير) يلحقها منشئ الخطاب بالعناصر اللغوية المناسبة لها إذا ما استوجب موقف خطابي معين أن تفيد الوحدة ذات العلاقة في بنية الخطاب الشيوع بدلاً من التعيين الذي تفيده في أصل الوضع[1]*. بمعنى إن تنوينها إشارة من صانع الخطاب إلى أنه لا يريدُ مما تدُلُّ عليه شيئا بذاته ومحدَّدًا كل التحديد؛ فـ«عُثمان» على سبيل المثال من أسماء العلم، وكونه كذلك جعله معرفة، فهو إذًا معين بنفسه، سوى إن كونه ممنوعا من الصرف يجعل احتفاظه بتعيينه مشروطا بعدم تنوينه، وبهذه الصفة يكون متاحًا لمنشئ الخطاب أن يتصرف في دلالته فينتقل بها من التعيين إلى عدمه إذا ما استدعى منه ذلك قصدُه التبليغي، كما هو الشأن في عبارتنا التالية:

« مرت أيام لا نعلم عددها على وجه التحديد قبل أن نُلقيَ عصا ترحالنا في مدينة أحلامنا. فقد التقينا في طريقنا إليها عثمانا، ويبدو من ثيابه الرثّة ومن ملامحه التي غار رونقها وتشربت غبار المفاوز التي عركته أنه ناج بجلده من مهلكه، أو أن الحياة في موطنه جفّت منابُعها فلم يجد بُدًّا من الضرب في الأرض بحثا عما يقيم به الأود ويسد الرمق ». إن إدخال التنوين على «عثمان» [2]* يُعتبر إشارة إلى أنه لا يُقصد منه شخصٌ معينٌ معهود لصاحب الخطاب ولمخاطَبِه ويتجه الذهن إليه وحده دون سواه ممن يحملون هذا الاسم. والسياق الخطابي هو ما يبرر إيثار الشيوع على التعيين في مثل هذه

(1)* يتعلق الأمر ببعض الأسماء المبنية وببعض الأسماء المعربة غير المنصرفة، لأن هذه العلامة لا تدخل على غير المبني من الأسماء، وإدخالها عليها القصد منه تنكيرها لتفيد الشيوع وعد التعيين، وبخروجها عنها تعود إلى أصلها وهو التعيين والتحديد. يُنظر، عباس حسن، النحو الوافي، مرجع سابق، 1/ 36 - 37.

(2)* - ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، فهو لا يحتمل التنوين إلاّ إذا أريد تنكيره.

الحالة؛ فواضح من سياق الكلام أن «عثمان» هذا شخصٌ طارئٌ لا عِلْمَ به للمتحدث ولا للمتحدث إليه، وهو ما أفادته علامة التنوين الملحقة به.

وفي اللغة أوضاع أخرى غير ما ذكرناه يستعين بها مُنشئ الخطاب لإضافة معنى من المعاني إلى عنصر من العناصر المكونة لخطابه عندما يُحوجه إلى ذلك موقف خطابي ما، وحينئذٍ يُلحق هذه الأوضاع على شكل زوائد بالعناصر المقصودة في الخطاب لتأدية الغرض، فيُدمَجُ معناها النحوي في معنى العنصر الذي تُلحق به. والأوضاع التي يُسخِّرها المخاطِبُ لأداء هذه الوظيفة هي ما يطلق عليه النحاة حروف المعاني مثل حروف الجر التي يسميها بعضهم حروف الإضافة (بحكم أنها تجلب معها معنى جديدا تضيفه إلى ما تتصل به)، وحروف النفي والرجاء والتمني وأدوات الاستفهام والتوكيد والشرط والنواصب والجوازم وغيرها ممَّا فَصَّلتْ فيه كتب النحو[1].

إن هذه الوسائل اللغوية وإن كانت غير دالة في ذاتها ، أي من حيث هي أوضاع لغوية ، فإن استخدامها في الخطاب حسب ما تقتضيه السياقات والمواقف يرافقه أثر دلالي تستوجبه الرسالة التي يتضمنها الخطاب والقصد المرادُ تبليغه للمقصود بالخطاب. كما هو الشأن في قوله تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريَهُ من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾(الإسراء 1). إن وظيفة الحرف «من» (المستخدمة مرتين). و «إلى» في الآية ليست مجرد وظيفة نحوية إعرابية، إنما هي وظيفة دلالية اقتضاها القصد التبليغي فيها، فالمولى عزَّ وجلَّ قصد قصدًا تعيين مَسار رحلة الرسول (ص) تأكيدًا منه على قدرته على الفعل، فجاءت «من» الأولى لتحديد نقطة بدايتها، فأفادت معنى الابتداء الذي ظهر على الوحدة اللغوية التي تلتها مباشرة وهي «المسجد الحرام» ثم جاء الحرف «إلى» ليفيد معنى الانتهاء، أي انتهاء مسار الرحلة الذي ظهر في الوحدة التي

(1)- يُنظر مثلًا عباس حسن، النحو الوافي، مرجع سابق، 1 /66 - 71 و3 /80،87 ومصطفى الغلاييني جامع الدروس العربية، 1/ 141 و2 /317 - 325 و3 /145 - 195.

أُلحق بها وهي«المسجد الأقصى». فهذا المسار الذي تحدد انطلاقاً وانتهاءً إنما تحدّد بفضل الحرفين المذكورين. واستعمالهما على هذا النحو الغاية منه إظهار قدرته تعالى الذي لا يعجزه إنجاز أي فعل يريده مهما كانت عظمته وتجاوز قدرة مخلوقاته من الإنس والجن مجتمعين «إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوتُ كل شيء وإليه ترجعون» (يس، 82 و83). فهذا المسار عندما يتعلق الأمر بقدرة الإنسان من حيث هو إنسان يتطلب قطعه أيامًا كثيرة ، وهو ما جعل كفار ذلك الزمان يشكِّكُون في حقيقة الإسراء، لأن تحقيقه حسب تقديرهم البشري لا يمكن أن يتم في زمن قصير جدا مثل الزمن الذي نصت عليه الآية (ليلاً). وجاءت «من» الثانية لتفيد معنى جديدا، غير معنى «من» الأولى، ظهر من خلال الوحدة اللغوية التي تلتها مباشرة في الآية وهي (آياتنا) ، وهذا المعنى هو البعضية حسب ما أرَادَ جلّت قدرته الإخبار به، فلو جاءت الآية مجردة من حرف المعنى «من» في هذا الموضع لَدلّت على غير ما دَلّت عليه مع «من» ، لأنه ليس سيان القول «لنريه آياتنا» وقوله تعالى «لنريه من آياتنا»، لأن التعبير الأول لو كان حصل لكان المراد أنه سبحانه وتعالى أرى رسوله (ص) آياته كلّها، وليس هذا هو المعنى الذي أدّته الآية.

إن توظيف مثل هذه الأوضاع اللغوية كثير في الخطابات الأدبية حسب ما تتطلبه الأهداف التبليغية للخطاب، من ذلك استعمال الروائي واسيني الأعرج أداة الشرط «لو» في سياق كلامه عن تولي مسعود رعاية كازانوفا المريض بعد خروجه من المستشفى في روايته «نساء كازانوفا»، فقد جاء توظيفها كما يلي : «[...] بفضل الإسعافات العاجلة استطاع كازانوفا أن يتفادى نوبات اختناق خطيرة كادت تودي بحياته. لو لم يجد مسعود بجانبه لانتهى باختناق أكيد وبانسداد في حلقه»[1].

(1) - واسيني العرج «نساء كازانوفا» (رواية) ط1، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، 2017، ص281 - 282.

استخدم الروائي «لو» المتبوعة بأداة الجزم «لم» عوضا عن «لولا» أو «لوما» المناسبتين في مثل هذا الموضع أيضًا، لغرض إفادة امتناع اختناق الشخصية المتحدث عنها ووفاتها، وهو ما يسمى نحويًا «امتناع جواب الشرط لتوفر الشرط»، وهو حضور مسعود الذي يتكفل برعاية الشخصية المريضة، فالامتناع في هذا السياق السردي معنى مستحدث ظهر في الخطاب بدخول «لو» المتبوعة بـ «لم» على الجملة. والغرض الخطابي الذي استهدفه الروائي من اختياره هذه الأداة للوصول إلى المعنى المراد هو التأكيد على حالة الضعف الشديد الذي توجد فيه الشخصية فأفقدها قواها وأضحت في حاجة ماسة إلى الغير وإن كان هذا الغير من البسطاء مثل مسعود[1]*. أليس هذا الرجل وهو من قبيل الخدم هو الذي أنقذ كازانوفا من الموت بحضوره إلى جانبه؟ هو (أي كازانوفا) الذي كانت الأعناق، قبل المرض الذي ألمّ به، تشرئب إليه والنفوس طوع إرادته ورهن إشارته، فقد كان الناس يُبجِّلُونَهُ ويعظمونه بلا حدود كما يفصح عن ذلك توافد كبار القوم على بيته عندما أصيب بالإغماء: "[...] منذ أن أصيب كازانوفا بالإغماء الأخيرة والسيارات الرسمية تأتي يوميا. تقف في المكان نفسه محدثة ضجيجا كبيرا، وحركة غير عادية في البيت وخارجه، وابتعادا سريعا للناس، ينزل صالح محافظ شرطة منازة سيتي من سيارته المصفحة الخاصة مرفقا بشابين قويين يلبسان زيا مدنيا، يستقبله كبير الإخوة كازانوفا، بشير برفقة أخيه الأصغر يونس حتى ولوكانا في عمق الاجتماع"[2].

إن المفارقة بين أمس كازانوفا وراهن حياته بلّغها الروائي لقارئه في الموقف السردي الذي نحن بصدد معاينته من خلال استعماله الأداة «لو» التي وإن كانت مبهمة من حيث هي وضع، فإن إدراجها في نسيج الخطاب على

(1)*مسعود مثلما قدمته الرواية شخصية بسيطة تعنّف وتشعر بالدونية تجاه الآخرين، فهي تنادي الرجال بـ«سيدي» والنساء بـ «لالة»، تنظر الرواية الصفحات: 284،283،282 وما بعدها.

(2) - واسيني الأعرج، «نساء كازانوفا» ، مرجع سابق، ص52 .

النحو الذي رأيناه رافقه معنى لا يدرك من لفظها المجرد وهي خارج الاستعمال إنما ظهر على ما بعدها في أضعاف الخطاب فتجلّى ما قصد منشئه تبليغه إلى متلقيه وهو المفارقة الصارخة بين ما كان عليه كازانوفا بالأمس والحال التي أضحى عليها، فمن كان لا حول له ولا قوة بالأمس أمام ما كان لسيده من سلطان عليه يوم كانت حياته وقوت يومه متعلقين به، ارتبطت حياة سيده في لحظة ما بوجوده هو إلى جواره في تبادل للمواقع، في أزمنة متغايرة، مشحونة بالدلالة.

3- إسهام المتلقي في صناعة الخطاب:

من البيّن إذًا أن الوسائل اللغوية التي اخترنا الاستشهاد ببعضها تؤدي وظائف أساسية في صناعة الخطاب، وأن المخاطِب سواءً أكان متكلمًا أم كاتبًا ليس في مستطاعه البتة الاستغناء عنها في تبليغ مقاصده إلى جمهوره، سوى إنه من الأهمية بمكان التذكير بأن ما تقدم من كلام لا يعني أبدا أن صناعة الخطاب تعود مهمتها إلى المُخاطِب وحده ولا ينازعه في ذلك منازع، لأن القول: إن المخاطب هو وحده سيّد الموقف ولا يأبه بسواه في إنجاز خطابه يترتب عنه أن المتلقي فردا كان أو جماعة يتلقى ما يقدمه له وهو في سلبية مطلقة، وهو تصور أبعد ما يكون عن حقيقة الاتصال اللغوي (الشفوي والكتابي) الذي يجري بين المخاطِب ومخاطَبه أو مُخَاطَبيه، لأن الاتصال اللغوي من أي نوع كان ليس أحادي الاتجاه، وإن كان يبدو كذلك عندما يتعلق الأمر بالخطاب المكتوب الذي يكون فيه متلقيه محرومًا من التدخل المباشر في صناعة الخطاب[1]. ولكن كما يقول جاكبسون، كل خطاب فردي يفترض تبادلاً[2]، والتبادل يعني المشاركة في هذا الخطاب الفردي، لذلك قلنا في ما تقدم إن الكاتب عندما يكتب لجمهور لا يعرفه، فإنه يصنع خطابه

(1)- Voir Cathérine Kerbrat – Orecchioni, Les interactions verbales 1/ approche interactionnelle et Structure des conversations, 3ème éd, Armand Colin, Paris 1998, T.1 p.10.

(2)- Jakobson cité par Cathérine Kerbrat Orecchioni, op.cit,p.12.

لجمهور يفترضه في ذهنه ويتوقع ردود أفعاله تجاه ما يخاطبه به. فلو يتجاهل منشئ الخطاب جمهوره تجاهلا كليا، فإنه لا يضمن مرور رسالته ولا إدراك مقاصده. ويظهر وَضْعُ المُخاطَب أو المُخاطَبين في الاعتبار عند تأليف الخطاب من اختيار مؤلفه اللغة التي يكتب بها، فهذا الاختيار إشارة أولى منه الى أن من يخاطبهم هم ابتداءً من أهل هذه اللغة (وقد لا يكونون جميعا معنيين بالخطاب) أي من الذين يفهمون منطوقه أو منطوقه ومكتوبه في آنٍ معًا (حسب طبيعة الخطاب)، من حيث إن اللغة قاسم مشترك بينه و بينهم، لأنه لو لم تجمعه بهم مُواضَعَة لغوية لتعذر حصول التفاهم بينهما (مؤلف الخطاب و الجمهور)، و لبقي خطابه كلمة صماء مغلقة، كما قال القاضي عبد الجبار يتحدث عن اللغة و مستعملها : لو لم «يتواضعوا عليها لما صح في لغات أدلة تفهم بها الأغراض ، يقع بها التخاطب»[1]. لأن اشتراكهما في معرفة أوضاع اللغة التي يجري بها التواصل شرط أساس لتحقيقه، وليس المراد بالاشتراك هنا حصول التطابق الكامل بين الأرصدة اللغوية للمتخاطبين حتى وإن كانوا من نفس الجماعة اللغوية (communauté linguistique) [2] إنما المراد منه أن يتوافر على الأقل القدر المطلوب من الاشتراك الذي يتحقق من خلاله التواصل الذي لا يتم في الحقيقة بأوضاع اللغة بمفردها مهما كانت نسبة التقارب بين الحصائل اللغوية الصرف لشركاء التواصل اللغوي، لأن هناك معاني « لا تُحصَى تدل عليها دلالات أخرى غير الدلالة اللفظية الوضعية» [3] على اعتبار أن المضمون الإفادي للخطاب لا تؤديه بنيته اللفظية الظاهرة وحدها، فبحكم أن الخطاب ذو طبيعة إضمارية، فإن هذا المضمون يتوقف أداؤه أيضا على ما هو مضمر فيه، أي ما يقوله من دون أن يصرح به من خلال الدلالات المباشرة لعناصر بنيته اللفظية، وهو

(1) - القاضي عبد الجبار، المُغني، 16 /309 - 310.

(2)- Voir, Cathérine Kerbrat – Orecchioni, L'énonciation, op.cit.p.14.

(3) - عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب. ص 132.

ما يُحْوِجُ الوصول إليه إلى مشاركةٍ إيجابية من المتلقي، سواء أكان الخطاب مكتوباً أم شفوياً يستعين فيه (أي المتلقي) بالظروف الحافة به لاستشفاف مضمونه ومقاصد منشئة ، ولابن قيم الجوزية كلامٌ وإن كان يتحدث فيه عن التخاطب الشفوي باللغة فإنه ينسحب أيضا في تقديرنا على الخطابات المكتوبة على ما بين الصنفين من التواصل من فرق لا يمكن تجاهله. فابن قيم يؤكد على مشاركة المتلقي في صناعة معنى الخطاب من حيث أنه مشارك « للمتكلم في حال معنى الكلام»[1].

إن هذه الإشارة من ابن قيم تُفِيدُ أن صناعة معنى الخطاب لا تتمُ بمعزلٍ عن متلقيه، وأن للمتلقي اسهامًا فيها، وهوما سنحاول تبيانه.

تجدر الإشارة في هذا السياق الى تمييز نعتقد أنه مهم للغاية وَضَعَهُ بعضُ العلماء في التراث اللغوي والنحوي العربي بين « المعنى» و « الإفادة» في الخطاب، أي بين مضمونه الدلالي ومضمونه الإفادي، واستناداً إلى هذا التمييز يقول ابن السراج: «أصل الكلام موضوع للفائدة»[2]. مؤدي ذلك أنه يُشْتَرطُ في الكلام أن يحمل للمتحدث إليه فائدة، ومنه يترتب أن من الكلام ما لا يحمل فائدة للموجه إليه، من حيث إنه لا يضيف إلى عِلْمِهِ السابق جديداً، فما يتضمنه من معنى يدخل في معارفه السابقة. ومنه أيضا يترتب وُجُوب وَضْع مُنشِئ الخطاب متلقيه في اعتباره ضمانا لنجاعة عملية التواصل وانعقاد الصلة بين الخطاب والمخَاطَبِ (أو المُخَاطَبين).

إن وضع المتلقي في الحسبان أثناء إنشاء الخطاب هو ضربٌ من مشاركته غير المباشرة في صناعته، لأن مؤلفه في هذه الحالة، وتحقيقًا لتجاوب جمهوره مع رسالته اللغوية لا بد له من معرفة مسبقة بهذا الجمهور: (ثقافته، عاداته وتقاليده، القيم والمعتقدات التي يؤمن بها... الخ). إن هذه المعرفة لا بُدَّ منها

(1) - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، القاهرة (د. ت) 2/ 176.

(2) ابن السراج، الأصول في النحو، تح.ع. الفتلي، بيروت 1985 ، 1/66

ولو على سبيل افتراض المؤلف لقارئ يرسم تقاسيمه في ذهنه ويُؤَلفُ خطابه على ضوئها، تجنبًا لإخفاق عملية التواصل، لأن المتلقي حسب فكرة ابن السراج التي أَلْمَحْنا إليها هو المرجع في الحكم على الرسالة الموجهة إليه، فإذا كان مضمونها بالنسبة إليه معدومًا من حيث الإعلام والإفادة، فإن مضمونها الدلالي الصرف لا يشفع لها عنده، وفي هكذا حالات تؤول عملية التوصل بين مؤلف الخطاب ومتلقيه (فردًا كان أو جماعة) إلى الإخفاق: فوضْعُ المؤلف عِلْمَ المُخَاطَب في حسابه هو ما يجنب خطابه هذا المآل، ويؤكد مرة أخرى مشاركة المتلقي في صناعة الخطاب وإن كانت هذه المشاركة في هذه الحالة غير مباشرة كما ذكرنا من قبل. ونظن ظنًا أن رولات بارث كان يتحدث عن شيء قريب من مشاركة المتلقي هذه في إنشاء الخطاب عندما قال: « [....] ففي النص، القارئ وحده من يتكلم، وهذا القلب يجعل من القراءة استقبالاً وفي الوقت ذاته مشاركة نفسية في المغامرة المروية»[1]

4- دور الأدلة غير اللغوية في تلقي الخطاب:

لا يتوقف إسهام المتلقي في صناعة الخطاب عند حدِ هذا الاعتبار الذي يمنحه أياه مؤلفه، إنما له صور أخرى من الحُضور في نصِ الخطاب، فقد سبق أن قلنا إن الخطاب ذو طبيعة إضمارية ، وهذا الإضمار ليس محض اختيار خاضع لمشيئة صانعه وحده، إنما هو مما يَفْرضُ المتلقي أن تأتي عليه بنية الخطاب الذي يستهدفه، فمُنْشِئُهُ لا يحذف ولا يختصر ما يختصره ويستغني عنه إلا بسبب عِلْمِهِ أن من يُخاطِبُه (أويُخاطِبهم) على عِلمٍ مسبقٍ به أو أنه بإمكانه استخلاصه بالاعتماد على معارفه السابقة أو بإعمال العقل، وهذا الصنف من المعارف السابقة التي يستدعيها المُخَاطَبُ أثناء تلقيه الخطاب لفهمه ولإدراك مقاصدِ صاحبهِ هي من أهم ما يُسمى بالدلائل غير اللفظية التي لا غنى له عنها في فهم فحوى الرسالة التي يحملها الخطاب أو في

(1) Roland barthes. s/z èd du seuil .paris 1970.p. 157

رفع ما قد يكتنفها من غُمُوض أو يبدو فيها من تناقض بسبب ما طال بنيتُهُ (الخطاب) من حذف. وعن أهمية هذه القرائن في الوقوف على مالم يُعبرعنه لفظ الخطاب يقول القاضي عبد الجبار: « فإنما تدل القرينة على ما لم يود بالكلام أو على الوجوه التي تقع عليها تصاريفُ الكلام »[1].

من هذا الصنف من القرائن أو الدلائل غير اللفظية التي يتوسل بها المتلقي للوقوف على المحذوف من الخطاب لفظًا مع بقائه مَنويًا فيه ما أطلق عليه بعض علماء النحو في التراث العربي « عِلْم المخاطَب»، وهو «كل علمٍ تحَصَّل عليه منذ عهد قريب أو بعيدٍ وهو أيضًا كل المعلومات العامة – البديهية والمكتسبة – التي تحصَّل عليها منذ نشأته بالتجربة وكلَّ ما يستنتجه من هذه البديهيات [...] (و) هو أيضًا علمُه بِمَواضع الكلم في كلام، فهو علمه بحدود الكلام ومواقع عناصره وهو ممَّا اكتسبه ويَدخُل في ملكته اللسانية، وهو عِلمه غير النظري باللغة وكيفية استعمالها ودرجة إجادتها فهذا العِلْمُ يُمَكِّن المتلقي من استرجاع المسكوت عنه في الخطاب، أي ما لم تدل عليه بنيته اللفظية باللفظ الصريح، كما هي الحال في قوله تعالى، ﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا، يا ويلنا قد كنّا في غفلة من هذا بل كنّا ظالمين﴾ الأنبياء.97 . ففي هذه الآية وقع إضمارُ فعل « القول»، فالتقدير «يقولون يا ويلنا» كما جاء في الكشّاف[2]، ودلالة المحذوف يُدركها المخاطبون بفضل المركوز في ملكتهم اللسانية بفعل كثرة وُرُودِ هذا النوع من الحذف في كلامهم، فلا يلتبس عليهم الأمر، فيهتدون إلى أن المقصود في الآية « يقولون يا ويلنا »، والمَوْضِعُ دَلِيلَهُم عليه . ومثل هذا الإضمار الذي يستعين فيه متلقي

(1) - القاضي عبد الجبار، المُغْني، 16 /354. اعتمدنا كثيرًا في الحديث عن أهمية هذه القرائن في تلقي الخطاب على الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، يُنظر كتابه الخطاب والتخاطب الصفحات: 44 - 45، 54 - 55، 60 - 61 ، 254، كما استفدنا من مصادره في هذا الموضوع.

(2) - الزمخشري، الكاشف، دار الفكر، بيروت (د.ت) ، 3 /584.

الخطاب بعلمه « بحدود الكلام ومواقع عناصره » موجود في مواطن كثيرة أخرى في القرآن الكريم[1] منها قوله عزّمن قائل: ﴿ ولاَ تجادلُوا أهل الكتاب إلاَ بالتي هي أحسن، إلا الذين ظَلَمُوا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلاَ هُنا وإلاهكم واحدٌ ونحن له مسلمون ﴾ (العنكبوت. 46)

فمن دون علم المتلقي بأساليب تأليف الكلام والمواضع التي تحتلها العناصر اللغوية في تراكبيه وهو معرفة سليقية بالنسبة إلى المتلقين الأوائل لمَا كان يَتنزَّلُ على رسول الله محمد (ص) بلغتهم:﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾(يوسف.2)[2]. أقول، من دون هذا العلم سيلتبس عليه (أي المتلقي) الأمر في استشفاف مدلول الآية لما وقع فيها من إضمار، فيتهيَأُ له أن المُرادَ فيها أن الكتاب الذي أُنزل على محمد (ص) هو نفسه الذي أُنزل على أهل الكتاب من قبل، وهو فهم يتضح من كتب التفسير بطلانه[3]، ومرجع ذلك إلى عدم إدراكه «الموصول» المُسْتَغْنَى عنه لفظًا في الآية، وهو ما لا يَنهَمُ أمره على العرب السليقيين الذين أَلِفُوا هذا الضرب من الأسلوب في لغتهم، فيدركون أن هناك وحدةً لغوية مضمرة فيها في الموضع ذي العلاقة وهي اسم الموصول « الذي»، فيفهمون من ثَمَّ أن الأمر فيها يتعلق بكتابين: الكتاب الذي أُنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، والكتاب المُنَزَّل على أهل الكتاب من قبل، تمَامًا مثلما جاء في آيات أُخرى في القرآن الكريم وكان الكلام فيها صريحًا عن كتابين بسبب إظهار اسم الموصول الذي حذف في الآية المذكورة، كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسوله والكتاب الذي نُزِّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل . . . ﴾ (النساء. 136) وهو ما قد لا يتيسر فهمه اليوم لمن لا علم

(1) - ينظر مثلًا: (الأنبياء.103)، (ص.23 و33)، (الأعراف.160 و171)، (الأنعام.93) ، (الإسراء.14).

(2) - وأيضا: (طه.113) و(فصلت.3) و(الشعراء.195)، (الشورى.7)، (الزخرف.3).

(3) - يُنظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، 3 / 315 - 316، والزمخشري، الكشاف مرجع سابق، 3 /207، وقد أفدنا أيضا من عباس حسن، النحو الوافي، 1/393

له مكتسب بالحذف ومَوَاطنِه في الأساليب العربية، فيُخَيّل إليه أن المقصود في الآية 46 من سورة العنكبوت غير المقصود في الآية 136 من سورة النساء فيما يَخُصُّ ما أُنْزل على رسول الله محمد (ص).

وهذا اللون من الحذف وقع أيضًا في النص الآتي الذي نورده لمزيد من البيان، فقد تعدد فيه إضمار اسم الموصول «من»، وهو ما يجعله مُلبسًا على المتلقي الذي يفوته إدراك هذا المحذوف ومواطنه: « أيها العرب، نحن نَعْلمُ ما تفيضُ به صدور أعدائنا من حقدٍ علينا وبعض لنا وأن فريقًا منهم يُدبّرُ المؤامرات سِرّاً وفريقًا يَملأُ الحواضِر إرجافًا، وفريقًا يُعدُّ العدّة للهجوم علينا وإشعال الحرب في بلادنا، ألاَ فَلْيَعْلَمُوا أن مَنْ يُدَبِرُ المؤامرات ويَنشُرُ الأراجيفَ ويَحْشُدُ الجيوش للقتال، كَمنْ يَطرُقُ حَدِيدًا بَارِدًا، بل كَمَن يَضْربُ رأسَهُ في صخرة عاتية ليُحَطّمَهَا، فلن يَخْدُشَها وسَيُحَطِم رَأسَهُ»[1]، فالمتلقي كيما يستقيم له معنى النص يجب عليه أن يتوافر على الكفاءة المطلوبة لإدراك عناصره المضمرة، ويتعلق الأمر في هذا المضمار بالموصول «من» الذي أسقطه مؤلف النص في أكثر من مَوْضعٍ منه تاركًا أمر استرجاعه لمُخاطَبه، لكي يفهم أن النص لاَ يتحدث عن طائفة واحدة ممن يعنيهم بكلامه وإنما عن طوائف كثيرة، وإلاَّ أخطأه إدراك قصد المؤلف، فالمعنى في هذا النص، كما قال الدكتور عباس حسن، يقتضي تقدير أسماء موصول محذوفة وإلاَّ طَالَهُ الفسادُ، فصاحبه أراد أن يقول» مَن يُدبّر المؤامرات، ومَنْ يَنْشُرُ الأراجيف ومَنْ يَحْشُد الجيوش ... ذلك لأنهم طوائف متعددة، ولن يظهر التعدُّدُ إلا بتقدير « من» ولولاها لأوْهمَ الكلامُ أن تلك الأمور كُلّها منسوبةٌ لفَرْدٍ واحدٍ، وهي نسبة فاسدة»[2]، فالمؤلف وإن تَخَفَّفَ من هذه العناصر لفظًا في نصه، فإنه لم يستغن عن دلالاتها في مقصوده، وعلى المخاطب إدراك مواطنها في

(1) - استشهد الدكتور عباس حسن بهذا النص في أثناء كلامه على حذف الموصول، النحو الوافي، 1 /392.

(2) - عباس حسن، النحو الوافي، 1/ 392

البنية اللفظية للخطاب، حتى تتناسق له دلالاتها مع دلالات بقية العناصر حسب ما يقتضيه نظم النص، فيحصل له فهم معناه بفضل تظافر عناصره الحاضرة وعناصر الغائبة المسترجعة معًا.

هكذا تتجلى أهمية عِلْم المخاطبِ، من حيث هو قرينة غير لفظة، في استرجاع الدلائل المتوارية خلف البنية اللفظية للخطاب نتيجة ما يَطَالُه من إضمار[1]*. فمن دون علمه «بمواضع الكلم في الكلامّ»، فإنه يتعذر عليه استخلاص المعنى في ما استشهدنا به وفي أي كلام تُحوجُ بِنْيَتُه من متلقيه التوفر على علم سابق من الصنف الذي تحدثنا عنه، فعلى سبيل المثال كيف سيفهم أن قول الخنساء في سياق رثائها أخاها صخرًا «هو كثير الرماد» أن معناه أنه « كثير القِرَى والضيافة» إن لم يكن له علم بالعرف السائد عند العرب أن كثرة الرماد دليل على السخاء والإكثار من إكرام الضيوف، فكما قال عبد القاهر الجرجاني ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلاَّ أنهم أرادوا أن يَدُلُّوا بكثرة الرماد على أنه تنصبُ له القدور الكثيرة ويُطبخُ فيها للقرى والضيافة[2].

إن وصول المتلقي إلى المعنى عبر علمه السابق ينفي سلبيته في تلقي الخطاب ويؤكد إسهامه في صنع معناه، ويتضح لنا ذلك أكثر عندما ندرك أن المعنى المراد لا يُؤَدّي إليه في جميع الأحوال المعنى المباشر للفظ إنما يكون بُلُوغُه في بعضها عن «طريق معنى المعنى» حسب تعبير عبد القاهر، أي بواسطة الاستدلال العقلي الذي عبّر عنه في سياق تناوله عبارة الخنساء السابقة

(1)* الحذف الذي يطال البنية اللفظية للخطاب لا يخص الأسماء الموصولة وحدها، بل يمكن أن يطال جميع العناصر المكونة للخطاب عدا أحرف المعاني. ومن الحذف ما هو عادة شائعة عند أهل اللغة يلحق بعض الأنماط من التعبير حتى إنه لا يجوز إظهار المضمر فيها، فالمتلقي يفهم ما وقع فيه الحذف أو الاستخفاف كما يسميه سيبويه بحكم العرف اللغوي السائد. ينظر في هذه المسألة، عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص.66 - 67.

(2) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص.431 .

بمثل قوله : « [...] وذلك لأنه إذا كَثُر الطبخ في القدور كَثُرَ إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة »[1]. إن تحوّل معنى اللفظ في مثل هكذا حالات إلى دليل يحيل على معانٍ مرتبطة به عقلاً هو من صنف القرائن غير اللفظية التي أكدنا على أهميتها في استقبال الخطاب وفي فهم مقاصد صاحبه. ووصول المتلقي إلى المعنى بالطريقة التي شرحها عبد القاهر يجعل منه « طرفًا في عملية «صنع» النص عن طريق التأويل»[2] فالمعنى الذي انتهى إليه متوسلاً بالاستدلال العقلي لم يقدمه له وَضْعُ اللغة جاهزًا إنما هو ثمرة جُهْدٍ تَأْويليّ وإن انطلق في تحصيله مما يدل عليه اللفظ في الوضع والذي لا تربطه بما قصده صانع الخطاب أية علاقة مباشرة، أو إذا استعرنا عبارة الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح فإننا نقول: « [...] المعنى ههنا غير وضعي، لأنه لازم عقليا للمعنى الوضعي الأول وليس منه، وليس هو هو[3]» .

وهناك حالات يتوسَّل فيها المتلقي بما يختزنه في ذاكرته من معلومات سبق وُرُودُها في الخطاب في فهم ما اسْتغنى مُنشئُه عن ذكره مرة أخرى، ثقة منه في قدرة متلقيه على استرجاع المُستغنى عنه وفهم عبارته التي طالها الاستخفاف، بالاعتماد على ذاكرته، لذلك سمَّى بعض علماء النحو في العربية هذه القرينة غير اللفظية «**تقدم الذكر**»، أو «**ما جرى من الذكر**»، وبهذا المعنى قال ابن جِنّي:

«قد يصلون إلى إبانة أغراضهم بما يصحبونه الكلام مِمَّا تقدم قبله»[4] .

تتعلق المسألة هنا بقرائن مقالية تقدم مجيئها في سياق الكلام وتعتبر

(1) - عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص.431.

(2) - نصر حامد أبوزيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ط.6، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، 2001، ص.114.

(3) - عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص.132.

(4) - ابن جنّي، المنصف، 1/ 255، نقلا عن عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص.55.

مرجعًا للمتلقي في فهم ما لم يَعُدْ مؤلف الخطاب إلى إثباته باللفظ في ما تلاَ ذلك، ففي قوله تعالى: ﴿ وأصبح الذين تمَنّوا مكانه بالأمس يقولون وَيْكَ أن الله يبسُطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويقدرُ لولا أنْ منَّ الله علينا لخَسَفَ بنا، ويك أنه لا يُفلح الكافرون ﴾ (القصص. 82)، إن الفعل «خَسَفَ» فعل متعدٍ يحتاج إلى مفعول به اسْتُغنيَ عنه[1]*، لا لأن التركيب ليس بحاجة إليه وأن الفهم يمكن أن يستقيم من دونه، وإنما لأنه مرّ على القارئ أو السامع ما يساعده على فهم المراد وهو قوله عزَّ وجلَّ في الآية التي سبقت هذه مباشرة: ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ (القصص. 81)، وعليه يدرك (أي القارئ أو السامع) أن ما استغنت عنه الآية هو كلمة "الأرض" الواردة في الآية التي قرأها أو تليت عليه قبل التي أُضْمِر فيها المفعول به. فبفضل هذه القرينة غير اللفظية، وهي هنا السياق النصي أو المقالي (Le contexte Textuel)، فإن المعنى لا يَغُمُّ عليه فلا يستفهم عن الشيء الذي سَيَخْسِفُه الله بهؤلاء الذين تمنَّوا من قبل لو كانوا مكان قارون فأوتوا ما أوتيه من كنوز يعزّ إحصاؤُها. ومن نماذج ما يستعين فيه المتلقي بهذه القرينة في القرآن أيضا لرفع اللبس عن بعض المواطن في الخطاب الذي يتلقاه، قوله جلَّت قدرته: ﴿عادا وثمودًا وقد تبيَّن لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعْمَالَهم فَصَدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ (العنكبوت. 38) . إن هذه الآية في حالة تلقيها معزولة عن سياقها النصي، أي في غياب القرينة، يبقى جزءٌ من معناها مُلْبِسًا على متلقيها، فَبِنْيَتُها اللفظية لا تُنْبِئُه بأي شيء ذي علاقةٍ بمساكن عاد وثمود، لأن مفعول الفعل «تبيّن» لم تصرح به الآية، فانكشاف المعنى له (أي للمتلقي) رهن بما يرفع الحجب عن المفعول المستغنى عنه، وهو ما يتحقق برجوعه إلى القرينة المتمثلة في ما ورد في الآيتين

(1)* لم يُشِر الزمخشري في الكشاف إلى هذا الحذف لأنه قرأ « لَخُسِفَ بنا » حسب رواية ورش بدلاً من « لَخَسَفَ بنا » حسب رواية حفص، يُنظر الكشاف، مرجع سابق، 192 / 3

اللتين تقدمتاها: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا، فقال يا قومي اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ (العنكبوت. 36 - 37). إن سياق هاتين الآيتين يبين أن الأمر يتعلق بالعذاب الشديد الذي يُنزله تعالى على الأقوام المفسدة المكذبة بِرُسُلِهِ. فما تبيّنُه مساكن عاد وثمود هو العذاب الأليم أو الهلاك الذي أَصَابَهُم به المولى عزَّ وجل فلم يُبقِ منهم أحدًا وبقيت ديارهم شاهدة عليهم، لذلك يقول الزمخشري في« وقد تبيَّن لكم»:

« ذلك يعني ما وصفه من إهلاكهم (من) جهة (مساكنهم) إذا نظرتهم إليها عند مروركم بها [...][1]». على هذا فإن ما تقدم الآية محلَّ الإضمار هو القرينة غير اللفظية التي يستعين بها المتلقي في إدراك مقصدها التبليغي، فالآية الثامنة والثلاثون من سورة العنكبوت تُخْبِرُ باللفظ الصريح عن بقاءِ مساكن عاد وثمود، ولكنها لا تُخبر على وجه الدقة والتحديد وباللفظ عما حدث لقاطنيها، في حين أن الآيتين الأُخريين (36 و37) من السورة تُخبران عن بقاء مساكن قوم شعيب، إذ لم تشيرا إلى أي ضَرر أصابها، أما سكانُها فأضحوا جاثمين، أي أصبحوا جثثًا لا حياة فيها أو« باركين على الركب ميتين» كما قال الزمخشري[2]، فالمتلقي يدرك في الحالتين أن الديار بقيت قائمة شاهدة على أهلها، أمّا المُستغنى عن ذكره في الآية 38 وهو مصير قوم عاد وثمود فإنه يدركه من خلال مصير قوم شعيب الذي مرَّ عليه ذكره في الآيتين 36 و37 من السورة، فلا يقع له أي لَبْسٍ في فهم ما أضمرته الآية التي تلتهما، باعتماده على « ما جرى من الذكر». وخلافًا لمثل هذا الاستخفاف أو الحذف الذي يطال البنية اللفظية للخطاب من دون أن يؤثر سلبًا على بنيته الدلالية ومنها على عملية التواصل، فإنَّ منشئ الخطاب يضطر في بعض

(1) -الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق 3 / 206.

(2)- الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق 3 / 206 .

المواقف إلى توسيع بِنْيَتِهِ اللفظية من دون أن تصحب الزيادات اللفظية التي يلحقها بها أية إضافة للمضمون الأساسي للخطاب. وهذه حالة أخرى من الحالات التي يؤثر فيها المتلقي في صناعة الخطاب، لأن ما يستهدفه صاحبه من توسيع بنيته اللفظية هو مزيد من الإبانة تُزيلُ عن ذهنه (أي المتلقي) التباسًا ما أو تعفيه عن استفهام قد يشغله، فصانعُ الخطاب في مثل هذه الحالات يستدرك ذلك على سبيل الاستباق. إن هذه الزيادة العارضة [1]* في الخطاب تكون « إمَّا مجرد تكرارله أوزيادة لفظية من وضع اللغة مثل: « جاء نفسه « أو» **ذهبوا أجمعينّ**»، تجعل تحت تصرف المتكلم كوسيلة وضعية لغوية للتوكيد والتوضيح »[2].

من هذه الزيادات العارضة التي يلجأ إليها منشئ الخطاب لرفع لبسٍ أو للإجابة المُسبقة على تساؤل قد يراود ذهن المتلقي (أوالمتلقتين) أثناء استقبال الخطاب، «**الجملة المعترضة**»، كما في الفقرة الآتية من رواية عزالدين جلاوجي« سرادق الحلم والفجيعة »، فقد جاء فيها أن الشيخ المجذوب قال: « سمعت جدي يقول - **وكان من الصالحين المخبتين الصادقين**- إن المدينة كانت واحة من نخيل... الكلام فيها موسيقي والنظر إمعان ...» [3]

إن المضمون المعنوي للمعترضة: « كان من الصالحين المخبتين الصادقين» ليس عنصراً أساسيًا في البنية الدلالية للخطاب الذي شرع المتحدث في هذا المَوْضِع منه في تقديم صورة عن المدينة موضوع الحديث في الرواية في زمن مضى، ولكنه لم يُقدم تقاسيم هذه الصورة كاملة لإمساكه عن الكلام فاسِحًا المجال للصمت الذي وُظِّفَ في الرواية ليكون علامة على القهروالموت اللذين خيما على المدينة. فمضمون الجملة المعترضة هنا لا صلة له بهذا القصد التبليغي، فالمتوخَّى منها هو إعطاء فكرة للقارئ عن هوية مصدر

(1)* التسمية للأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، يُنظر الخطاب والتخاطب، ص69

(2) -عبد الرحمن الحاج الصالح، الخطاب والتخاطب، ص69..

(3) - عزالدين جلاوي «سرادق الحلم والفجيعة» (رواية) مرجع سابق، ص. 34.

الخبر المروي على سبيل الإبانة والتوضيح لدفع الشك الذي قد يُسَاوِرُهُ فيما يخص صدق الخبر، أما بعد ذلك فمضمونها مستقل عن القصد التبليغي الذي أشرنا إليه، لأن ما يهدف إليه صاحب الخطاب هو نقل الإحساس بالموت المخيم على المدينة إلى الذات المتلقية ومعادل هذا الموت هو الصمت أو انقطاع الكلام قبل إن تكتمل الفكرة، وليس هناك أخطر في حياة البشر من اغتيال الأفكار، لأنه اغتيال للعقل الذي كرم به الله عزَّ وجلَّ الإنسان على بقية المخلوقات، فحياة بلا عقل هي الموت بعينه بالنسبة إلى البشر، وانتزاع العقل من الإنسان هو تَشْيِيئُهُ (chosifier)، وهذا القصد لا تنقله إلى المتلقي الجملة المعترضة ولا تُسهم في صناعته، لذلك قلنا إن وظيفتها في مَوْضِعها محدودة، فهي ترفع إبهامًا يتَّصل بهوية المصدر الأول أو الرئيس للخبر ليس غير، ولا علاقة لها بالإحساس بالقهر الفظيع المعادل للموت واغتصاب الحياة من الإنسان الذي يهدف الخطاب أوقل صاحب الخطاب لتوليده في الذات المتلقية، سوى إن هذا لا يُفرغُها من وظيفتها الإنبائية في الخطاب من جهة أن مضمونها الدلالي رافقه مضمون إفادي أو إعلامي[1]* يُنْبِئُ القارئ بما لا علم له به من قبل وهو تلك المعلومات التي قدمتها عن مصدر الخبر الذي رواهُ الشيخ المجذوب.

فضلا عمّا تحدثنا عنه وحاولنا إظهار أهميته لا في صناعة الخطاب فقط وإنما في تلقيه وإدراك مقاصده أيضًا، هناك وسائل أخرى تُسهم في ذلك وتُعَدُّ من القرائن هي الأخرى، ولكن ما يميزها هو ارتباطها بالخطاب الشفوي، فهي توجد في الظروف الحافة بالخطاب، أي إنها ترافقه في أثناء جريانه وتلقيه في للوقت نفسه، فهي ذات علاقة وثيقة بمقام التواصل(situation de com-munication)، وبوساطتها يُعزّز صاحب الخطاب (الشفوي) ما يريد إيصاله

(1)* لأن هناك فرقا بين المضمون الدلالي والمضمون الإفادي أو الإعلامي؛ فإذا كان الخطاب لا يحمل لمتلقيه جديداً يضاف إلى علمه السابق، فإنه يكون ذا مضمون دلالي وخاليا من أي مضمون إفادي أو إعلامي. يُنظر عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب ص.173 هامش 1.

إلى متلقيه ويزيدُه وضوحًا، أو يعبر بها عن معانٍ من دون أن يُفرد لها لفظًا في خطابه، كما تقوم للمتلقي مقام الوسيلة التي تُعينه على الإدراك الجيد لما يصله من معنى عن طريق اللفظ أو حتى إدراك ما لم يأت في الخطاب بعبارة صريحة، كما هي الحال عندما يُعوّض المتكلم مالم يذكره صراحة بطريقة إلقائه خطابه، فتراه يُمَدّدُ الصوت أو يُفخّمُه عند تلفُّظِهِ ببعض عباراته ليدل على مالم تدل عليه الكلمة أو العبارة التيّ لم يُوردها في البنية اللفظية لكلامه، فكما ذكر ابن جِنّي، إذا كان مثلاً بصدد الحديث عن سير في ليلٍ طويل، فبإمكانه أن يدل على هذا المعنى من دون أن يورد له لفظًا وذلك بقوله: «**سير عليه ليل**» مع الامتداد بالصوت وتفخيمه في « ليل» فيحسُّ المُخَاطَبُ « في كلام القائل لذلك من التطويع والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك » ويضيف يتحدثُ عن هذا الصنف من القرائن التي يتوسل بها صاحب الخطاب (الشفوي)، لإيصال معانٍ إلى مُخاطَبه (أو مخاطَبيه) من دون أن يَخُصَّها بصياغةٍ لفظية: ((وكذلك إن ذممته (أي الشخص الذي تتناوله في الكلام) وتُزَوِّي وجهك وتقطبه فيُغْنِي ذلك عن قولك «إنسانًا لئيما»[1]. وبالنظر إلى أهمية هذه الوسائل غير اللغوية المرتبطة بمقام التواصل بالنسبة إلى المخاطِب ومخاطَبيه، فإنها لَقيَت اهتمامًا ذا بالٍ من بعض القدماء في التراث العربي، فما ورد عند الجاحظ في البيان والتبيين عن الإشارة بوصفها نوعًا من أنواع الدلالة التي يعتمد عليها الإنسان في الإفصاح عن المعاني التي يَرُوم إيصالها إلى متلقيه، شديد الصلة بما نحن فيه، ففي هذا الإطار يتنزل قوله ((وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان))[2].

(1) - ابن جني، الخصائص، 2/37، وينظر، عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص.58.

(2) - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح، عبد السلام محمد هارون، ط.3، القاهرة، 1963، 1/79.

ففي هذا الكلام تنصِيصٌ واضحٌ على أن اللغة تجد في الإشارة دعامة كبيرة في حسن التعبيرعن المقاصد التي يبتغي منشئ الخطاب (الشفوي) تبليغها الى جمهوره، فما يصل منها إليه عن طريق السمع يتدعم بما يراه من إشارة من المتكلم لتأكيد المعنى الذي يقدمه اللفظ أوليزيده وضوحا ويرفع عنه لباسا ما يكون قد اعتراه ، بمعنى إن الإشارة في هذه الحالة تساعد اللغة على الانتقال بالمعنى من الخفاء الى التجلّي ليصبح في متناول أفهام المتلقين. وفي التأكيد على مثل هذا الدور الذي تؤديه الإشارات في التواصل بين المتخاطبين يذهب بعض الباحثين في مجال الاتصال حديثا إلى أن التواصل بالإشارة «يُسبق أو يرافق الخطاب ويمكنه حتى الإحلال محله لنقل بعض الرسائل»message«[1]

وفي هذا السياق أيضا يقول ابن قيم الجوزية يتحدث عن هذه البدائل التي يلجأ اليها صاحب الخطاب (الشفوي) لتقوم له مقام اللفظ أولتعزيزه في الإعراب عن بعض الأغراض التبليغية التي يريد إيصالها إلى مستمعيه « معنى الإشارة تدل عليه قرائن الأحوال من الإيماء باللحظ وهيئة المتكلم، فقامت تلك الدلالة مقام التصريح بلفظ الإشارة، لأن الدال على المعنى إما لفظ وأما إشارة و أما لحظ»[2]. فمثلما يستعمل المتكلم هذه الإشارات في خطابه لتكون عوضا عن اللفظ للإفصاح عن أغراضه، فإن المتلقي يعتمد عليها هو الآخرفي استشفاف المقاصد المعبرعنها من خلالها[3]*، ومنه تتأكد لنا أهميتها، كما تقدمت الإشارة، لا بالنسبة الى المخاطِب في التعبيرعن أغراضه، وإنما بالنسبة إلى المخاطَب أيضا الذي يترجمها إلى دلالات ينفذ عبرها إلى الأغراض التبليغية التي يستهدفه من خلالها مُخاطِبه.

(1) - Christian Baylon, Xavier Mignot, La communication, opt,cit,p144

(2) - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، نقلا عن عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب و التخاطب ص58.

(3)* يجب التذكير بأن بعض الإشارات تختلف دلالاتها من ثقافة الى أخرى، راجع في ذلك: Christian Baylon, Xavier Mignot, La communication, opt,cit,p144

خلاصة:

نخلص من كل ما تقدم إلى التأكيد على أن منشئَ الخِطاب لا يتفرد بصناعة خطابه، إنما يُشرك دائما جمهوره الواقعي أو الافتراضي في إنشائه بكيفيات حاولت السطور السابقة إلقاء بعض الضوء عليها، وهي مشاركة تنفي عن المُخَاطَب (أو المخاطَبين) قارئا كان أم مستمعًا السلبية في تلقي الخطاب الذي يستهدفه وتؤكد حضوره في بنيته وهو حضور تمليه نجاعة عملية التواصل اللغوي ذاتها لأن تجاهله سواءً أكان فردًا أم جماعة ينعكس سلبًا على فعاليتها بل قد تنجم عنه قطيعة بين الخطاب والجمهور الذي يستهدفه مؤلفه من خلاله. ومثلما أن منشئ الخطاب يعتمد في نسج خطابه على وسائل توفرها له اللغة وعلى وسائل خارجة عن اللغة من حيث هي أوضاع يتقاسمها مع مخاطبيه أو بالأحرى يتقاسمون منها على الأقل القدر الذي يحقق التواصل بينهم، فإن المتلقين يعتمدون هم الآخرون في فَهْم فحوى الخطاب على ما هو لغوي وعلى ما هو غير لغوي بالمفهوم الذي حاولنا بيانه.

إذا كانت هذه الوسائل أو الأدلة غير اللغوية لا تُباري اللغة في درجة فعاليتها الاتصالية، فإنه، على الرغم من ذلك، لا يمكن الاستغناء عنها في التواصل عن طريق اللغة فهي تقترن في الخطاب مع الأدلة اللغوية مشكلة معها شبكة دلالية متلاحمة العناصر لتبليغ المقاصد سواء أكان التواصل كتابيا أم شفويا(1)*، وبناءً على ذلك يكون قد تبين لنا أن الخطاب في صناعته وفي تلقيه يتعاضد فيه ما هو لغوي وما هو غير لغوي، فنجاعته لا يتفرد بها أحدهما دون الآخر إنما تتحقق بهما مندمجين متكاملين تكاملا عضويا لا تنفصم عُراه، وإلا تأثرت عملية التواصل سلبا بما يلحق وحدتهما من تصدع، فيخفق الخطاب في بلوغ الغرض المتوخى من صناعته.

(1)* مع تفرد الخطاب الشفوي بوسائل تبليغية ذات علاقة بشفويته سبق الحديث عنها.

المباحث البلاغية في ضوء اللسانيات النصية: أثر مباحث علمي المعاني والبديع في بناء النص وتماسكه

د. عثمـان بريحــة
وحدة البحث اللساني وقضايا اللغة العربية في الجزائر
مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية
-ورقلة-الجزائر-

ملخص المداخلة:

التراث البلاغي ما انفك يبعث في نفوس الباحثين متعة وفي الإقبال على الاشتغال به لذة، وما زال الباحثون على تتابع الأيام آخذين بقراءته قصد اكتشافه والتوصل إلى أساليب تنظيرية حديثة تبعث أصوله القديمة، وذلك وفق مناهج جديدة تنظر إلى تلك الأصول برؤى تهدف إلى الاستفادة منها في ضوء النظريات اللسانية المعاصرة، وعلى نحو يحرك فاعليتها ويجعل منها حصيلة معرفية متنوعة ومتعددة وخلاقة.

ولئن قاد هذا – في الكثير من الأحيان- إلى الإبانة عن القيمة الحقيقية للتراث البلاغي، فليس بجديد إذا قلنا إن جوانب عدة لم تحظ بعد بنصيبها من البحث والدراسة، وذلك بالنظر إلى تطور حقول الدراسات اللسانية في العقود القليلة الماضية، ودورها في التنبه لما يحتويه التراث البلاغي من علامات طريق أولى خاصة في مجال لسانيات النص والخطاب، هذا النهج الجديد في الدراسات اللسانية الذي يحوي مفاهيم وتصورات وأفكار تجاوزت نطاق الجملة إلى أفق النص فأدت إلى تصدره للمناهج اللسانية المعاصرة، مما دفع بالكثير إلى الاهتمام به والإقبال عليه جراء ما وجدوا من شبه بينه وبين تراثنا البلاغي.

وعليه تأتي هذه المداخلة لترصد أثر المباحث البلاغية في بناء النص وتماسكه وتتابع أجزائه، ويتعلق الأمر بمباحث علمي المعاني والبديع وكيف تنبه البلاغيون إلى دورها في تشكل النص ووظيفتها في نسجه، وقد تعاطى جلهم مع مسائل لها صلة بالآليات التي تحقق التماسك النحوي والدلالي في النص على حد سواء. وأهم المباحث التي سيتم الحديث عنها في علم المعاني هي: الإسناد والحذف والالتفات والفصل والوصل ، أما مباحث علم البديع بشقيه المعنوي واللفظي فمتعددة ومنها: رد العجز على الصدر والطباق وتشابه الأطراف ومراعاة النظيروحسن التخلص وغيرها من المباحث. وذلك كله بقصد الإبانة عن الثراء الذي يحويه التراث البلاغي فيما يتعلق بقضايا النص وتماسكه، وبهدف دراسة إمكانية البدائل التي يطرحها التراث في هذا المجال.

Summary of the intervention:

The rhetorical heritage is what gives you joy in the hearts of researchers, a pleasure in the demand for work in it, and the researchers continue to follow the days, taking the time to read it in order to discover it and come up with modern theoretical methods that send out its ancient origins, according to new approaches that look at those assets with visions aimed at benefiting from them in the light of Contemporary linguistic theories, in a way that stimulates their effectiveness and makes them a product of diverse, diverse and creative knowledge.

While this has led - in many cases - to indicate the true value of rhetorical heritage, it is not new if we say that several aspects have not yet had their share of research and study, given the development of the fields of linguistic studies in the past few decades, and their role in paying attention to what the heritage contains Al-Balaghi is one of the first road signs, especially in the field of linguistics of text and discourse. This new approach in linguistic studies contains concepts, concepts and ideas that went beyond the scope of the sentence to the horizon of the text and led to its promulgation of contemporary linguistic approaches, which prompted a lot of interest in it and its

acceptance due to what they found in it. And between tr Tna Rhetorical.

Accordingly, this intervention comes to monitor the impact of the rhetorical detective on the construction of the text and its coherence and the sequence of its parts. whether. The most important topics that will be talked about in the science of meanings are: attribution, deletion, gestures, separation and interconnection, whereas the topics of knowledge of Al-Badi'i, both moral and verbal, are numerous, including: restoring disability on the chest and counterpoint, similarities of the parties, observance of the counterpart, good disposal and other topics. All of this is for the purpose of indicating the richness contained in the rhetorical heritage with regard to the issues of the text and its cohesion, and with the aim of studying the possibility of alternatives presented by heritage in this field

تقديم:

كانت نهاية الستينات وبداية السبعينات أذاناً بميلاد فرع علمي جديد، واتفق الباحثون والدارسون على أنّه أحدث فروع اللسانيات، وأنّه الوريث للبلاغة والأسلوبية، ونشأ هذا التوجه في أحضان المدرسة الألمانية وعلى يدي علمائها أمثال هارتمان (nnamtraH.P) وهارفيج (geiwraH.R) وشميث (tdimhcS.F.S) وفاينريش (hcrnieW.H) وتوان فان ديك (kjiD naV.T)، وعرف هذا التوجه بـ«علم النص» أو «لسانيات النص « وفي أقطار أخرى بـ«تحليل الخطاب» sisylanA sruocsiD.

وتعود بدايات هذا العلم إلى مؤتمر عقد عام 8691 بجامعة كونستانس (znatsnoK) بألمانيا تحت إشراف عالمي اللغة هارتمان وفاينريش، وقد حدّد هذا المؤتمر حدود ومعالم هذا العلم الجديد ومعايير ومهامه. ويعدّ هذا الفرع الجديد من علوم اللغة –كما أشار فان ديك- وريثا للبلاغة وتعد هذه الأخيرة «السابقة التاريخية لعلم النص، إذ نحن تأملنا التوجه العام للبلاغة القديمة إلى وصف النصوص ووظائفها المتميزة، إلاّ أنّه لما كان اسم البلاغة يرتبط غالبا بأشكال ونماذج أسلوبية معينة، وأشكال ونماذج أخرى

فإننا نؤثر المفهوم الأكثر عمومية علم النص»[1] ، على أنّ ما يميز هذا العلم رغم تعدد الدراسات وتنوعها لمّا يصل بعدُ إلى صياغة نظرية كاملة وشاملة تغطي أبعاد النص وترصد علاقاته، وتضع الإطار النظري المحدّد للظاهرة النصية، وتجاوز البحث التقليدي للجملة باعتبارها أكبر وحدة في التحليل والوصف إلى أفق النص، وذلك استنادا إلى كل ما ورثناه عن البلاغة والنقد والأسلوبية، وما قدّمته علوم أخرى كالسيميائيات والتداولية وعلم النفس والاجتماع وعلوم الاتصال كون النص هو القاسم المشترك بينها جميعا، الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل عن مهام هذا العلم ومجالاته.

وما دامت (لسانيات النص) علماً واسع النّطاق ومتداخل الاختصاصات فما يناط به هو أن «يهتم بوصف وتحليل أشكال نصية وأبنية نصية مختلفة، وشروطها ووظائفها وتأثيراتها المتباينة، والمحادثات اليومية، والأحاديث العلاجية، والمواد الصحفية والحكايات والقصص، والقصائد ونصوص الدعاية والخطب، وإرشادات الاستعمال والكتب المدرسية، والكتابات والنقوش ونصوص القانون والتعليمات»[2]، أو أن يضطلع بوصف«العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة، وشرح المظاهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة، كما يتم تحليلها في العلوم المتنوعة»[3].

هذا وقد حرص علماء النص على أهمية النص كوحدة كبرى للتحليل، وعدُّوا دراسة الجمل دراسة قاصرة عن تزويدهم بحقائق تخص الظاهرة النصية، لذلك نجد الكثير من المشتغلين بالنص يهدفون إلى دراسة الروابط بين الجمل وتتابعها ومظاهر انسجامها، ومن ثمَّ اتضحت الفروق بين الجملة

(1)- فان ديك، تون: علم النص،: مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2001،ص23.

(2)- المرجع نفسه، ص11.

(3)- فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية للنشر لونجمان، الجيزة،مصر، ط1، 1996ص 247.

والنص. والحقيقة أن هذا الفصل بين الجملة والنص لا يتناسب مع الواقع الفعلي لكونهما متكاملين، وذلك لأن النص ما هو إلا مجموعة من الجمل، فكما أن الفونيم وحدة الكلمة، والكلمة وحدة الجملة، فإن الجملة وحدة النص، هذا من جهة ومن جهة أخرى التوسع في مجال التحليل ليشمل النصوص وتوظيفها في الاتصال لا ينقص نقيرا من أهمية الوحدات اللغوية المعزولة (الفونيمات-المورفيمات-المركبات الاسمية-الجمل)، الأمر الذي يؤكد أنّ الجملة والنص يشتركان في تحليل مواد لغوية ذات صفات مشتركة، أولها أن كلا الاتجاهين يحللان البنية erutcurtS، ومن ثَمَّ يمكن اقتراح نحو الخطاب من أجل توليد النصوص، وهكذا نستطيع أن نصمم أنموذجا لنحو واحد يعالج بنية الجملة وبنية النص من خلال توسيع وتطوير النظام الذي يحدد بنية الخطاب. أما الصفة الأخرى فتتمثل في كون النصوص مثلها مثل الجمل ذات معنى، وأن العلاقات الدلالية في الجملة يمكن أ تقوم أيضا بين الجمل في نص ما. إضافة إلى ذلك فكما تقوم العلاقات الإحالية بين العناصر في الجملة يمكنها أن تكون ضمن العناصر في جملتين منفصلتين في النص، وهذا يستدعي وجود معالجة نحوية بلاغية واحدة لكلتا الحالتين، كما يستدعي ذلك من المؤيدين لنحو الجملة السعي إلى تطوير نموذجهم على أساس تجريبي.

ذلكم وإن سعى الغرب إلى تجديد البلاغة وبعث مكوناتها النظرية فإن الكثير من الباحثين في ثقافتنا العربية يجأرون بادعائهم القطيعة، ويتهمون التراث بالعجز عن تلبية ما تقتضيه الثقافة الحديثة، فسقطوا في مهواة من الظن حجبت عنهم دلالاته، ، وتم استبعاد الأساس العربي لديهم الذي لم يكن بعيدا أو بمنأى عما قدمه الغرب.

1-المباحث البلاغية في ضوء المقاربة النصية:

أ. أثر مباحث علم المعاني في بناء النص وتماسكه:

أ-1. الإسناد:

تحدث البلاغيون العرب عن الإسناد بوصفه مبحثا من مباحث علم المعاني وذكروا أحوال المسند والمسند إليه، كذكره وحذفه وتعريفه ووصفه وتنكيره وتقديمه على المسند وتأخيره عنه، وكذا تخصيصه وقصره، والمقتضيات البلاغية لذلك كله، خاصة لدى عبد القاهر والزمخشري والسكاكي وغيرهم.

وقد تحدث (سيبويه) عن الإسناد في قوله: «هذا باب المسند والمسند إليه: وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدّا. فمن ذلك: الاسم المبتدأ والمبني عليه وهو قولك عبد الله أخوك وهذا أخوك، ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلا بدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدّ من الآخر في الابتداء»[1]، وقال الزجاجي:«اعلم أن الاسم المبتدأ مرفوع، وخبره إذا كان اسما واحدا مثله فهو مرفوع أبدا وذلك قولك: زيدٌ قائمٌ فزيد مرفوع لأنه مبتدأ والابتداء معنى رفعه وهو مضارعته للفاعل، وذلك أنّ المبتدأ لا بدّ له من خبر ولا بدّ للخبر من مبتدأ يسند إليه، وكذلك الفعل والفاعل لا يستغني أحدهما عن صاحبه فلما ضارع المبتدأ الفاعل هذه المضارعة رفع نحو قولك زيدٌ قائمٌ فزيد مرفوع بالابتداء وقائم خبره»[2]، ويبين الأعلم الشنتمري الإسناد في قوله: «قوله المسند والمسند إليه فيه أوجه نذكر أجودها وأرضاها: وهو أن يكون المسند الحديث، والمسند إليه هو المحدّث عنه، وذلك على وجهين: فعل وفاعل، واسم وخبر، وإنّما كان المسند الحديث، والمسند إليه المحدّث عنه، كقولك هذا حديث مسند إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فالحديث هو المسند ورسول الله –صلى الله عليه وسلم- هو المسند إليه. ووجه ثان أن يكون التقدير فيه: هذا باب المسند إلى الشيء والمسند ذلك الشيء إليه،

(1) - سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط3، 1983، ج1، ص23.

(2) - الزجاجي، عبد الرحمن بن إسحاق: الجمل في النحو، تح: علي الحمد، مؤسسة الرسالة، عمان، الأردن، ط1، 1984، ص36.

وحذف من الأول اكتفاء بالثاني، فكل واحد منهما مسند إلى صاحبه لاحتياجه إليه إذ لا يتم إلا به.»[1].

ويتبين مما ذكره علماء العربية أن الإسناد في الجملة الفعلية والاسمية له ركنان لا يستغني أحدهما عن الآخر، ففي الجملة الفعلية المسند هو (الفعل) والمسند إليه هو (الفاعل) أوما ينوب عنه، أما الجملة الاسمية فمسندها هو (الخبر) أما المسند إليه فهو (المبتدأ). والسؤال الذي يواجهنا هو: كيف يسهم الإسناد في ربط المتتاليات الجملية في النص ؟.

قبل الإجابة عن هذا السؤال نشير إلى أمر مهم في التحليل النصي، وهو ما قرره علماء النص فيما يتعلق بـ(الجملة النواة) في النص وما يرتبط بها من متعلقات عن طريق وسائل ربط مختلفة نحوا ودلالة، وأنها عادة تكون في بداية النص ويدوم أثرها إلى متتاليات جملية لاحقة قد تصل إلى آخره، وهذا ما يجعل التحليل النصي يتجاوز حدود الجملة بصفتها أكبر وحدة للتحليل إلى مستوى أكبر وأرحب تمثل فيه الجملة وحدة من وحدات كثيرة في بناء متكامل هو النص.

وانظر إلى سورة (الأنعام) كيف حقق الإسناد فيها معياري السبك والالتحام، إذ أن الافتتاح في هذه السورة كان بجملة اسمية ركنا الإسناد فيها هما: المسند (لله) والمسند إليه (الحمد) وهما مبتدأ وخبر، لذلك ذكر أن هذه السورة فيها إخبار بأن الحمد وغيره من المحامد مستحق لله، وهذه الفاتحة (الفقرة) التي تتكون من آيتين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴿١﴾﴾الأنعام:1، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ..﴾الأنعام:2، يمثل فيها (الإسناد) الجملة النواة التي سيكون لها امتداد في الجمل الموالية على مستوى الفقرة الواحدة، وعلى مستوى الفقرات اللاحقة في السورة، فالأول كان بإحالة الاسم الموصول والإشارة على ركن

(1) - المبرد، محمد بن يزيد: المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (د.ت.ط)، ج1، ص08.

الإسناد في الجملة النواة، ويمتد تأثير الإسناد إلى الفقرة الثانية المكونة من أربع آيات هي قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ ۝٣﴾ الأنعام: 3، وقوله:﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ...۝٤﴾الأنعام: 4 ، وقوله كذلك: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ... ۝٥﴾الأنعام: 5،

وقوله أيضا ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ... ۝٦﴾الأنعام: 6.

والحقيقة أن تأثير (الإسناد) يستمر حتى آخر السورة، وذلك بالنظر إلى الأفعال المسندة إلى اسم الجلالة (الله)، وذلك بدء من الفقرة (03) حتى الفقرة (52) من السورة، ويتبين من ذلك أن إسناد الأفعال في هذه الآيات من الممكن أن يعود كله إلى الجملة النواة (الحمد لله) والتي بنيت بالأساس –كما ذكرنا- على الإسناد، فتأمل هذه الآيات التي أخذت من فقرات عديدة من نص السورة:

-﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ...۝٧﴾الأنعام: 7/ الفقرة: 03.

-﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ...۝٢٥﴾ الأنعام: ٢٥/الفقرة:07 .

-﴿...وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ...۝٣٥﴾الأنعام: 35/الفقرة:10.

-﴿.. وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ... ۝٥٣﴾أنعام: 53/الفقرة:14.

-﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...۝٧٥﴾الأنعام: 75 / الفقرة:21.

-﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ...۝١٢٢﴾الأنعام: 122/الفقرة:35.

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ...۝١٦٥﴾الأنعام: 165/الفقرة:52.

وهذه الآيات رغم أنها في فقرات مختلفة إلا أن تماسكها واضح، وهو ناتج بالأساس عن علاقة (الإسناد).

1-أ-2.الحذف:

الحذف في اللغة القطع من الطّرف، وفي الاصطلاح «إسقاط كلمة بخلفٍ منها يقوم مقامها»[1]، ويعرّفه باحث آخر بقوله: «إسقاط لصيغ داخل النص التركيبي في بعض المواقف اللغوية، وهذه الصيغ يفترض وجودها نحويا لسلامة التركيب وتطبيقا للقواعد»[2]. وهو ملحظ نحوي دقيق المسلك له سماته المتفردة التي تجعله شبيها بالسحر[3]. ولذلك عبر عنه ابن الأثير (ت637 ه) بأنه نوع من التأليف شريف لا يكاد يلجه إلا فرسان البلاغة وذلك لعلو منزلته[4].

فابن الأثير يعدّه نوعا من التأليف النحوي الدقيق الذي يكتشفه أهل البلاغة. ولا شك في أن أول من طرق بابه هم النحاة الذين عنوا بدراسته، وبينوا مواضعه غذ كانوا يذكرون اللفظ ويحذفونه حسبما يقتضيه السياق والمعنى، فقد أشار إليه سيبويه في أكثر من موضع من (الكتاب) مبينا أنواعه وكاشف عن أسبابه مؤكدا أن ذلك من سمة العرب الفصحاء في أساليبهم[5]، وعدّه ابن جني (ت392 ه) بابا قيما من أبواب الشجاعة العربية[6].

---

(1)- اللبدي، سمير: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1985. ص 63.

(2)- أبو المكارم، علي: الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص 200.

(3)- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر (د.ت).

(4)-الجزري، ابن الأثير: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح: مصطفى جواد وجميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، ط1، 1956، ص 122.

(5)- ينظر: الكتاب: 1/8، 111،و279، و2/144.

(6)- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط4، 1990، ج2، ص360.

والحذف عند النصيين بنفس المعنى تقريبا ولا مجال للخلاف الواسع هنا إذ يمثل: «استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذّهن، أو أن يوسع أو أن يعدّل بواسطة العبارات الناقصة»[1]، والفارق البسيط بينهما أنّه عند اللغويين العرب لم يجاوز حدود الجملة كحذف المبتدأ لدلالة الخبر عليه، أو حذف الفاعل والمفعول لدلالة الفعل عليهما، وعند علماء النص يتعدى حدود الجملة إلى النص.

ويذهب علماء النص إلى أن الحذف يقوم على ثلاثة محاور هي[2]:

1- التكرار وذلك بعد تقدير المحذوف.

2- المرجعية بين العنصر المحذوف وبين العنصر المذكور، وتكون قبلية أو بعدية وهذه المرجعية داخل النص (مقالية) أو خارجه (مقامية).

3- وجود دليل أو قرينة تشير للعنصر المحذوف، وهي التي تنشأ مع المرجعية الداخلية، ومن ثمّ يتحقق السبك النصي في الكلام.

1-أ-3. الالتفات:

أفرد الرازي للالتفات بابا عرض فيه لأنواعه المختلفة، وقال في تعريفه:«هو تعقيب الكلام بجملة تامة ملاقية إياه في المعنى، ليكون تتميما له على جهة المثل أو غيره»[3]. أما حازم القرطاجني فالالتفات عنده هو ضرب ما أسماه الانعطاف بالكلام من جهة إلى أخرى أو من غرض إلى غرض آخ، وهذا الانعطاف لا يكون التفاتا إذا لم يكن القصد من ذكر الغرض الأول منذ البداية أن يكون تمهيدا أو سببا لذكر الثاني؛ لأن الالتفات معناه أن «يجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض، وأن ينعطف من إحداهما

(1)- دوبوجراند: النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، ص301.

(2)- ينظر: الفقي، صبحي إبراهيم: علم لغة النص بين النظرية والتطبيق، ص 172.

(3)- الرازي، فخر الدين: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح: محمد زغلول سلام ومصطفى هدارة، الإسكندرية، مصر، ط1، 1974، ص112.

إلى الأخرى انعطافا لطيفا من غيرواسطة تكون توطئة للصيرورة من أحدهما إلى الآخر على جهة التحول»[1].

و الالتفات هو من العلاقات الدلالية الأكثر ترددا في نص القرآن الكريم، ومن فنون القول التي لاقت عناية لدى البلغاء وعلماء التفسير؛ لأنه ينقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب ومن صيغة إلى صيغة ومن خطاب إلى آخر، وكما ذكر علماؤنا الأجلاء أن له فوائد كتطرية الكلام، وتفادي السآمة والملل كون النفوس جبلت على حب التنقل بين واد من القول إلى آخر، والزركشي يتحدث عن فوائد الالتفات العامة والخاصة بقوله:«اعلم أن للالتفات فوائد عامة وخاصة، فمن العامة التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر، لما في ذلك من تنشيط السامع واستجلاب مجاري الكلام وتسهيل للوزن والقافية شعرا ونثرا»[2]، ولا تقتصر مهمة الالتفات على ما ذكره الزركشي بل له فوائد خاصة كما أشار في نصه تقع من مسائل النص موقعا حسنا إذ تشير إلى وظيفة الالتفات في حبك النص وضمّه إلى بعض.

ويشير البقاعي إلى الالتفات ووظيفته في مواضع كثيرة من تفسيره، ففي (أم القرآن) ينبه الإمام على الالتفات بقوله:«فلما استجمع الأمر استحقاقا وتحبيبا وترغيبا وترهيبا كان من شأن كل ذي لب الإقبال إليه وقصر الهمم عليه فقال عادلا عن أسلوب الغيبة إلى الخطاب لهذا مقدما للوسيلة على طلب الحاجة لأنه أجدر بالإجابة: ﴿إِيَّاكَ﴾،... وأعقبه بقوله مكررا للضمير حثا على المبالغة في طلب العون ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى أن عبادته لا تتهيأ إلا بمعونته وإلى أن ملاك الهداية بيديه»[3]، فكان غرض الالتفات هو الحث

(1)- القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص 315-314.

(2)- الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ج3، ص 210.

(3)- البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح: عبد الرزاق غالب

على المبالغة في طلب العون، وتم الربط بين الآيتين على أساس هذا الغرض، فتحقق انسجام النص.

ومن الالتفات ما يأتي للتذكير مثلما كما أوضحه الإمام في تفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ...﴿١٠﴾﴾الأعراف: 10،بقوله: «ولما أمر الخالق بمتابعة الرسل، وحذرهم من مخالفتهم، فأبلغ في تحذيرهم بعذاب الدنيا ثم بعذاب الآخرة، التفت إلى تذكيرهم ترغيبا في ذلك بإسباغ نعمه وتحذيرا من سلبها، لأن المواجهة أردع للمخاطب، فقال في موضع الحال من ﴿خسروا أنفسهم﴾»[1]، وهذ يجعل الآيات متعالقة بعضها ببعض، ويلتحم فيها المتقدم مع المتأخر لإبانة القصد.

ومن الالتفات ما يكون للإنكار والإيماء إلى أشد الغضب وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴿٨٩﴾﴾ مريم: 88 – 89.

يقول البقاعي: «...ثم استأنف الالتفات إلى خطابهم بأشد الإنكار، إيماء إلى تناهي الغضب فقال: ﴿لَقَدْ﴾ أي وعزتي لقد ﴿جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي عظيما ثقيلا منكرا»[2].

فالالتفات كما بينت الأمثلة السابقة أحد وسائل الربط الدلالي بين الآية والآية وتجاوز الجملة الواحدة، وهو كثير في القرآن كما ذكر أهل البلاغة وأئمة التفسير على افتراض أن هنالك جهة جامعة تجمع آي السورة الواحدة، وفلم يخف بعد دوره في حبك النص وضمه إلى بعض.

1-أ-4 الفصل والوصل:

تحدث البلاغيون عن الفصل والوصل ولم تخل كتبهم من التنبيه على مواضعهما لدى الجرجاني والزمخشري ومن جاء بعدهما، والوصل في

المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ج1، ص 16.

(1)- المرجع نفسه: ج3، ص10.

(2)- المرجع نفسه: ج4، ص558.

البلاغة عطف قسم من الجمل على قسم، والفصل تركه كما جاء لدى القزويني، وها هو التفتازاني معلقا على ما جاء في كتاب القزويني لتقديمه الفص على الوصل:«بدأ بذكر الفصل لأنه الأصل، والوصل طارئ أي عارض عليه حاصل بزيادة حرف، لكن لما كان الوصل بمنزلة الملكة والفصل بمنزلة عدمها، والأعدام أنما تعرف بملكتها بدأ في التعريف بذكر الوصل»[1]. ويقصد بمنزلة الملكة أي الأمر الوجودي لأن حرف العطف بوجوده يكون الكلام موصولا وبعدمه يكون الكلام مقطوعا.

وعبد القاهر يبين تفصيلاته بقوله:«إن الجمل على ثلاثة أضرب: جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكد فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف –لو عطفت بعطف الشيء على نفسه. وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه فيكون حقها العطف. وجملة ليست في الشيء من الحالين.. وحق هذا ترك العطف البتة. فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين الحالين فاعرفه»[2].

كما عرض الزمخشري لما جاء تحت باب الفصل والوصل وأشار إلى أنهما من أسس البلاغة العربية إذ يقول في تفسير الآيات الأول من سورة البقرة:﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾البقرة:1 - 2والذي هو أرسخ عرقا في البلاغة أن يقال: إن قوله: ﴿ألم﴾ جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية، و﴿لا ريب فيه﴾ ثالثة، و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق (أي

(1)- التفتازاني، سعد الدين: تهذيب السعد، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، مصر، ط3، 1980، ج3، ص58.

(2)- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص187.

عطف) وذلك لمجيئها متآخية آخذ بعضها بعنق بعض»[1]. وفي قوله:« وذلك لمجيئها متآخية آخذ بعضها بعنق بعض» بيان لفاعلية (الفصل والوصل) في نظم هذه الآية الكريمة واتساق مبناه وانسجام معانيها، وهو ما يؤكد أن البلاغيين تنبهوا للأدوات التي تحقق تماسك بناء النص وتضفي التئاما حسنا بين أجزاء الخطاب.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿..إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ البقرة: 14.

- يقول الزمخشري: «الجملة الثانية تأكيد للأولى؛ لأن قوله ﴿إنّا معكم﴾ معناه الثابت على العبودية، وقوله ﴿إنما نحن مستهزؤون﴾ رد الإسلام، ودفع له منهم؛ لأن المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له، ودافع لكون معتدا به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته، أو بدل منه؛ لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر...، أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم: ﴿ إنّا معكم﴾ فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام؟ فقالوا: ﴿ إنما نحن مستهزؤون﴾»[2]. فالفصل هنا –كما فهمه الزمخشري- سببه أن الجملة الثانية مؤكدة للأولى أو بدل منها أو جواب على سؤال مقدر، ووقوع الجملة الثانية هكذا هو الذي أطلق البلاغيون عليه: الفصل لكمال الاتصال أولشبهه. وهذا القول فيه بيّنة على أن الزمخشري وغير من البلاغيين يدركون دور (الوصل والفصل) في الانتقال من خطاب إلى خطاب آخر والالتفات إليه بشرط وجود جامع بينهما، أو ما يعرف عند النصيين بـ(الجهة الجامعة) التي تمثل معيارا دلاليا في الأغلب.

ب. أثر مباحث علم البديع في بناء النص وتماسكه:

من الممكن أن تشغل فنون البديع في اللسانيات النصية حيز الاهتمام نفسه الذي شغلته مباحث علم المعاني، وذلك بالنظر إلى نقل هذه الفنون

(1)- الزمخشري، جار الله: الكشاف، تحقيق: شوقي المعري ومزيد نعيم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج1، ص36.

(2)- الزمخشري، جار الله: الكشاف، ج1، ص66.

من وظيفة تحسين هيئة الكلام كما بينها علماء البلاغة إلى وظيفة أخرى وهي تعزيز تماسك النص وتحقيق انسجامه، ومن ثم سيأتي الحديث عن قيمة هذه الفنون البديعية في ضوء المعالجة النصية وفق التقسيم الذي ارتضاه البلاغيون: بديع لفظي وآخر معنوي.

ب-1. رد العجز على الصدر:

وهو من فنون البديع اللفظي التي تسهم في ترابط أجزاء النص ويسميه بعضهم (الترديد)، وقد عرفه القزويني بقوله:«ومنه رد العجز على الصدر وهو في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين في أول الفقرة، والآخر في آخرها»[1]، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ ﴿٣٧﴾﴾ الأحزاب: ٣٧ وقوله:﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ نوح: 10، وفي النظم أن يكون أحدهما في آخر بيت والآخر في صدر المصراع الأول أو آخره أو صدر الثاني كقول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي النّدى بسريع[2].

وعليه فرد العجز على الصدر أو (الترديد) يعزز علاقة البداية بالنهاية، فالبدايات تدل على النهايات، والنهايات تدل على البدايات. وقد تنبه عبد القاهر الجرجاني إلى قيمة هذا الفن ودوره في ربط أجزاء النص وذلك في تحليله لقوله تعالى:﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾ نجد فيه التفاته إلى مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ(قيل) في الفاتحة. وحين نرجع إلى تحليل ابن أبي الأصبع للآيات عينها نجد فيه أيضا التفاتا إلى رد عجز هذه الآية على صدر آية أخرى سابقة حيث يقول ابن أبي الأصبع: «فإن قيل لفظة(القوم) زائدة تمنع الآية من أن توصف بالمساواة؛ لأنها إذا طرحت استقل الكلام

(1)- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط2، 1978، ص392.

(2)- المرجع نفسه: ص393.

بدونها، بحيث يقال: ﴿وقيل بعدا للظالمين﴾ قلت: لا يستغني الكلام عنها؛ وذلك أنه لما قال سبحانه في أول القصة: ﴿..وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ...﴿٣٨﴾هود: 38، ﴿ وقال بعد ذلك: ﴿...تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾هود: 37، جاءت لفظة (القوم) في آخر القصة ووصفهم بالظلم ليرتد عجز الكلام على صدره، ويعلم أن القوم الذين هلكوا بالطوفان هم الذين كانوا يسخرون من نوح عليه السلام، فهم مستحقون العقاب لئلا يتوهم ضعيف أن الطوفان لعمومه ربما أهلك من لا يستحق الهلاك، لإخبر الله سبحانه وتعالى أن الهالكين هم الذين تقدم ذكرهم، وما كانوا يفعلونه مع نبيه من السخرية التي استحقوا بها الهلاك، وأنهم الذين وصفهم بالظلم، ووعد نبيه بإغراقهم، ونهاه عن مخاطبته فيهم، ليرتفع ذلك الاحتمال فيعلم أن اله سبحانه قد أنجز نبيه وعده، وأهلك القوم الظالمين الذين ذكرهم ووصفهم ووعد بإغراقهم»[1].

ب-2. تشابه الأطراف:

ومن فنون البديع كذلك لدى أهل البلاغة **تشابه الأطراف** وقد عرف عندهم باحتوائه على قسمين: معنوي وآخر لفظي. والمعنوي هو أن يختم المتكلم كلامه بما يناسب ابتداءه في المعنى، كقول الشاعر:

ألذُّ مـــن السّحـــر الحـلال حديثه وأعـــذبُ مـــن ماء الغمامة ريقهُ.

فالريق يناسب اللذة في أول البيت. أما اللفظي فنوعان: أولهما أن ينظر الناظم أو الناثر إلى لفظة وقعت في آخر المصراع الأول أو الجملة فيبدأ بها المصراع الثاني أو الجملة الثانية كقوله تعالى: ﴿..مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ...﴿٣٥﴾﴾النور: 35، وكقول أبي تمام[2]:

(1)- ينظر: عبد المجيد، جميل: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص98.

(2)- ينظر: الهاشمي، السيد أحمد:جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ت.ط)

هوى كان خِلساً إنّ من أبرَدِ الهوى هوىً جُلتَ في أفيانه وهو خاملُ.

أما الثاني أن يعيد الناظم لفظة القافية من كل بيت في أول البيت الذي يليه، كقول الشاعر:

رمتني وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس رميمُ

رميم التي قالت لجيران بيتها ضمنتُ لكم ألا يزال يهيمُ

وقد علق الجاحظ على هذه الأبيات وجعلها في من قبيل«الشعر المتلاحم الأجزاء، والذي بهذا التلاحم يعلم أنه أفرغ إفراغا جيدا، وسبك سبكا واحدا»[1].

ويتضح من الأمثلة السابقة أن تشابه الأطراف يتجاوز مستوى الجملة والبيت وإحكام الربط بين أجزائهما، وهو ما دفع ابن معصوم إلى الاعتراف باقتدار الشاعر وطول باعه في الصناعة الشعرية إذا لزم هذا الفن في نظمه بقوله:«وفي هذا النوع أعني تشابه الأطراف، دلالة على قوة عارضة الشاعر وتصرفه في الكلام، وإطاعة الألفاظ له، ولا يخلو ذلك مع ذلك من حسن موقع في السمع والطبع، فإن معنى الشعر يرتبط ويتلاحم به، حتى كان معنى البيتين أو الثلاثة معنى واحدا»[2].

وفي قول الجاحظ وابن معصوم ما يعبر عن قيمة هذا الفن ودوره في اتساق الكلام وانسجامه، فالجاحظ ذكر تلاحم الأجزاء والسبك الجيد حتى يصير الكلام على سمت واحد وكأنه أفرغ إفراغا، أما ابن معصوم فقد ذكر الارتباط والتلاحم وشدة اتصال معاني الأبيات بعضها ببعض، ولا جرم أن هذا الاتصال الذي ألاح إليه في حديثه يقوي انسجام النص وترابط أجزائه.

ب-3. المطابقة (التضاد):

بعد الفنين السابقين (رد العجز على الصدر) و(تشابه الأطراف) يأتي الحديث عن فن بديعي أثير لا يخلو نص منه، وهو فن **المطابقة** أو **التضاد** أو

(1)- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، (د .ت).

(2)- ينظر: عبد المجيد، جميل: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص100.

الطباق، وهي لدى البلاغيين تتلخص في «الجمع بين متضادين أي معنيين متقابلين في الجملة، ويكون بلفظين من نوع اسمين نحو: وتحسبهم أيقاظا وهم رقود، أو فعلين نحو يحي ويميت، أو حرفين نحو: لها ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت، أو من نوعين نحو: أومن كان ميتا فأحييناه»[1].

وواضح أن هذا الفن يعد وسيلة من وسائل الربط بين الجمل والمتتاليات النصية وذلك عن طريق استحضار الشيء وضده على نحو يعزز ارتباطها، وهذا النوع من المطابقة يختص بمصطلح (طباق الإيجاب)، ففي الأمثلة السابقة نقع على ألفاظ يصحب أحدها الآخر: أيقاظ/رقود، يحي/يميت، لها/عليها، وبفعل هذا التباين يحدث التحام الجمل وترابطها مثل قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ...﴿٢٦﴾﴾ آل عمران:26.

ومن التضاد ما يتسع حتى يشمل آيات عديدة تترابط ببعضها ببعض، فيحدث ذلك انسجاما بين معانيها، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟﴾ الملك: 12 – 15 ، بعد قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ۖ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ الملك: 8 - 11، وذلك أنه لما ذكر حال أصحاب النار وجوابهم خزنة النار واعترافهم بذنبهم أتبعهم أضدادهم المطوعين أنفسهم لإشارة العقل المتأهلين لنعت المعرفة، فقال مؤكدا لما للأضداد من التكذيب: ﴿إن الذين يخشون﴾ أي يخافون خوفا أرق قلوبهم وأرق بحيث كانوا الحب على المقلى لا يقر لهم قرار من توقعهم العقوبة، كلما ازدادوا طاعة ازدادوا خشية.

(1)- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة، ص348.

ب-4. الجمع مع التقسيم:

الجمع مع التقسيم هو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر تحت حكم واحد، ثم يقسم ما جمع أو يقسم أولا ثم يجمع، فالأول نحو:﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضي عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾ (الزمر:42) وكقول المتنبي:

حتى أقام على أرباض خرشنة تشقى به الروم والصلبان والبيعُ

للرق ما نسلوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وكقول حسان بن ثابت[1]:

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا.

سجية تلك فيهم غير محدثة إنّ» الخلائق فاعلم شرها البدعُ.

والجمع مع التقسيم يضاهي علاقة الإجمال والتفصيل، وهو رابط دلالي يسهم في حبك النص، وأمثلته كثيرة في القرآن ومنها قوله تعالى:﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ الرعد:4وذلك بعد قول المولى سبحانه﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣﴾الرعد: 3، فبعد أن ذكر الله آيات السماوات ثنى بها آيات الأرض، وبدأها بمدّ الأرض وجعل الرواسي من الجبال ثابتة باقية، ثم ذكر الأنهار وما ينشأ عن مياهها من الثمرات وما ينضجها من حرّ وبرد بتعاقب الليل والنهار، وختم بالحث على التفكر في كل ذلك والتنقيب عن مسببها للوصول إلى الصانع القدير والمدبر الحكيم، ثم لما كان ما ذُكرَ في هذه الآية دليلا على إحكام الصنعة وعظيم القدرة والتدبير مع وضوحه يعتريه بعض الغموض، شرع في تفصيل ما في الأرض من الآيات التي هي أبين من ذلك دليلا ظاهرا جدا فأتت الآية الموالية لهذا الغرض.

---

(1)- الهاشمي، السيد أحمد:جواهر البلاغة، ص312.

ومن التفصيل ما يكون عن طريق النشر المشوش وذلك في قول الله -عز وجل-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾الجاثية:30 - 31 وذلك بعد آيات سابقات تحدث فيها المولى –تقدست أسماؤه- عن المبطلين في الآية:﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾الجاثية:27. ونكرانهم البعث واحتجاجهم لذلك، وذكر الله على الإحياء والموت والبعث وتفرده بملك السماوات والأرض، وأن لا شيء يخرج عن أمره وقضائه فتحقق خسرانهم، وأشار قبل ذلك إلى أن الإسلام شريعة عالية الرتبة وأنه ألزم متبعيها وإمامهم أن يمضوا فيها بغاية الجهد، وأن لا يتبعوا أهواء من لا علم له، فصرح بما لوح إليه من أمر المهتدين المحقين وعطف عليهم أضدادهم، فقال بادئا بهم على طريق النشر المشوش مفصلا: ﴿فأما الذين آمنوا﴾.

ب-5. مراعاة النظير:

هذا الفن من فنون البديع يعني الجمع بين أمرين أو أمور متناسبة لا على جهة التضاد، وذلك إما بين اثنين نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾الشورى: 11، وإما بين أكثر من ذلك نحو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾البقرة: 16. ويلحق بمراعاة النظير ما بني على المناسبة في المعنى بين طرفي الكلام، ويعني ذلك أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى نحو قول المولى سبحانه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾الأنعام: 103، فإن اللطيف يناسب عدم إدراك الأبصار له، والخبير يناسب إدراكه سبحانه وتعالى للأبصار[1].

أو ما بني على المناسبة في اللفظ باعتبار معنى له غير المعنى المقصود في العبارة نحو قوله تعالى:﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ

(1)- المرجع السابق، ص304.

﴿٦﴾الرحمن: 5 - 6 فإن المراد بالنجم هنا النبات فلا يناسب الشمس والقمر، ولكن لفظه يناسبهما باعتبار دلالته على الكواكب، وهذا يقال له «إيهام السامع» كقوله:

كأنّ الثّريا علقت على جبينها وفي نحرها الشّعرى وفي حدها القمرُ.[1]

وهذا الضرب من المناسبة بين أطراف الكلام كان مثار النقاش والجدل ومثل ذلك ما أثير حول بيتي المتنبي:

وقفت وما في الموت شكّ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائمُ

تمرُّ بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضّاح وثغرك باسمُ

وقد أوخذ المتنبي على ذلك وقيل لو جعل آخر البيت آخرا للبيت الثاني، وآخر البيت الثاني آخر البيت الأول لكان أولى.

ب6-. حسن التخلص:

حسن التخلص فن لطيف من فنون البديع ومعناه أن«ينقلَ ما ابتدئَ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما»[2].

ومن ذلك قوله تعالى حاكيا قول سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾الشعراء: 87 ، وهو تتمة تضرع إبراهيم إلى ربه، فتخلص منه إلى وصف المعاذ في الآية التالية:﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ ليرهب المشركين الذين يخاطبهم عقب اتهامهم له بتكسير أصنامهم. وفي سورة الكهف مثل ذلك حين حكى قول ذي القرنين عن السد: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾الكهف: 98 ، فقد تخلص من ذلك

(1)- المرجع نفسه، ص305.

(2)- السيوطي، جلال الدين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر،1973، ص 61.

إلى وصف حالهم بعد أن ذكر ما هو من شروط الساعة، ثم النفخ في الصور، وذكر الحشر، ووصف حال الكفار والمؤمنين[1].

وشبيهه الاستطراد وهو كما عرفه ابن أبي الأصبع: « الخروج من معنى إلى آخر»[2] يتصل بالمعنى الأول ويعمقه وليس مجرد خروج، كما في قوله تعالى:﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾الأعراف: 26. ويورد السيوطي تعليق الزمخشري على هذه الآية:« هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدوّ السوءات، وخصف الورق عليها، إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العراء وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى»[3] فالاستطراد يلفت انتباه الإنسان إلى الستر المعنوي الذي يجب أن يعمق ستره المادي.

غير أن الفرق بين «حسن التخلص» و «الاستطراد» يتمثل في أنك في الأول تترك ما كنت فيه بالكلية، وتقبل على ما تخلصت عليه، وفي الاستطراد تمر بذكر الأمر الذي استطردت إليه مرورا كالبرق الخاطف ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه، كأنك لم تقصده وإنما عرض عروضا، لكن كلا الفنين يحققان التحام أجزاء الكلام وانسجام المعاني فيهما [4].

هذا وبعد التطواف في مباحث علمي المعاني والبديع يمكن القول أنها توشك أن تستوعب المقولات الأساسية للسانيات النص ونظريات تحليل

---

(1)- عيد، محمد: النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2009، ص 62.

(2)- ابن أبي الأصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة، مصر،ط1، 1995، ص 130.

(3)- السيوطي، جلال الدين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ص59.

(4)- ينظر: المرجع نفسه، ص61.

الخطاب، وعليه نحن أمام أفق معرفي يحمل في ثناياه نضارة مشرقة لا يخفى نورها على الألباب، وينطوي على ثراء نوعي يؤتينا من الإمكانيات ما يشجع على التحاور الفعّال مع ما تطرحه النظريات الغربية من اتجاهات جديدة في البحث البلاغي.

*** المراجع والمصادر:

1- ابن أبي الأصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة، مصر،ط1، 1995.

2- البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995.

3- التفتازاني، سعد الدين: تهذيب السعد، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، مصر، ط3، 1980.

4- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، (د .ت).

5- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر (د.ت).

6- الجزري، ابن الأثير: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح: مصطفى جواد وجميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، ط1، 1956.

7- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط4، 1990.

8- دوبوجراند: النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط 1، 1998.

9- الرازي، فخر الدين: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح: محمد زغلول سلام ومصطفى هدارة، الإسكندرية، مصر، ط1، 1974.

10- الزجاجي، عبد الرحمن بن إسحاق: الجمل في النحو، تح: علي الحمد، مؤسسة الرسالة، عمان، الأردن، ط1، 1984.

11- الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2009.

12- الزمخشري، جار الله: الكشاف، تحقيق: شوقي المعري ومزيد نعيم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

13- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط3، 1983.

14- السيوطي، جلال الدين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر،1973.

15- عبد المجيد، جميل: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1998.

16- عيد، محمد: النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2009.

17- فان ديك، توين: علم النص،: مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2001.

18- فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية للنشر لونجمان، الجيزة،مصر، ط1، 1996.

19- الفقي، صبحي إبراهيم: علم لغة النص بين النظرية والتطبيق – دراسة تطبيقية على السور المكية-، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2000.

20- القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986.

21- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط2، 1978.

22- اللبدي، سمير: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1985.

23- المبرد، محمد بن يزيد: المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (د.ت.ط).

24- أبو المكارم، علي: الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007.

25- الهاشمي، السيد أحمد:جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ت.ط).

البعد النصي في النحو العربي من خلال كتاب المقتصد لعبد القاهر الجرجاني

أ.خديجة بوساحة
جامعة الجزائر2

ملخص:

تدخل هذه الدراسة في إطار القراءة المتجددة للتراث اللغوي العربي في بعد تحليلي جديد نسبيا هو البعد النصي، هادفة إلى كشف الإشارات النصية في النحو العربي من خلال أثر من آثاره هو المقتصد للجرجاني، وقد احتوت على تحليل مفصل للمعطيات النصية للجرجاني في دلائله و مقتصده، كل ذلك مصحوب بإضاءات نصية معاصرة.

وقد تمثل السؤال الجوهري لهذه الدراسة في: هل كان للجرجاني نظرة نصية للتركيب النحوي كما كانت له في تحليلاته البلاغية من خلال كتابه دلائل الإعجاز ؟

الكلمات المفتاحية: لسانيات النص، البلاغة العربية، النحو العربي.

مقدمة:

ظهر منهج لساني في نهاية الستينيات من القرن العشرين يعنى بدراسة بنية النصوص وكيفيات اشتغالها، أطلق عليه بعض اللغويين اسم «نحو النص»، وأسماه البعض الآخر» «اللسانيات النصية» انطلاقا من أن النص ليس ملفوظا من حجم معين مكتوب، وليس مجرد جمل متتابعة، وإنما هو وحدة لغوية نوعية ميزتها الأساس الاتساق والترابط، ويقول أحمد عفيفي عن مصطلح علم النص بأنه « واحد من المصطلحات التي حددت لنفسها

هدفا واحدا، وهو الوصف والدراسة اللغوية للأبنية النصية، وتحليل المظاهر المتنوعة لأشكال التواصل النصي »[1].

إن أهم ما تعالجه لسانيات النص، هي قضية السياق ودراسة الظواهر التي تحقق التواصل، وكذا الأدوات اللغوية التي تضمن للنص ترابطه وانسجامه، أي دراسة مختلف العلاقات بين الجمل،والنظر في مدى انتظام هذه العلاقات، وهذا ما يجعل من النص كلا مترابطا منسجما ،وهذه العوامل مجتمعة تمثل ما يسميه علماء النص ب النصية ،ودي بوجراند من أوائل العلماء الذين حددوا وبدقة متناهية هذه المقومات التي يتميز بها النص عن اللانص باقتراحه ستة معايير شاملة لكل تعاريف النص على اختلافها ،حيث يقول :«وأنا أقترح المعايير التالية لجعل النصية أساسا مشروعا لإيجاد النصوص واستعمالها »[2].

وأما هذه المعايير[3] فهي :

- الاتساق Cohesion
- الانسجام Cohérence
- المقصدية Intentionnalité
- المقبولية Acceptabilité
- السياق Contexte
- التناصIntertextualité

وهذا يدل على أن النص ليس تركيبا لغويا عشوائيا ، وإنما هو بناء متين يخضع لمعايير عدة، منها ما يتصل بمنتجه أو بمتلقيه أو بسياقه، ومنها ما

(1)-أحمد عفيفي ، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ، مكتبة زهراء الشرق ، 2001، ص.31.

(2)-دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، تر: تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة، 1998، ص.103.

(3)-المرجع نفسه ، ص.104 - 103

يتصل بالنص ذاته، وأن أي إخلال بأحد هذه المعايير يؤدي إلى اختلال بهذا البناء لفقدان أحد مقومات ترابطه وانسجامه .

إن الدعوة إلى العناية بالبعد النصي ليست وليدة الأمس القريب، فقد أكد لغويي النصف الأول من القرن العشرين على ضرورة التأسيس لعلم يدرس النص أو الخطاب ،منهم اللغوي لويس هلمسليف، وجاكبسون وغيرهم، إلا أن هذه الدعوات لم تجد طريقها إلى التطبيق إلا مع هاريس في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، وبعد ذلك (في السبعينات) عرفت الدراسات المهتمة بالبعد النصي تطورا وضبطا، وخاصة عند فان دايك في كتابه « بعض مظاهر النص» و «النص والسياق» و «علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات» مما جعل بعض اللغويين يرى فيه المؤسس الحقيقي لعلم النص.

ومن ثمة بلغت الدراسات النصية أوجها مع اللغوي الأمريكي دي بوجراند في الثمانينات من القرن العشرين، صاحب كتاب " النص والخطاب والإجراء " (text, disciure and process) وهكذا وككل علم جديد، لابد فيه من تظافر الجهود لكي يستقيم منهجه ويبلغ الاكتمال ليصبح علما قائما بذاته، إذ طبيعة أي علم كما هو معلوم تراكمية .

غير أن السؤال المطروح هنا هو: ما الداعي إلى قيام هذه الدراسة اللغوية؟ بمعنى آخر ماهي الأسباب أو العوامل التي أدت إلى تجاوز نحو الجملة إلى نحو النص؟

من الأسباب التي دعت إلى الانتقال بالبحث إلى مستويات تتجاوز الجملة، هي أن التواصل بين المتكلمين لا يتم باستعمال كلمات معزولة، ولا بجمل أو عبارات، وإنما يتأتى ذلك من خلال إنجاز كلامي أوسع متمثل في النص، فالاتصال « لا يتم بواسطة وصف الوحدات الصغرى صوتية وصرفية،ولا بعرض الوحدات النحوية، وإنما يتم باستعمال اللغة في موقف أدائي حقيقي،أي بإنشاء نص ما، وقد يطول هذا النص ويقصر »[1].

(1)-دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ص4

ومن الأسباب أيضا أن تحديد بعض الوحدات اللغوية مثلا الإشارية منها،لا يمكن أن يتم إذا وقفنا بالدراسة عند حدود الجملة، إذ يجب فيها الرجوع إلى مقام التلفظ.

وأيضا لإغراق نحو الجملة في الشكلية بسبب إبعاده دراسة المعنى ، واعتبار اللغة نظاما مغلقا .

ترتب عن كل هذا ظهور دعوات تنادي بتجاوز نحو الجملة والتأسيس لنحو أشمل يستوعب بالدراسة وحدات لغوية أكبر من الجملة، وهكذا ظهر نحو للنص هدفه الكشف عن القواعد البانية لمختلف النصوص، وعن المعايير التي تميز النص عن اللانص.

وهذا الطرح الجديد لا يدعو إلى إقصاء نحو الجملة لأنها نواة النص كما أن الحرف نواة الكلمة والكلمة نواة الجملة،ولأن النص عبارة عن متتاليات من الجمل في الأغلب ،بصرف النظر عن أن يكون متمثلا في جملة واحدة أو كلمة واحدة.

ومن هنا يمكننا التساؤل :هل يوجد في النحو العربي ملامح نصية؟

لو أننا عدنا إلى الدراسات العربية القديمة لوجدنا أنها تواجه وحدة لغوية أكبر من الجملة، ولوجدنا أنه يزخر بالموضوعات المتصلة بعلم النص أولنقل بملامح نصية في كل من البلاغة والنقد والتفسير... وتختلف هذه المباحث في أنواع الخطاب التي تواجهه، فالبلاغة مثلا تتعامل مع الخطبة والشعر والقرآن، ويهتم النقد الأدبي بالشعر أساسا، إذ يعنى بشروط اتصال الأغراض بعضها ببعض وله نظرات بالغة الأهمية عن كيفية تماسك القصيدة جزءا جزءا، ومايلفت الانتباه حقا وجود نصوص نقدية تحتوي على إشارات مرتبطة بمفهوم الانسجام مثل التآخذ والاتساق .

أما بالنسبة لمبحث التفسير فقد عمل المفسرون على دراسة العلاقات الخفية بين الآيات المقطوعة الصلة عما قبلها كما درسوا العلاقات بين الآيات

المتجاورة، فبرغم من أن القرآن نزل في أوقات وأمكنة ومناسبات مختلفة إلا أنهم أثبتوا وأكدوا بأنه كلمة واحدة.

وبالرغم من اختلاف هذه المباحث في أنواع الخطاب إلا أنهم جميعا يشتركون في اهتمامهم بتحديد المظاهر الخطابية والتي تدل على وعيهم بتماسك الخطاب وترابط أجزائه بعضه ببعض.

وقد كُتب في هذا الموضوع تأصيلا وتأسيسا وتجاوزا دراسات عدة ، لعل أبرزها دراسة محمد الشاوش الموسومة ب أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، وقد طرح فيها إشكالية تأصيل المفاهيم والمصطلحات اللسانية النصية في التراث، ودراسة محمد خطابي الموسومة ب لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب...

ولو أننا وجهنا اهتمامنا إلى البلاغة العربية لوجدنا بأن البلاغيين قد أولوا عناية بمظاهر بلاغية لها أهمية بالغة في تماسك الخطاب وترابط أجزائه بعضه ببعض من فصل ووصل وتمثيل ومطابقة وغيرها .

ومن بين هؤلاء البلاغيين عبد القاهر الجرجاني الذي زخر كتابه الدلائل بممارسات نصية، وهذه الممارسات استوقفتنا لطرح الإشكالية التالية :

هل سيتجاوز الجرجاني مهمة النحو التقليدي التي تقوم على التنظير للجملة مستقلة عما عداها من جمل، لينتقل إلى تحليلات نصية تقوم على مجاوزة الدراسة على الجملة الواحدة ؟

هل نجد عنده تفطنا للوسائل والأدوات التي تجعل النص متسقا متلاحما مثل الإحالة بنوعيها والربط والحذف والتكرار ؟

ونهدف من وراء هذه الورقة البحثية الوقوف على رافد جديد يُعنى بعلم النص ألا وهو الرافد النحوي، وكذلك النظر في أصول التراث العربي للاستفادة منه في تأسيس علم نص عربي يحلل نصوصا عربية فضلا عن لوي أعناقها تطويعا لأدوات تحليل النصوص الغربية.

1التحليلات النصية للجرجاني في كتابه الدلائل :

توجب علينا قبل الشروع في استكشاف المبادئ النصية في كتاب المقتصد للجرجاني على ضوء الأسئلة الجوهرية أن نعرض بتركيز واختصار لأهم أراء الجرجاني النصية في كتابه البلاغي « الدلائل « محاولين بذلك التعرف على جذور التحليل النصي في التراث العربي لتأسيس علم نص عربي .

لقد تفطن الجرجاني إلى أن اللغة ليست مجموعة من العلامات: أي أنها ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة الروابط التي نقيمها بين الأشياء بفضل الأدوات اللغوية ،ويؤيد ذلك قوله: «اعلم أن ها هنا أصلا أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر،وهي أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ،ولكن لأن يُضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد ...وهذا علم شريف وأصل عظيم»[1].

وبالرغم من رأيه هذا إلا أنه لا يُقصي اللفظ أو لا يوليه عناية،بل يعطيه بعدا آخر ،مما جعله يقدم لنا الجديد الذي تمثل في رفضه فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى التي كانت سائدة في زمنه،ورفضه أن تكون المزية متعلقة بأي منهما دون الآخر ،ونظر إلى المزية على أنها « متعلقة بالمجموع المتآلف منهما، أي بالتركيب أو النظم »[2]، وجعل من التعليق مبدأ مهما من مبادئ النظم و من أهم سماته، وهو ما يطلق عليه مصطلح التماسك أو الاتساق في لسانيات النص...ويؤيد ما قلناه ويوضحه قوله: «أنّا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنّا نجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقا معناها بمعنى مايليها »[3].

(1)-عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحق:ياسين الأيوبي ،المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ،ط1 ،2000 ،ص.495.

(2)عبد الواسع أحمد الحميري ،شعرية الخطاب في التراث النقدي والبلاغي ،مجد المؤسسة الجامعية للدراسات ،الحمرا ، بيروت ،2005 ،ص.83.

(3)الجرجاني ،دلائل الإعجاز ،ص.381

فها هنا نلحظ بداية أول درجات التماسك النصي ،المتمثل في أن لكل كلمة مع أختها تعالقا، وإذا ضاع هذا التعالق اختل توازن بناء تماسك نص ما .

نخلص إلى أن نظرية النظم للجرجاني تهتم بمراعاة العلائق بين الكلم على أساس من التناسب والانسجام والمواءمة ،إذ يقول: « واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك ،علمت علما لا يعترضه شك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب ،حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك... وننظر إلى التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها وما معناه وما محصوله »[1].

وهذا عكس ما كان يراه من كان في زمانه إذ كانوا يتناولون الأدب من أدنى منازله وأقل جزئياته وهي الصوت والمقطع ثم اللفظة المفردة، لكن الجرجاني نظر نظرة لا تعرف إلا الكل نظما مستوي الأجزاء كامل الصفات، وينكر مكان الجزء إنكارا واضحا، ويصرح بأن هذا الجزء لوحده لا أثر له في بناء العمل الأدبي، إذ الكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخول التأليف، وقبل أن تصير مع أخواتها في إفادة غرض من الأغراض من إخبار ونهي وأمر واستخبار وتعجب .

وبذلك فالجرجاني على حد قول المهيري خرج في حديثه عن الإعجاز من بلاغة الجملة إلى بلاغة السياق؛ أي أنه بدلا من أن يلجأ إلى تفكيك الكلام للوقوف على معنى الجملة، نظر إليها نظرة شمولية، إذ هي جزء من كل يجب النظر إليه تبعا لمقتضيات الاتصال والسياق، ورأيه هذا يلتقي بوجهة النظر التي أتت بها لسانيات النص وتحاول إقناع الآخرين بها، وهي «توجيه الاهتمام من الجملة البنية الصغرى إلى سياق البنية الكبرى »[2].

ومن تحليلاته النصية القريبة من اللسانيات النصية قوله :«وهل تشك إذ فكرت في قوله تعالى :﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ

(1)المرجع نفسه ،ص.106 .

(2)إبراهيم خليل ،اللسانيات ونحو النص ، دار المسيرة ، ط1،2007 ،ص.214 .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ هود: 44 ، فتجلى لك منها الإعجاز لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة؟ وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها، ثم مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة ومابين الألفاظ من الاتساق العجيب »[1]

فتلاحظ هنا حديثه عن الارتباط والاتساق، وكذا ربطه بين قيل من أول النص وقيل في آخره ،وهذا كله يصب في صميم علم النص، ثم هو أخيرا يعالج نصا لا جملة واحدة ولا كلمة واحدة ،وهذا ميدان الدراسات النصية .

ومن تحليلاته النصية أيضا نظرته إلى القرآن الكريم نظرة كلية باعتباره نصا واحدا، وذلك بعرضه سؤالا مؤداه : مالذي أعجز العرب من النص القرآني ؟

وقد أجاب بأنهم « تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينوبها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى أو أخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، واتقانا وإحكاما »[2].

نلاحظ هنا بأنه قد ذكر أمورا تتعلق بالتحليل النصي، وأولها النظرة الكلية باعتبار النص الوحدة الكبرى في التحليل، وثانيها ذكره لمصطلحات علماء النص الحديثين، مثل الاتساق الذي يقابل عند المحدثين مصطلح cohérence الذي يرتبط بالجوانب الشكلية المكونة لبنية النص .

ولكن الجرجاني لم يقف عند حد التماسك الشكلي فقط بل تعداه بتطرقه إلى التماسك الدلالي (الانسجام) ويؤيد ذلك قوله في أن نظم الكلمات في النص «يقتفي فيه آثار المعاني، وترتيبها في الكلام حسب ترتيبها في النفس، هو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، نظيرا للنسيج والتأليف

(1)الجرجاني ،دلائل الإعجاز ،ص.99 .

(2)المرجع نفسه ،ص.94 .

والبناء وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض .والفائدة من معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل تناسقت دلالتها ...»[1].

ويشرح في نص آخر معنى التماسك بصورة تكاد تكون أوضح من شرحها في العصر الحديث، فيقول: « واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توخي المعاني أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان فيها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هنالك، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين »[2].

ولتبيين مبدأ التماسك النصي قام بتحليل آية كريمة مكونة من متتاليات جملية متعاونة لتكوين وجه شبه واحد ذو طبيعة قصصية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾يونس: 24. يوضح الجرجاني في تحليله لهاته الآية الكريمة أن الوصف التشبيهي لحال الدنيا تجسد في عشر جمل، وأن هذا الشبه « منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة، من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه »[3].

---

(1)المرجع نفسه ،ص.102

(2)المرجع نفسه ،ص.137

(3)عبد القاهر الجرجاني ،أسرار العربية ،المكتبة العصرية ، بيروت ،ط1،1998 ،ص.83 .

أي أن الشبه بين الحياة والماء وما تعلق به متأت من مجموع الجمل ، فلو حذف منها جملة واحدة كان ذلك مخلا للمعنى، فالجزء لايعني شيئا إلا بانتظامه في الكل، فهذا الانتظام هو الذي يصنع التمثيل، « فالتمثيل آلة لنسج خيوط خطاب ما مكون من عدة أجزاء »[1]. إذ تشير هذه الآية الكريمة إلى ثلاث مراحل يستحيل حذف إحداها وإلا اختل المعنى وهي :

- نزول الماء من السماء ومانتج عنه من اختلاط نبات الأرض به.
- اتخاذ الزينة الناتج عن المرحلة الأولى وما أعقب ذلك من إعجاب الناس بها واعتقاد دوامها.
- الإتيان عليها وجعها في خبر كان.

«فبدون هذه المراحل الثلاث لن يستقيم التمثيل كما أن طريقة إخراج الخطاب، من حيث التركيب يجعل كل مرحلة متعلقة بالأخرى: فاختلط، حتى إذا، وظن أهلها ...، بحيث تقتضي الجمل المفتتحة بهذه الأدوات ما يتمم المعنى »[2]. وهذا ينم على تفطنه أيضا إلى ترتيب الخطاب الذي له أهمية بالغة في انسجام الخطاب .

وبذلك نصل إلى أن التمثيل يساهم في انسجام النص لأنه يُنتج من مجموعة جمل متداخلة متعلق بعضها ببعض، وكذلك من خلال الترتيب المنسق، وهذا ملمح نصي بارز يُحسب للجرجاني .

ومن الأدوات النصية التي تفطن لها الجرجاني الإحالة التي عرض لها عرضا سريعا ،عندما مثل بقولهم: جاءني زيد وهو مسرع فهي من حيث الدلالة واللفظ نظير قولهم جاءني زيد وزيد مسرع .

وقد وضح بأن الضمير هو أغنى عن تكرير زيد ، وها هو ذا نصه « ذلك أنك إذا أعدت ذكر زيد، فجئت بضميره المنفصل المرفوع، كان بمنزلة أن تعيد

---

(1)محمد خطابي ،لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ،المركز الثقافي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط2006،2 ،ص.127 .

(2)المرجع نفسه ،ص.128 .

اسما صريحا كأنك تقول جاءني زيد وزيد مسرع »[1]، وهو شبيه جدا بمثال هالياداي ورقية حسن « اغسل ، وانتزع نوى ست تفاحات ، ثم ضعها في طبق مقاوم للنار »[2].

وله في لام التعريف رأي إذ يرى فيها أداة تتجاوز ما يراه النحاة من تحويلها النكرة إلى معرفة فهي تربط بين الجمل من حيث أنها تذكر السامع أو القارئ بشيء سبق ذكره، أو شيء معروف في الذهن جرى الكلام عليه أو الإشارة له في السياق، وقد أورد أمثلة منها المثالين التاليين :[3]

إِنْ كَانَ يَحْسُدُ نَفْسَهُ أَحَدٌ ...فَلَأَزْعُمَنَّكَ ذَلِكَ الْأَحَدَا (الكامل الأحذ)

وأيضا قول ابن البواب :

وَإِنْ قَتَلَ الْهَوَى رَجُلاً ... فَإِنِّي ذَلِكَ الرَّجُلُ(مجزوء الوافر)

وجمع اسم الإشارة ولام التعريف يزيد من تماسك البيتين، وعلى حد قول الجرجاني إنهما من مظاهر الإحسان والإجادة فيه.

وقد عرض أيضا إلى الربط بالموصول، إذ الاسم الموصول من الأدوات التي تحقق التلاحم بين ما تقدم ذكره والعلم به، وما يراد من المتكلم أن يعلم به، أو يضمه إلى ما سبق من العلم به، ويوضح الجرجاني ذلك بقوله : « أن الاسم الموصول يربط بين شيئين كقول القائل : مررت بزيد الذي أبوه منطلق، فقد وصل الاسم الذي بين الخبرين، المرور بزيد وكون المنطلق أباه »[4].

ومثل له أيضا ب « ما فعل الرجل الذي كان عندك بالأمس ؟ »[5] . وهي جملة مكونة من :

1- فعل الرجل

2 -الرجل كان عندك بالأمس .

(1)الجرجاني ، دلائل الإعجاز ،ص.255 .

(2)نقلا عن محمد خطابي ، لسانيات النص ،ص.14 .

(3)الجرجاني ،دلائل الإعجاز،ص.135 .

(4)المرجع نفسه ،ص.219 .

(5)المرجع نفسه ،ص.219 .

وقد أضيف إلى الأولى مكون نحوي هو ما الذي حول الجملة من الإثبات إلى الاستفهام، وفي الثانية استبدل الاسم الموصول بالاسم الظاهر الرجل ،وبم أن الرجل ذكر في الأولى فأصبح بذلك معروفا، فجاز أن يحل الاسم الموصول مكانه، فصار بذلك شبيها بالضمير الذي يحل مكان الاسم الظاهر .

نلاحظ مما سبق أن الجرجاني يرى الاسم الموصول ضربا من التعريف تارة وتارة ضربا من الإحالة بالضمير، وتلك لفتة ذكية اختص بها .

وبعد استيفائنا لكتاب الدلائل وعرضنا لأهم أراء الجرجاني النصية فيه، ننتقل إلى كتاب المقتصد محاولين الكشف عن أهم السمات النصية التي أشار إليها، والتأصيل لها ،وإن لم تكن واضحة نحاول استنباطها انطلاقا من مبدأ أن القراءة التراثية لا تسلم من تأويل الباحث لملء بعض الفراغات .

2 - السمات النصية في كتاب المقتصد للجرجاني :

ربط دي بوجراند تحقق النصية بتوفر سبعة معايير مجتمعة لكي نطلق على منتوج لغوي أنه نص مكتمل وهي :

«الاتساق والانسجام والمقصدية والمقبولية والإعلامية والسياق والتناص»[1].

وسنحاول الوقوف هنا على أهم الأدوات التي تسهم في تماسك النص ،والتي تفطن لها الجرجاني في ربط المتتاليات الجملية ،وسينصب اهتمامنا على المعيار الأول (الاتساق)،وسنقتصر عليه لأن التعرض لكل المعايير يمثل **عبئا كبيرا على حجم ورقتنا البحثية .**

1 الاتساق: تدل كلمة اتساق منذ كتاب هاليداي ورقية حسن «على مجموع الوسائل اللسانية الرابطة بين عناصر الجملة وبين الجمل والتي تسمح لملفوظ ماشفوي أوكتابي بأن يبدو في شكل نص »[2].

---

(1)دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ص، 104 - 103.

(2)باتريك شارودو ودومينيك منغنو ، معجم تحليل الخطاب ، تر : عبد القادر المهيري وحمادي صمود ، دار سيناترا ، المركز الوطني للترجمة ، تونس ، 2008، ص.100.

فيعتبربذلك الاتساق من خصائص النص التي تميزه عن الجملة التي «لا تحتاج إلى اتساق كي تكون متماسكة أصلا بحكم تركيبها »[1].

وتبعا لهذه الفرضية حدد ميشال آدم مفهوم النص بأنه « منتوج مترابط، متسق ومنسجم وليس تجاورا عشوائيا لكلمات وجمل وقضايا أو أفعال كلامية »[2]. وهذا التماسك يتحقق من خلال قرائن وأدوات لغوية نحوية ومعجمية .

ولتوضيح مفهوم الاتساق قدم هاليداي ورقية حسن المثال الآتي[3] :

Wash and core six cooking apples .put them in to a fire proof dish.

اغسل وانزع نوى ست تفاحات ،ضعها في صحن يقاوم النار.

يتضح تماسك الجملتين من خلال الوظيفة العائدية للضميرها الذي يشير إلى نوى ست تفاحات، وكذلك يمكن وضع التفاحات مكان ها فتصبح اغسل وانزع نوى ست تفاحات. ضع التفاحات في صحن يقاوم النار، فتتحقق « العلاقة الاتساقية نفسها بواسطة الوحدة المعجمية التفاحات وهذا من خلال إضافة ال التعريف التي تجعلنا ندرك أن الكلام هنا عن التفاحات السابقة الذكروليس عن تفاحات أخرى »[4].

إذن يتحقق الاتساق حسب تقديم هاليداي ورقية حسن بوحدات نحوية ومعجمية تضمن استمرارية النص وتناميه، وقد بلورها مفتاح بن عروس في المخطط الآتي :[5].

(1)فوزية عزوز، المقاربة النصية من تأصيل نظري إلى إجراء تطبيقي ،دار كنوز المعرفة،الأردن ،ط1،2016 ،ص.53.

(2)J.M, Adam, Elements de linguistique textuelle; théorie et pratique de l'analyse textuelle, Margada, 1990, p109.

(3)شريفة بلحوت ، الإحالة دراسة نظرية مع ترجمة الفصلين الأول والثاني من كتاب cohesion in English)) لماك هاليدي ورقية حسن 2006_ 2005.ص.72.

(4)فوزية عزوز، المقاربة النصية ، ص.55 .

(5)مفتاح بن عروس ،حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية،اللغة والأدب ،ع12،ص.434.

أ الاتساق النحوي :

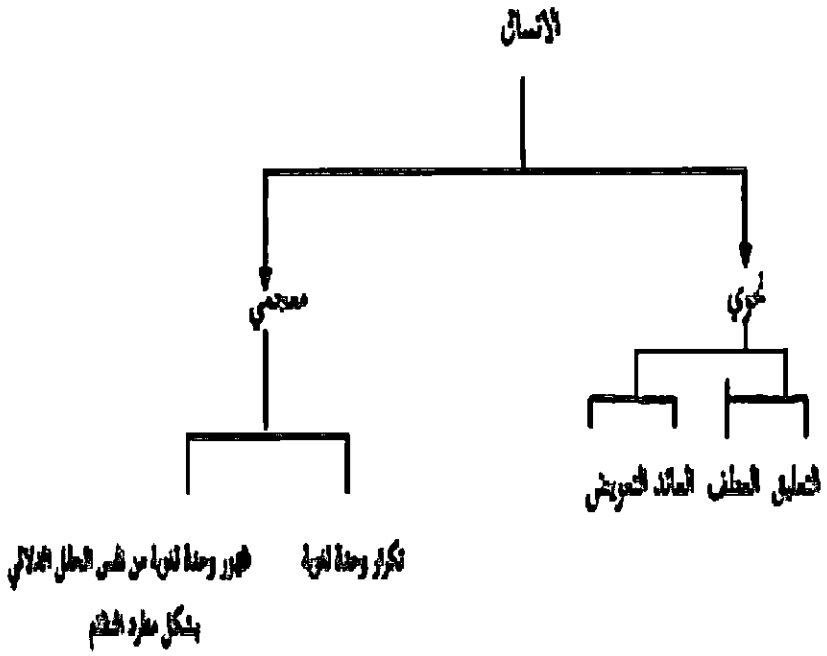

1 الإحالة Référence:

تعد الإحالة من أهم الوسائل التي تحقق للنص التحامه وتماسكه، وتأتي هذه الأهمية، من وجود بعض العناصر اللغوية التي لا تكتفي بذاتها في دلالتها، بل لابد من العودة إلى ما تشير إليه أو تحيل عليه من أجل تأويلها، ويطلق عليها العناصر العائدة، وقد عرفها تنيير بأنها « كلمات فارغة في القاموس ولكنها تمتلئ بمجرد دخولها في علاقة سياقية مع عنصر في جملة ما ، لأن هذا العنصر ينقل إليها مضمونه »[1]، وقد بينها ابن عروس على النحو الآتي[2] :

(1)-Tesniere ,Elements de syntaxe structurale, paris,klincksieck,1966,p,86

(2)مفتاح بن عروس ،الاتساق النصي ،رسالة ماجستير ،جامعة الجزائر ص.13

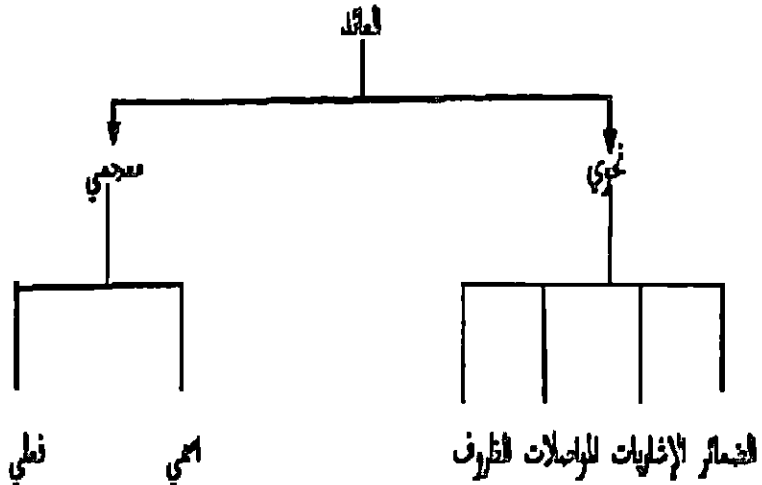

والإحالة نوعان: إحالة خارجية مقامية، وإحالة داخلية نصية، وتنقسم هذه الأخيرة بدورها إلى:

أ - إحالة قبلية: تحيل على عنصر سبق ذكره.

ب- إحالة بعدية :تسير في اتجاه معاكس، إذ تحيل على عنصر لاحق لم يذكر بعد، وبذلك تحقق نمو وتدرج النص .

وقد اختيرت المعارف للإحالة لأنه لايمكن بناء نص على مجهول، وقد تنبه لذلك الجرجاني بقوله: « وأما المضمر فمعرفة من حيث أن الشيء إنما يضمر بعد جري ذكره ومعرفته، تقول زيد ضربته، فتكون الهاء معرفة كزيد، لأنه لا يكون في هذا الكلام إلا له، وهذا هو التعريف»[1]. ويزيد توضيح ذلك بضده فيقول: « ألا ترى أنك إذا قلت: فعل الذي من شأنه كذا ولم تخبره بشيء ولم تعرفه كان محالا »[2].

---

(1)عبد القاهر الجرجاني ،المقتصد شرح الإيضاح، تحق كاظم بحر المرجان ، دار الرشيد العراق ، ,1982ص.917 .

(2)المرجع نفسه ،ص.918 .

1 **الضمير:**

إحالة داخلية:

تنبه الجرجاني إلى الإحالة الداخلية القبلية بقوله: « أن الشيء لا يضمر إلا بعد جري ذكره أو قيام دلالة عليه تتنزل منزلة ذكره، أعني نحو قوله عزوجل: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾(فاطر 45)»[1]، فالضمير ها يحيل إحالة داخلية قبلية على الأرض في الآية التي تسبقها.

وقوله أيضا :« فإن حقيقة الإخبار تنتزع الاسم في الكلام وتضع موضعه ضميرا يعود إلى الذي »[2]، وكذا قوله :« اعلم أنك إذا قلت: زيد منطلق غلاماه، كان الضمير في غلاماه عائدا إلى زيد »[3] ومثل لذلك ب « الذي ضربته زيد، فالذي مبتدأ وضربته صلته، والهاء عائد إليه وزيد خبر، وكذلك قوله عزوجل: ﴿... ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ... ﴿٢٧٥﴾﴾البقرة: 275، وقوله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا... ﴿١٧٥﴾﴾الأعراف: 175 ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾(الأعراف :175)»[4].

وكذا « السمن منوان بدرهم ،منوان منه بدرهم، لتكون الهاء في منه عائدا إلى المبتدأ الذي هو السمن »[5].

وأيضا قوله :« يجوز ذلك فيما يكون معرفة من الأسماء نحو أن تقول:أعطيت زيدا درهما وأعطانيه عمرو ،تعيد الهاء إلى الدرهم لأن تعريفه جائز لأنك لو قلت :وأعطاني ذلك الدرهم أو هذا القدر عمرو ، كان هو الكلام »[6].

---

(1)المرجع نفسه ،ص.920 .

(2)المرجع نفسه ،ص.1147 .

(3)المرجع نفسه ،ص.1157 .

(4)المرجع نفسه ،ص.1149-1150 .

(5)المرجع نفسه ،ص.1162 .

(6)المرجع نفسه ،ص.1166 .

وهذا ينم على التفطن والتنبه التام للجرجاني لدور هذه الضمائر المتصلة في الإحالة على الكلمات السابقة، فلولاها لما كان هناك ربط وانسجام بين الجمل، وفي ذلك يقول لزهر الزناد: « ويكتمل الملفوظ عدما تترابط أجزاءه باعتماد الروابط الإحالية، وهذه الروابط تختلف من حيث مداها ومجالها، فبعضها يقف في حدود الجملة الواحدة يربط عناصرها الواحد منها بالآخر، وبعضها يتجاوز الجملة الواحدة إلى سائر الجمل في النص »[1].

1 - 2 اسم الإشارة :

الإحالة الخارجية :

تتم بإحالة عنصر لغوي على عنصر غير لغوي « مولدة حركة انتقالية من داخل النص إلى خارجه »[2].

وقد مثل لذلك الجرجاني بقوله: « وذلك قولك: هذا الرجل، وهذا الغلام لأن الغلام قد كان عرف بقولك هذا، أنك تشير إلى شيء حاضر »[3] ، ويزيد الأمر بيانا بقوله: « وأما المبهم نحو مررت بزيد ،فإنما جاز الوصف به، حملا على المعنى كأنه قيل: مررت بزيد الحاضر »[4]: أي أن اسم الإشارة هذا أحالنا إلى موجودات غير لغوية حاضرة في الواقع تمثلت في الرجل والغلام؛ على عكس لفظتي الرجل والغلام في ذاتها« لا نحتاج بشكل كبير الرجوع إلى المقام للتعرف على المحيل إليه لأنها كلمات معجمية محملة بدلالتها، مقارنة مع المبهمات كالضمائر وأسماء الإشارة والموصولات التي نحتاج فيها بشدة إلى معرفة المقام كي نفك إبهامها خصوصا إن كانت إحالتها خارجية فقط »[5].

---

(1)الزناد، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط1993, 1ص.124 .

(2)فوزية عزوز ،المقاربة النصية ،ص.61 .

(3)الجرجاني ،المقتصد ،ص.923 .

(4)المرجع نفسه ،ص.922 .

(5)فوزية عزوز ، المقاربة النصية ،ص.61 .

1 - 3 الاسم الموصول :

تقوم الأسماء الموصولة بدور الإحالة أيضا، إذ تحيلنا إلى عنصرفي الخطاب سواء أكان قبليا أم بعديا، ويوضح ذلك الجرجاني بقوله:« أنك تقول: جاءني رجل أمس، فيعرف المخاطب كون هذه القصة لرجل من الرجال، ثم تقول : فعل الذي أخبرتك بحديثه كذا، فتأتي بالذي،وهوللمعرفة »[1].

ويمثل لها أيضا بقول تأبط شرا [2]:

وَلَكِنْ أَخُو الْحَزْمِ الَّذِي لَيْسَ نَازِلاً... بِهِ الْخَطْبُ إِلَّا وَهْوَ لِلْقَصْدِ مُبْصِرُ (الطويل)

وفي كل من المثالين السابقين أحالت الذي إلى عنصرلغوي سبق الحديث عنه ؛أي أنها إحالة داخلية قبلية .

وأما الإحالة الداخلية البعدية فقد عرض لها بقوله :« فتقول إذا قيل لك أخبرعن زيد من قولك ضرت زيدا :الذي ضربته زيدا »[3].

فالذي هنا أحالت إلى زيد إحالة بعدية.

1 - 4 الألف واللام:

تقوم الألف واللام العهدية بدور الإحالة، فالعهد هو العلم المشترك بين المتكلم والسامع، وقد تنبه لذلك الجرجاني بقوله: « أن تقول: جاءني رجل من شأنه كذا، أكسبته بذكرك له وإخبارك عنه تعريفا عند المخاطب أنك إذا أعدت ذكره عرفت بالألف واللام – فهذا عهد ذكري نحو أن تقول: جاءني رجل من شأنه ومن قصته ، وفعل ذلك الرجل كذا ، وأيحسن أن يكرمك رجل ثم تسيء إلى ذلك الرجل ؟»[4]. فهاهنا ربط الجرجاني بين جملتين ب أل العهدية وذلك مما حقق بينهما التماسك والترابط .

---

(1)الجرجاني ،المقتصد ،ص،918 .

(2)المرجع نفسه ،ص.1147 -1148 .

(3)المرجع نفسه ،ص.1147 .

(4)المرجع نفسه ،ص.918 .

1 - 5 النكرة المستخرجة من دائرة التكير إلى دائرة التعريف :

إذا جاءت نكرة في نص ما، نستطيع أن نشتق عنها معلومات ؛أي أننا نستطيع إخراجها تدريجيا من دائرة التنكير إلى دائرة التعريف بكثرة الأخبار عنها .

وهذا ما أشار إليه الجرجاني بقوله : « لا فصل بين ضمير المعرفة والنكرة، إذا قلت: جاءني رجل فضربته لأن رجلا وإن كان نكرة في أول كلامك، فإنك لما ذكرته عرفته بعض التعريف وصار إخبارك عنه بالمجيء من الأسباب التي تقرر له عند المتكلم تعرفا، فإذا أضمرته فقلت: ضربته، كان ضميره معرفة؛ من حيث أنه لا يكون لغيره في هذا الكلم »[1]، وقد مثل لذلك بقوله: « نحو أن يقال ببغداد رجل عالم يحسن إلى الفقراء ،ويحافظ على أهل الفضل واسمه عمرو »[2] الهاء في اسمه حققت تماسك النص إذ أحالت على كلمة في بداية الجملة الأولى.

ونلحظ هنا بأن الجرجاني قد تعدى الربط بين جملتين، فالهاء هنا ربطت بين أربع جمل، فقد عرض معلومات عن الرجل البغدادي المبهم بتدرج حتى وصل إلى الهاء فأصبح معرفة ،وبذلك تحقق الاتساق من خلال تحول المعلومات الجديدة إلى معلومات مكتسبة، تمثل بدورها المنطلق نحو عناصر أخرى جديدة .

نصل إلى أن الإحالة عموما تتم بأدوات نحوية هي الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، « وفي كل هذا تلعب الضمائر دورا بارزا في الاقتصاد اللغوي من جهة ورفع اللبس من جهة أخرى »[3] وقد تفطن الجرجاني لذلك بقوله: « المضمر موضوع للاختصار والإيجاز »[4]، وهو ما توصل إليه علماء

(1)الجرجاني ،المقتصد ،917 .
(2)المرجع نفسه ،918 .
(3)فوزية عزوز ،المقاربة النصية ،ص.63
(4)الجرجاني ، المقتصد ،920.

النص المعاصرون من أن وظيفة الإحالة داخل النص « أنها تشير إلى ماسبق، والتعويض عنه بالضمير تجنبا للتكرار فتحقق الاقتصاد في اللغة »[1].

2 - الوصل :

يختلف الوصل عن باقي وسائل الاتساق؛ من حيث « إنه يتم في الحدود بين الجمل لا داخلها ،كما أن أدواته لا تحيل لا إلى السابق ولا إلى اللاحق في النص (كما هو الشأن مع الإحالة والاستبدال والحذف)، ولكنها تحتوي هي ذاتها على معنى ،وهذا المعنى هو الذي يحدد طبيعة العلاقة التي يقيمها ما يأتي بعدها بما يأتي قبلها »[2].

وأدوات الوصل متنوعة صُنفت إلى وصل إضافي وعكسي وزمني، وتعدمفاصل تربط بين الجمل وتجعل منه بنية متماسكة.

أ-الوصل الإضافي :

هو ربط الجمل المشتركة في الحكم، والأدوات التي تعبر عنه هي «الواو» و«أو» و «أم»، فالواو تربط بين عنصرين متحدين أو متشابهين وتجعل منهما بنية واحدة، « ويسميها دي بوجراند بمطلق الجمع »[3]، ويقول الجرجاني عنها « اعلم أن الواو أول حروف العطف ومعناها الجمع بين الشيئين »[4] ويفيد الجرجاني بأنها تشريك عام؛ أي أنها لترتيب الأخبار وليس للأحداث على عكس الفاء وثم، ويوضح ذلك قوله: « مما يدل على أن الواو لم توضع للترتيب أنك تقول جاءني عمرو اليوم و زيد أمس، فيكون ما بعد الواو مقدما في المعنى كقوله عزوجل: ﴿....وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾آل عمران: 43، لأن السجود بعد الركوع وهو مقدم في الذكر، ولو كان موضوعا للترتيب

(1)عزة شبل ،علم لغة النص النظرية والتطبيق ،مكتبة الآداب علي حسن ،42ميدان الأوبرا ،القاهرة ،ط2009،2 ،ص.120.

(2)فوزية عزوز ،المقاربة النصية ،ص.74.

(3)محمد خطابي ،لسانيات النص ،ص.24-23.

(4)الجرجاني ،المقتصد ،ص.937.

لامتنع كما تمتنع الفاء، ألا ترى أن نحو اسجد فاركع لا يكون بوجه ولا اسجد ثم اركع »[1].

نلحظ هنا وظيفة الواو في الربط والجمع إذ جمعت بين جملتين لو أفردت كل واحدة منهما قامت بنفسها واستقل معناها بلفظها, و أو أداة للتخيير تربط بين « صورتين تكون محتوياتهما متماثلة وصادقة غير أن الاختيار لابد أن يقع على محتوى واحد »[2]، وبواسطة دلالتها التخييرية تحقق الاتساق والترابط بين الجمل، ويؤيد ذلك قول الجرجاني: « ومنها أو هي لأحد الشيئين أو الأشياء في الخبر وغيره، تقول : كل السمك أو اشرب اللبن؛ أي افعل أحدهما ولا تجمع بينهما ».[3]

وأما أم فيقول فيها: «وأما أم فمعناها التعيين، وذلك أن تقول، أزيد عندك أم عمرو؟، وقد عرفت أن أحدهما بغير عينه عنده»[4].

فالتعيين يؤدي إلى الربط بين الجمل، فتعيين أيهما عندك كما في المثال الذي ذكره الجرجاني « إذا كان قولك أزيد عندك أم عمرو بمنزلة أيهما عندك؟ وجب أن يقول في جوابه زيد أو يقول: عمرو »[5] يحقق التماسك والترابط مع جملة السؤال، وهذا بمنزلة ما توصل إليه العلماء المعاصرون بالحذف الجملي، إذ يوضحون بأن المواضع التي يكثر فيها الحذف هي الإجابة عن الأسئلة، مثال : «-متى وصل جون ؟ -أمس »[6].

---

(1)الجرجاني ،المقتصد ،ص.938.

(2)أحمد العفيفي ،نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، زهراء الشرق،القاهرة،2001 ،ص.129.

(3)الجرجاني ،المقتصد ،ص.942.

(4)المرجع نفسه ،ص.949.

(5)الجرجاني ،المقتصد ،ص.949.

(6)عزة شبل ،علم لغة النص ،ص.119-118.

إذن فالاتساق هنا يتحقق بعلامات عدمية لا بوسائل لغوية محسوسة « وتكمن أهمية المحذوف في تجنب الإطناب والحشو، إذ يتواجد هذا المحذوف في البنية الدلالية العميقة للنص »[1].

ب- الوصل الزمني :

يتم بأدوات مثل الفاء وثم وبعد ذلك، مما يفيد التعاقب والتتابع الزمني، فمثلا نجد الفاء وثم تقومان «بالربط بين الاحداث داخل النص عبر التتالي والتتابع والتعاقب»[2]، وقد تنبه لذلك الجرجاني بقوله،« والفصل بين ثم والفاء أن في ثم تراخيا وليس في الفاء، فإذا قلت : ضربت زيدا ثم عمرا كان المعنى أنه وقع بينهما مهلة، ولو قلت ضربت زيدا فعمرا كان المعنى أن ضرب عمرو وقع عقيب ضرب زيد، ولم تتطاول المدة بينهما »[3].

ج- الوصل الاستدراكي :

يقوم على عكس ماهو متوقع، ويتم باستعمال أدوات مثل: (لا، بل، لكن)، وهي أدوات تقوم «بالربط بين النقيضين؛ أي المتنافرة والمتعارضة»[4] ويقول الجرجاني عن هذه الأدوات: « اعلم أن لا بمنزلة سائر حروف العطف في إدخال الثاني في حكم الأول لفظا، وأما معناها فالنفي فإذا قلت: ضربت زيدا لا عمرا كنت نفيت عن عمرو ما أثبت لزيد »[5].

وعن بل يقول: « اعلم أن بل معناها الإضراب عن الأول والإثبات للثاني فبل نقيض لا، لأن لا تنفي عن الثاني ما وجب للأول، وبل تثبت للثاني ما وجب للأول وتنفيه عنه»[6].

---

(1)فوزية عزوز ،المقاربة النصية ،ص.73.

(2)عزة شبل ،علم لغة النص ،ص.165.

(3)الجرجاني ،المقتصد ،941.

(4)عزة شبل ،علم لغة النص،ص.111.

(5)الجرجاني ،المقتصد ،ص.946.

(6)المرجع نفسه ،ص.946.

وأما لكن فهي « أخص من بل في الاستدراك، لأنك تستدرك ببل بعد الإيجاب، لكن إذا كان في الكلام قصتان مختلفتان، جاز الاستدراك بلكن، وذلك قولك: جاءني زيد لكن عمرو لم يأت، فقولك عمرو لم يأت جملة منفية،وما قبل لكن و هو قولك: جاءني زيد، جملة موجبة، فقد حصل الاختلاف »[1].

نلحظ أن هذه الأدوات من أدوات تماسك النصوص إذ لا يمكنها العمل على جملة واحدة، إذ يقتضي عملها الربط بين أكثر من جملة مختلفة في معناها عن الأخرى؛ أي قصتين على حد قول الجرجاني، وهذا ما يحقق التماسك والتلاحم وقد زاد الأمر تأكيدا بقوله: « حرف العطف لا يخلو من أن يعطف مفردا على مفرد أو جملة على جملة »[2].

نصل إلى إن أدوات الوصل هذه لا تربط الجمل شكليا فحسب، « بل تجعل منها بنية متسقة؛ إذ تقوي أسباب التماسك بين جمل النص، وتزيد من لحمتها»[3].

ب- الاتساق المعجمي :

إن هذا النوع من الاتساق يتسم بالتوسع، إذ يتعلق بوحدات معجمية « تتصف في ذاتها بالربط، حيث إن بعضها يفسر البعض الآخر»[4]، ومن أنواعه التكرار الذي يعرفه محمد خطابي بأنه « شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما »[5].

فالاتساق إذا يحدث بإحالة اللفظ المكرر على اللفظ الأول السابق الذكر،فيتماسك الطرفان الوارد فيهما اللفظين .

(1)المرجع نفسه ،ص.948-947.

(2)المرجع نفسه ،ص.943.

(3)فوزية عزوز ،المقاربة النصية ،ص.76 .

(4)عزة شبل ،علم لغة النص ،ص.105.

(5)محمد خطابي ،لسانيات النص ،ص.24.

ونجد تمثيل ذلك في قول الجرجاني :« اعلم أن البدل في حكم تكرير العامل، نحو قوله تعالى ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ . . .﴾ الأعراف: 75 ، لأن من آمن بدل من الذين استضعفوا»[1].

وتكرار الوحدة المعجمية بمرادف لها يسمى التكرار بالترادف ، وهو ضرب من التأكيد، ونجد التماسك والتلاحم هنا في مثال الجرجاني متجسدا في العلاقة بين المبدل والمبدل منه إذ تمثل علاقتهما علاقة امتداد واستمرار ؛ أي أنها تسهم في تنامي واستمرار النص وذلك يؤدي إلى تلاحمه.

بعد هذا العرض الموجز لأهم أدوات الاتساق التي تفطن لها الجرجاني في كتابه المقتصد، يمكن أن نقول أنه تجاوز الوقوف عند حدود الجملة الواحدة بل تعدى ذلك إلى الربط بين أكثر من جملة ،وبذلك كانت له نظرة نصية بتنبهه للأدوات التي ينبني عليها النص والتي تسهم في ترابطه وجعله نسيجا متحدا تلك الأدوات التي ينادي بها علماء النص المعاصرون ويؤيد ذلك هذا التعريف المعاصر للنص« منتوج متوازن فمن جهة نجد فيه عناصر عائدة وعناصر مستبدلة ومضمرات وأدوات وصل وعناصر محذوفة تحقق اختزالا واقتصادا لغويا ومن جهة أخرى يضم عناصر مكرورة معالم ينبني عليها أو يستمر ، وكلها تعمل على حبك أجزاء النص مشكلة منها نسيجا متينا وكلا متحدا »[2].

(1)الجرجاني ، المقتصد ،929.

(2)فوزية عزوز ،المقاربة النصية،ص.83.

خاتمة:

وجد اللسانيون العرب مظاهر نصية في موضوعات تتوزع بين البلاغة والنحو،ووجود جذور للسانيات النص في هذين المبحثين أمر قد أعطى السند التراثي والغطاء الشرعي للنظريات اللسانية الحديثة لتتواجد في الثقافة العربية ويتم قبولها من طرف الشاكين في كل جديد غربي، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن الباحثين العرب قد اتفقوا على وجودها في كلا المجالين، فها هو محمد خطابي يستبعد النحو من مقاربته النصية، لأنه يؤمن « بأن النشاط اللغوي العربي القديم ينقسم على لسانيات جملة ولسانيات خطاب، فالأولى يمثلها النحو، والثانية موجودة في البلاغة والتفسيروأصول الفقه»[1]؛ أي أنهم يرون أن الجملة هي الحد الأقصى الذي وقف عنده النحويين وحتى عندما كانوا يتكلمون عن عطف الجمل أو الاستدراك أو الاضراب كان منطلقهم في ذلك علاقة الجملة الواحدة بأختها، ولم يتعدوا ذلك إلى وحدة أكبر تشمل أكثر من جملتين .

وفي مقابل ذلك نجد محمد الشاوش يرى أن النحو العربي نحو نصي بامتياز[2].

أما نحن من خلال عرضنا لأهم المظاهر النحوية والبلاغية في كتابي الجرجاني رأينا تجاوزا لحدود الجملة الواحدة حتى وصل في بعض المواضع إلى أربعة جمل، وهو ما يجعلنا نقول بوجود تفكير عربي نصي ،يجعلنا نسجل ملاحظات عامة عن النحو العربي والمعالجة النصية تتمثل في:

1 -إذا كان النحو العربي انطلق من نحو الجملة، وانحصرت تحليلاته في ذلك ،فإن هذا ليس عيبا أو قصورا فيه، وإنما هوراجع إلى الأسباب التي من أجلها تمتقعيد اللغة.

(1)محمد خطابي ،لسانيات النص ،ص.95.

(2)انظر خالد حميد صبري ،اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة بحث في الأطر المنهجية والنظرية،منشورات الاختلاف ،الجزائر،ط1،2015 ،ص.-166-164 167.

2 -لم يتوقف النحو العربي عند حدود الجملة، بل تعدى ذلك إلى الربط بين أكثر من جملة، ولكنها مع ذلك كانت إشارات لم ترق لتكون نظرية كاملة مستقلة لمعالجة النص، لكن إشارتهم هذه تعد لبنات في بناء علم لساني نصي،لأن النص ماهو إلا امتداد لترابط جملة مع جملة .

3 -يعد علم النص توسيعا وتطويرا لعلم الجملة، وبذلك يمكننا الاستفادة من نحو الجملة لتأسيس نحو نص عربي، لأن الجمل أساس ونواة النص .

وفي الأخير إيماننا بوجود إشارات وتصريحات تعبر عن تجاوز النحو والبلاغة حدود الجملة في مواضع كثيرة في كل منهما يدفعنا أن نتساءل سؤالا مشروعا مطروحا على حد قول خالد حميد صبري: هل يمكن لتلك الإشارات أن تشكل إطارا متماسكا لنظرية نصية عربية ؟

يجيب فيقول: « أجد من الصعب أن يكون الجواب بالإيجاب ؛فالنظرية ليست مجرد تجميع لإشارات وآراء متناثرة هنا وهناك عبر مراحل زمنية مختلفة، لا تنسجم فيما بينها إلا بتأويل متعسف، وجود النظرية يعني وجود أصول منهجية تنطلق منها ،كما أن كل نظرية تخضع لعمليات تحديث وتطوير، ونحن لم نجد شيئا من ذلك في التراث العربي ،على نحو ما هو موجود في نظريات تراثية أخرى، كنظرية العامل التي قام عليها النحو العربي »[1].

ونتساءل نحن في اتجاه مغاير لاتجاه خالد حميد صبري، هل يمكن أن تسهم تلك الإشارات والتصريحات في بناء نظرية نصية عربية لتحليل النصوص بأدوات عربية مستمدة من أصول تراثنا فضلا عن لي أعناقها لتطويعها لأدوات تحليل غربية ؟

نجد ذلك ممكنا بقراءة التراث على ضوء أسئلة العصر الحديث، فالنظر في التراث لم يعد يحييه إلا جديد النظرية الغربية، ومع ذلك نحاول ألا نكتفي بالقول بأنه كان لنا السبق، بل نحاول أن نسهم في تأسيس عربي ينسجم حاضره مع ماضيه تمهيدا لمستقبله ،ففهم الظواهر الحديثة لا يكتمل إلا بمعرفة أصولها وارهاصاتها.

---

(1)المرجع نفسه ،ص.186.

***المصادر والمراجع :

1.الزناد، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ،ط1993, 1.

2.إبراهيم خليل ،اللسانيات ونحو النص ، دار المسيرة ، ط2007،1

3.أحمد عفيفي،نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ،مكتبة زهراء الشرق ،2001.

4.باتريك شارودوودومينيك منغنو ،معجم تحليل الخطاب ،تر: عبد القادر المهيري وحمادي صمود ،دار سيناترا ،المركز الوطني للترجمة ،تونس،2008.

5.خالد حميد صبري ،اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة بحث في الأطر المنهجية والنظرية،منشورات الاختلاف ،الجزائر،ط2015،1.

6.دي بوجراند ،النص والخطاب والإجراء ،تر: تمام حسان ،عالم الكتب،القاهرة ،1998.

7. شريفة بلحوت، الإحالة دراسة نظرية مع ترجمة الفصلين الأول والثاني من كتابcohesion in English لماك هاليدي ورقية حسن 2006_ 2005.

8.عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحق:ياسين الأيوبي،المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ،ط1 ،2000 .

9. عبد القاهر الجرجاني ،المقتصد شرح الإيضاح، تحق كاظم بحر المرجان ، دار الرشيد ، العراق ، 1982,

10. عبد القاهر الجرجاني،أسرار العربية،المكتبة العصرية، بيروت،ط1998،1

11. عبد الواسع أحمد الحميري،شعرية الخطاب في التراث النقدي والبلاغي ،مجد المؤسسة الجامعية للدراسات ،الحمرا ، بيروت ،2005

12. عزة شبل، علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب علي حسن، 42ميدان الأوبرا، القاهرة، ط2، 2009.

13. فوزية عزوز، المقاربة النصية من تأصيل نظري إلى إجراء تطبيقي،دار كنوز المعرفة ،الأردن ،ط1،2016 .

14. محمد خطابي ،لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ،المركز الثقافي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط2،2006

المراجع الأجنبية:

-Eléments de linguistique textuelle ; théorie et pratique de l'analyse textuelle, Margadam, 1990, J.M.Adam.

-Tesniere, Eléments de syntaxe structurale, paris: klincksieck,1966

المقالات:

1 -مفتاح بن عروس، حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية،اللغة والأدب،ع12.

الرسائل الجامعية:

1 -مفتاح بن عروس ،الاتساق النصي ،رسالة ماجستير ،جامعة الجزائر

تجليّات ظاهرة الإبدال بين الصوامت في العاميّات الجزائرية (العامية التلمسانيّة أنموذجا)

أ.إيمان هنان
قسم علوم اللسان
جامعة الجزائر (2)

الملخص:

إنّ المتكلم بالعاميات الحديثة ، يسعى دائما إلى بذل أقل جهد عضلي ممكن، ولاسيّما في مواضع الأنس والاسترخاء، فيكثر من استعمال بعض الظواهر الصوتية التي سنّتها قوانين التطور اللغوي، وذلك تسهيلا لعملية النطق، وعلى هذا الأساس حاولنا في هذه الدراسة تبيان تجليّات ظاهرة الإبدال الصوتي في مدينة تلمسان الجزائريّة، و تأثير الأصوات المتقاربة في المخارج والصفات، وذلك لما تتميّزبه عن باقي المدن الجزائرية الأخرى.

الكلمات المفتاحية: اللغة، العامية ، الإبدال، الأصوات، تلمسان.

مقدمة:

لما كانت اللغة نشاطا إنسانيا يتأثّر بالمجتمع الذي ينتمي إليه ، تباينت مستويات التعبير بها تبعا لتعدد استعمالها من لدن ناطقين يختلفون باختلاف طبقاتهم، وفئاتهم الاجتماعية، ناهيك عن تباعد الفوارق الزمانية و المكانية بينهم.

وقد أورد اللغويون منذ القدم مستويات رئيسة للأساليب المتواصل بها في اللغة العربية من خلال رصدهم لوظيفتها الاجتماعية، بملاحظة تنوع تأديتها وتباين استعمالها داخل المجتمع العربي. ويقول الجاحظ في هذا الشأن: «و كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات؛ فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والقبيح والسمح والخفيف والثقيل وكله عربي...»[1].

والحق أنّ اللّغويين القدامى قد ذكروا أنّ في لغات العرب اختلافات طفيفة – خاصة فيما يتعلق بالمستوى الصوتي الذي يشمل الأصوات وكيفية صدورها، والإبدال الذي يحدث بينها– لا تعوق عملية التواصل بين العرب أجمعين، ومن بين من تناول هذه المسألة أحد جهابذة الفكر العربي "أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي" الذي انتهى إلى أن الخلاف بين اللهجات العربية القديمة ليس خلافا عميقا إنّما هو خلاف يسير لا يمس الأصول بل الفروع فيقول: «هذا القدر من الخلاف لقلته ونزارته محتقر غير محتفل به ولا مهيج عليه وإنما هو في شيء من الفروع يسير، فأما في الأصول وما عليه العامة والجمهور فلا خلاف فيه ولا مذهب للطاعن به»[2].

وعلى هذا الأساس نجد أن للغة العربية مستويين تعبيريين متفاوتين خلال عملية التواصل؛ الأول يتعلق باللغة الفصحى أو ما يسمى باللغة العربية المشتركة، والآخر متعلق باللغة العامية لغة التفاهم في الحياة اليومية.

1- مفهوم العامية لغة واصطلاحا:

أ- المعنى اللغوي للعامية:

يذكر أرباب الكتب والمعاجم اللغوية العربية أن العامية مشتقة من لفظة

---

(1)- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)البيان والتبيين ،تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت لبنان، ج1، 1948ص144.

(2)- ابن جني، الخصائص، تح. محمد علي النجار، المكتبة العلمية: لبنان، دت، ج1،ص243، 244.

العام المقابل للخاص، جاء في اللسان: «والعامة خلاف الخاصة، قال ثعلب سميت بذلك لأنها تعم بالشر والعمم العامة اسم للجمع، وقال: رؤبة أنت ربيع الأقربين والعمم. ويقال رجل عمّي ورجل قصري فالعمّي العام والقصري الخاص. وفي الحديث كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءا لله وأهله وجزءا لنفسه ثم جزءا جزأه بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة بالخاصة»[1].

والعامي من الكلام ما نطق به العامة على غير سنن الكلام العربي، والعامية لغة العامة وهي خلاف الفصحى[2].

ب- المعنى الاصطلاحي للعامية:

لقد أحدثت ظاهرة اللحن التي هجمت على ألسنة الفصحاء ما يعرف بالعامية حديثا أو لغة العامة أو العوام كما يسميها القدامى.

و بناءً على ذلك فإننا نلفي الكثير منهم من تكلم بإسهاب عنها وأفرد المؤلفات[3] في موضوعاتها من أجل المحافظة على اللغة الفصيحة وإعادة الخارجين عنها إلى حظيرتها، ولابأس أن نستعرض ما أشار إليه العلامة ابن خلدون في مقدمته وهو يعرف ويصف العامية وصفا دقيقا يقول فيه: « وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي كانت للعجم، فعلى مقدار ما يسمعونه من العجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى»[4].

---

(1)- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، طبعة جديدة محققة، مادة عمم.

(2)- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط3، 1985، ج2، ص 652..

(3) - كلحن العامة للزبيدي وتقويم اللسان لابن الجوزي ...إلخ

(4)- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، تحق علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر الفجالة ، القاهرة ،ط3،دت، ج4، ص1089.

هذا ويبقى كتاب «البيان والتبيين» أوضح مثال وصل إلينا عن لغة العامة والعوام، وأشار فيه صاحبه إلى شيء غير قليل من الظواهر المميزة لهذه الفئة المجتمعية في كثير من مواضعه حيث يقول: «و إذا سمعتموني أذكر العوام فإني لست أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة، ولست أعني الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل السير والطليسان ومثل موتان وجبلان وأمثال الزنج ... وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا و أدبنا وأخلاقنا، لم يبلغوا منزلة الخاصة منا على أن الخاصة تتفاضل في الطبقات أيضا».[1]

ونستنتج من كلام الجاحظ أنّ الفلاحين والأكراد و غيرهم من الأمم المختلفة التي ذكرها، ليسوا من العوام ولا من الخواص أيضا، بل العامة إنما هي من العرب بدينهم ولغتهم وأخلاقهم التي تختلف اختلافا بينا مميزا لهم عن العجم، ويؤكد الجاحظ أيضا أن الخاصة تتفاضل في المنزلة والطبقة.

وبوقوفنا اليوم على مفهوم العامية لدى اللغويين المحدثين، نجد أن تحديداتهم مرآة عاكسة لنزعاتهم الفكرية والنفسية، الأمر الذي أدى إلى اختلاف استعمالهم لمصطلح العامية إذ أنّنا نجد دعاة العامية يميلون إلى استعمال مصطلح «اللغة العامية» أو «اللغة المحكية» بينما يميل المحافظون إلى الفصحى والساعون لحمايتها إلى استعمال لفظة لهجة بمعنى «اللهجة العامية» أو «اللهجة الإقليمية» في أغلب بحوثهم التي تناولت مسألة الفصحى والعامية.

وعلى العموم فإننا نجد العديد من تعريفاتهم لا تخرج البتة عن نطاق تعريفات القدامى للعامية، فهذا «عبد الرحمن الحاج صالح» يعرّفها بأنها اللغة المستعملة اليوم ومنذ زمن بعيد في الحاجات اليومية وفي داخل المنزل

(1)- الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص137.

و في وقت الاسترخاء والعفوية»[1]. وإلى مثل ذلك أشار «عبد الله عطوات» بقوله: «فهي لغة الحديث التي نستخدمها في شؤوننا العادية، ويجري بها حديثنا اليومي، وهي لا تخضع لقوانين تضبطها وتحكم عبارتها لأنها تلقائية متغيرة تتغير تبعا لتغير الأجيال وتغير الظروف المحيطة بهم».[2]

أما أحمد علم الدين الجندي، فيؤكد أن هذه اللهجات العامية ما هي إلا انحراف وخروج عن العربية الفصحى بقوله:« فالعامية قد انحرفت في هذه الأقطار العربية عن الفصحى»[3].

وهكذا استقر لنا القول في الأخير أنّ العامية كما هو واضح من التسمية هي لغة العامة جميعا فهي لا تقتصر على طبقة من الناس دون أخرى، وهي لغة التخاطب اليومي التي يحسنها كل فرد من الأفراد عالما كان أو جاهلا، كبيرا أو صغيرا، ذكرا أو أنثى، وتسير جنبا إلى جنب مع اللغة النموذجية ونقصد بها اللغة الفصيحة التي ينصرف إليها الخواص من مثقفين وأدباء في مواقفهم وسياقاتهم الرسمية..

2- أسباب نشأة العامية:

تعد اللغة في كُنه حقيقتها إحدى أهم الظواهر الاجتماعية التي تخضع لطبيعة المجتمع الإنساني، فتنشأ وفق ما يقتضيه سلوك أفراده في جميع مناحي حياتهم، وتغيّر اللغات قانون ثابت لا مراء فيه يصيب بنيتها الجوهرية دون استثناء، ولا يمكننا تحليل هذا التغير أو فهمه إلا في إطار التغير الذي تعرفه الحياة الجمعية، الشيء الذي أدى إلى ظهور الكثير من العاميات

(1)- عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزائر، 2007، ج1، ص64.

(2)- محمد عبد الله عطوات، اللغة بين الفصحى والعامية، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2003، ص 65.

(3)- أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب، 1983، ج1، ص131.

التي تتنوع هي الأخرى، و تختلف باختلاف المجتمع الذي تجري على ألسنته. واللغة العربية ليست بدعا من اللغات التي خضعت لقانون التغير الحتمي، فلم تسلم بذلك من انشعابها إلى أشكال تعبيرية متنوعة اتّفق على تسميتها باللهجات والتي تكون بموجبها ما نسميه باللغة العامية.

ولا ريب أن العامية مرت بمراحل النشوء والطفولة: يقول «سعيد الأفغاني»: «يعتري بعض الكلمات ما يعتري حياة الأحياء ميلاد، فترعرع، فتقلبات في أطوار بعد أطوار إن ما صح في كلمات يصح في اللهجات المحليات ألفاظا وأصواتا ومركبات.». [1]هذا وترجع نشأة العاميات إلى عوامل يمكن حصرها إجمالا كما ذكرها اللغويون فيما يأتي:

أ-اللحن: إن مما تقدم ذكره في شأن اللحن الذي شاع على ألسنة العرب الفصحاء لأبين دليل على أنه من أول إن لم نقل من أهم مظاهر نشوء العامية وابتعادها عن الفصحى، فقد كان بمثابة الداء العويص الذي نفذ إلى جسد اللغة الفصيحة فأعياها بمختلف ضروب اللحن والخطأ، يقول في هذا الصدد ابن خلدون: «فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا الأعاجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين ... ففسدت بما ألقى إليها مما يغاير لجنوحها إليه باعتياد السمع»[2].

وينبغي هنا أن نشير إلى عامل آخر له علاقة وطيدة بالعامل الأول وهو احتكاك العرب بغيرهم من الشعوب الأعجمية؛ فقد كشفت الدراسات اللغوية اللثام عن سر تسرب جملة من الألفاظ الأعجمية إلى العربية، ومرده يعود إلى مخالطة العرب للأعاجم نتيجة غزو أو هجرة أو لأغراض تجارية وثقافية وغيرها من مختلف التبادلات التجارية، فكان لهذا الأمر

(1)- سعيد الأفغاني، قصة العامية في الشام، مجمع اللغة العربية في القاهرة، 1978، ج41، ص43.

(2)- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ج3، ص1265.

الأثر الواسع في ظهور اللهجات العامية الحديثة ،وهذا ما أشار إليه «إبراهيم أنيس» قائلا:«فاحتكاك اللغات الغازية ومعها لهجاتها المتباينة باللغات المغزوة التي تشمل على لهجات أيضا يولد لنا أنواعا جديدة من اللهجات، فنحن حين نستعرض اللهجات العربية الحديثة، لزاما قد اتخذت في مصر شكلا من الأشكال يباين ذلك الذي اتخذته في العراق أو الشام أو بلاد المغرب» [1].ويضيف «عبده الراجحي»: «وفي التاريخ شواهد كثيرة على أثر الصراع اللغوي فاللهجات العربية التي انتشرت في البلاد الإسلامية بعد الفتح دليل عليه، ولهجاتنا العامية الحالية فيها مظاهر كثيرة من آثار الاحتكاك اللغوي»[2].

ب- **العوامل الجغرافية:** تعد العوامل الجغرافية من المعايير الرئيسة التي يلجأ إليها العلماء في تصنيفاتهم لمعالم التنوعات اللغوية المختلفة، فقد فعلت الفروق البيئية والجغرافية البعيدة أفعالا عجيبة في اللغة الفصيحة فقامت بتوجيهها لدى كل أمة من العرب وجهة تختلف عنها عند غيرها، فنهجت لها في المسائل اللغوية منهجا يختص بها ويختلف عن غيرها من الأمم الأخرى «... بل إنّنا نجد كثيرا من خصائص الأقاليم الجغرافية تنطبع في لغة قاطنيها، ومن أجل اختلاف الأقاليم والسكن والنزوح والاستقرار تختلف مظاهر اللهجات بين سكان الجبل والصحراء والأودية وبين سكان الجنوب والشمال ... فاللغة كما أنها لصيقة بالدين والأدب والتاريخ والقومية نراها كذلك لصيقة بالجغرافيا و الأرض»[3].

وعليه فإن تماشي اللهجة والبيئة الجغرافية أمر لا يختلف فيه أهل النظر؛ فحاجة المدني إلى المفردات الجديدة التي تناسب حياته المتطورة

(1)-إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، دط، 1965 ص23.

(2)- عبده الراجحي،اللهجات العربية في القراءات القرآنية ،المعرفة الجامعية ، 1998، ص38.

(3)-أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، ص34.

تختلف عن حاجة البدوي الذي يكتفي بالرعي والصيد؛ فتتميز لهجته بخشونة أصواتها ولبس ألفاظها كصعوبة الحياة التي يعيشها، بيدَ أنّ المدني يميل إلى انتقاء الألفاظ المتحضرة والأصوات الرقيقة فيلجأ إلى الحذف، والإيجاز، والإبدال وغيرها من الظواهر اللغوية التي أسهمت بشكل أوبآخر في نشأة العاميات العربية.

هذا وتختلف العاميات تبعا لاختلاف إقليمها وما يحيط به من الظروف ومميزات خاصة به، «ولو أمكن أن تتحد تلك الظروف لاتخذ الكلام طريقا واحدا في تطوره، وشكلا واحدا في تغيره ولظلّت البيئات المنعزلة ذات لهجة واحدة لا تتشعب إلى صفات متباينة، ولكن الواقع المشاهد أن البيئات متى انعزلت اتخذت أشكالا متغايرة في تطور لهجاتها»[1].

ويلجأ العلماء حديثا في تصنيفهم للهجات العربية إلى إحدى أهم الوسائل التي تعد نوعا من العرض الجغرافي للغة ولهجاتها المتنوعة، معتمدين في ذلك على صنع جملة من الخرائط توزع عليها مختلف الظواهر اللغوية في بيئة ما، ويقوم بجمعها في نهاية المطاف –أطلس لغوي عام- يستعان به في الكشف عن التطورات التي تتعلق بالتنوعات اللغوية والتغيرات التي تصيب اللغة الفصيحة في بيئات متعددة .

ج- **العوامل الاجتماعية** : لما كان المجتمع يتميزبحدة الفوارق بين طبقاته الاجتماعية تبعا لمقاييس مختلفة كمقياس المستوى الثقافي والمعيشي، ومقياس السن أو الجنس، وطرق التفكير والوجدان، اختلفت الأساليب الكلامية من طبقة إلى أخرى باتخاذ كل طبقة لهجة تتماشى مع مميزات أفرادها وهويتهم الاجتماعية، فنجد في المجتمع الواحد طبقة الأغنياء التي تنتقي أجمل الألفاظ وأحسنها لتبدو في أرقى صورة، تبين موقعها الرفيع في

(1)- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص20.

السلم الاجتماعي على خلاف الطبقات الأخرى؛ التي تتميز بالبساطة والعفوية في استرسالها للكلام لما تقتضيه حياتها من بساطة وسهولة في العيش.

وانطلاقا من ذلك، فلا جرم أن لكلّ مجتمع عادات لغوية تميزه عن المجتمعات الأخرى، يقول في هذا الصدد «عبده الراجحي»: « إن المجتمع الإنساني بطبقاته المختلفة يؤثر في وجوده اللهجات، فالطبقة الأرستقراطية مثلا تتخذ لهجة غير لهجة الطبقة الوسطى أو الطبقة الدنيا من المجتمع، ويلتحق بذلك أيضا ما نلاحظه من اختلافات لهجية بين الطبقات المهنية، إذ تنشأ لهجات تجارية، وأخرى صناعية وثالثة زراعية وهكذا»[1].

د- العوامل الفردية: يرى كثير من اللغويين المحدثين أن الأفراد يختلفون في تأديتهم اللغوية حتى وإن انتموا إلى بيئة اجتماعية وواقع لغوي مشتركين؛ «فما من فردين يتحدثان بنفس اللغة تماما لأنه لا يمكن أن يتوفر لهما نفس القدر من التجارب والخبرات باللغة»[2]، بل إننا نلفي في كثير من الأحايين أن الفرد لا يتكلم باللغة نفسها، فينتقل من أسلوب إلى أسلوب مغاير حسب المقام وموضوع الحديث والظروف المؤثرة التي تحيط به أثناء عملية التكلم، ساعيا وفقها إلى ضبط سلوكه اللغوي بغية تحقيق حاجاته التبليغية مع الآخرين. ولم يكن بد من أن يفضي ذاك التباين اللغوي بين أفراد المجتمع الواحد إلى نشأة اللهجات العامية، يقول» عبده الراجحي» في هذا الشأن :« و اختلاف الأفراد في النطق يؤدي مع مرور الزمن إلى تطوير اللهجة أو إلى نشأة لهجات أخرى»[3]، وعليه فمن المستحيل وجود تطابق في التكوين الطبيعي لأعضاء النطق لدى أفراد الشعوب، « فمن المقرر أن أعضاء النطق في

(1)- عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص38..

(2)- هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمد عياد ، عالم الكتب ، لبنان ، ط 2، 1990، ص27.

(3)- عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص39.

الإنسان في تطور طبيعي... فهي تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين بل إنها لتختلف... عمّا كانت عليه عند آبائنا الأقربين»[1].

وقضى هذا الاختلاف أن تسلك الأصوات العربية مسلكا مغايرا عن بعضها البعض. ويؤكد «علي عبد الواحد وافي «هذا الأمر قائلا: « وغني عن البيان أن كل تطور يحدث في أعضاء النطق أو استعداداتها يتبعه تطور في أصوات الكلمات، ولم يكن مفر من أن تتغير ألفاظ اللغة العربية عن حالتها الأولى في الأمم الناطقة بها»[2].

وعليه أخذت الهوة تتسع بين اللهجات العامية حتى أضحى التفاهم بين أفراد الجنس العربي صعبا لدرجة يصعب الحديث عنها، على أمل أن يبقى الاتفاق بينهم ما دام أن هنالك لغة باقية ببقائهم على هذه المعمورة.

فلا غرو بعد هذا كلّه أن نخلص إلى أن العاميات نشأت بتعدد البيئات واختلاف المواقع الجغرافية، وعادات أهلها وتقاليدهم. فضلا عن اللحن الناتج عن احتكاك العرب بالأعاجم، فكان أن فرضت تلك العاميات وجودها في كل الشعوب العربية وسارت الى جانب اللغة الفصيحة لغاية يومنا هذا مشكلة معها ما سمي حديثا بالازدواجية اللغوية، هذه الأخيرة ما فتئت أن أصبحت من أهم أبعاد الواقع اللغوي الجزائري على وجه الخصوص.

3- تجليّات ظاهرة الإبدال في الأصوات المتقاربة في المخرج أوالصفة:

شاءت سنن التطور والارتقاء التي ترسمها قوانين علم اللغة أن تصيب الأصوات العربية جملة من التغيرات المطلقة والمقيدة، وقد حرص علماؤنا العرب على تناول هذه الظواهر الصوتية الهامة بدراسة مستفيضة أرسى دعائمها القدماء وقوى بنيانها المحدثون فنتجت عنها آراء قديمة كان لها

(1)- علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، نهضة مصر، مصر، ط3، 2000، ص106.
(2)- نفسه ص106.

الفضل الكبير في إثراء الدرس الصوتي العربي بحقائق علمية موضوعية صادقة.

والإبدال في اللغة مصدر أبدل والبدل هو العوض[1]،والأصل فيه هو جعل الشيء مكان غيره، مثل إبدالهم الواو تاء فيقولون في والله تالله[2]، أو قيام الشيء مكان الشيء الذاهب. وفي الاصطلاح: هو أن تقيم حرفا مقام حرف إما ضرورة وإما صنعة وإما استحسانا[3]، ولكن لابدّ من توافر صلة صوتية بين الصامتين، المبدل والمبدل منه، تتجلى بخاصة في اتحادهما في المخرج، إلى جانب اشتراكهما في بعض الصفات، أوعلى الأقل قرب مخرجهما وصفاتهما.

وقد كان من سنن العرب إبدال الحروف إقامة بعضها مقام بعض[4]، «والذي يراد من عملية الإبدال هو تقريب بين صوتين متجاورين والتخفيف على الناطق بأن لا يتكلف أثناء النطق ولا يبذل جهدا... على أنّ الأصل من الإبدال أن يكون فيما تقارب وتدانى من الحروف، وهذا قائم على اختلاف اللغات والغرض منه إرادة الخفة والمجانسة»[5]، يقول «عبد الصبور شاهين»: « ولا يكون الإبدال إبدالا حقا إلّا إذا كان بين المبدل والمبدل منه علاقة صوتية كقرب المخرج أوالاشتراك في بعض الصفات كالجهر، والهمس، والشدّة ، والرخاوة»[6]. وأضحت هذه الظاهرة من العوامل الرئيسة التي أدّت إلى تباين العاميات العربية فيما بينها وابتعادها عن اللغة العربية الفصيحة.

(1)- ابن منظور لسان العرب، مادة عوض، والمعجم الوسيط، ج2، ص43.

(2)- ابن منظور، لسان العرب، مادة بدل.

(3)- موفق الدين بن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت ،لبنان،دت، ج10،ص7.

(4)- ابن فارس ،الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تعليق أحمد حسن بسج، دارالكتب العلمية، بيروت لبنان،ط1، ،1997 ص333.

(5) - عادل هادي حمادي العبيدي، الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية في قراءة الجحدري البصري، مكتبة الثقافة الدينية ا،لقاهرة ،ط1، 2005 ص48.

(6) -عبد الصبور شاهين، القراءات القرآنية في ضوء اللغة الحديث، مكتبة الخانجي، القاهرة ،دط، 1994، ص75.

وقياسا على ذلك، فإنّ العامية الجزائرية حظيت بمظاهر شتّى لهذه الظاهرة الصوتية، ففي كل مدينة من مدن هذا الوطن الشاسع ما يميزها عن غيرها، بل إننا نلفي في مدينة جزائرية واحدة بعض سكانها يفضل استعمال حرف والبعض الآخر يحبذ استعمال حروف مغايرة ،ولأن العامية التلمسانية تتميز بخصائص صوتية منفردة لاسيّما ظاهرة الإبدال، فقد تخلصت من الأصوات العسيرة التي تتطلب مجهودا عضليا كبيرا، وعليه فإنّ كلّ الصوامت العربيّة[1]، موجودة باستثناء خمسة منها لم يعد لها وجود، وهي كالتالي الثاء، الذال، الضاد، الظاء وأخيرا القاف، دون أن ننسى إبدال الهمزة أو تخفيفها، وهي ظاهرة موجودة في كلّ العاميات العربيّة دون استثناء، الأمر الذي دفعنا الى القيام- قدر المستطاع- بكشف اللثام عنها فجاءت كالتالي :

3 - 1- إبدال الهمزة: لما كانت الهمزة حرفا ثقيلا بعيد المخرج، صعب النطق به استعمل العرب عدة طرق للفرار منها ومن هذه الطرق إبدالها حرفا من غيرها كحروف العلة مثل الواو أو الياء أو الألف[2]، «فلا شيء أقرب من حرف العلة ولا أولى به منها» [3]، فنبدلها حرف علّة مجانسة للحركة التي قبلها[4].، يقول « جان كانتينو « عن وليام مارسي: «» وأما لهجات المغرب العربي فإنّ تطور الهمزة قد بلغ حدًا أبعد ممّا بلغه في الشرق، ذلك أنّ الهمزة كادت تضمحل تماما، فقد أشار وليام مارسي إلى أنّ الحروف الشديدة الأقصى حلقية لا تظهر إلّا في الكلمات التي أخذوها عن العربيّة الفصحى، أمّا

(1) - اعتبر اللغويون القدامى أنّ أصل حروف العربيّة 29 حرفا، انظر الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة: بيروت لبنان، ط. 1، 2002، ص41.

(2)- مكي بن أبي طالب القيسي، الكشف عن وجوه القراءات وعللها و حججها، تح محي الدين، مطبوعات المجمع العلمي، دمشق،1974،ج1، ص72.

(3)- الكتاب، ج3، ص544

(4)ابن يعيش، شرح المفصل، ج9، ص108

في اللغة الشعبيّة فإنّ الهمزة إمّا تسقط تماما أو تعوض بنصف حركة أي بواو أو بياء كما في اللهجات الشرقيّة»[1].

أ- إذا جاءت الهمزة ساكنة وما قبلها مضموم أبدلت واوا نحو مومن في مؤمن.

ب- إذا جاءت الهمزة ساكنة وما قبلها مكسور تقلب ياء نحو: ذيب في ذئب و بير في بئر.

ج- إذا كانت ساكنة وقبلها فتحة تقلب ألفا تقول العامة «راسي واجعني» بمعنى بي وجع في رأسي ، «لاباس» من لابأس وغير ذلك.

د- إذا كانت متحركة وما قبلها مد تتحول إلى ياء نحو فايدة من فائدة، مصايب من مصائب.

3 - 2 - إبدال القاف همزة : يعد صوت القاف مثالا حيا لهذا النوع من التغير الصوتي، فقد اختفى من لهجة التلمسانيين الأصليين وحل محله صوت الهمزة، ومعلوم أن تطور القاف إلى همزة هو قانون عام في لهجات معظم الحواضر العربية الحديثة، فجميع سكان الحضر في مصر والشام كما في مدينة تلمسان ينطقون القاف همزة، ممتثلين في سلوكهم اللغوي لمبدا التميز Principe de distinction، فهم يعتدون بأنفسهم كونهم متميزين عن البدو الذين ينطقون القاف قافا،يقول في هذا الصدد «جان كانتينو»: «وأما اللهجات التي صارت القاف فيها إلى مجرد همزة تنطق بغلق رأس قصبة الرئة فلهجات حضرية في أكثرها، وخاصة لهجات حلب واللاذقية، وحماه، وحمص، ودمشق وطرابلس، وبيروت، وصيدا، وصفد، وحيفا، ويافا، وبيت المقدس، وحبرون، وغزة والاسكندرية، والقاهرة، والقسم اليهودي من مدينة الجزائر، والقسم المسلم من تلمسان، وفاس»[2].

(1)- جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربيّة،ترجمة صالح القرمادي، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية 1966،دط،ص135.

(2)- جان كانتينو ، في علم الأصوات العربية ،ص109..

تعتبر تلمسان مركزا حضريا بالمحافظة الشديدة على الخصائص الاجتماعية والثقافية والتي تنعكس بالأساس على منطوق سكانها فمن المفيد أن ننوه بالطريقة التي يتباين فيها النموذجان = الحضري والبدوي – خاصة قبل النزوح نحو المدينة في العهود القليلة الفارطة حيث أن كل نموذج يمثل المجموعة الكلامية التي ينتمي إليها إما كحضر أو كبدو..

والخاصية التي تميز النموذجين اللهجيين المتباينين هي نطق الفونيم / ق / همزة في المدينة ، أما في الأماكن الريفية فينطق / ق / g، فلهجة تلمسان موسومة باستعمال الهمزة، حتى أنّه في الجزائر من يستعمل هذه الخاصية يعرف مباشرة بأنه قادم من مدينة تلمسان، فالمجتمع التلمساني يحاول من خلال هذا الاستعمال أن ينفرد بهذه الخاصية في الجزائر، وكل المغرب العربي إذا ما استثنينا مدينة فاس المغربية[1]

ويبدو أن هذا النوع من التطور في القاف قديم في اللغات السامية[2]، فقد وجدت ظاهرة إبدال القاف همزة في اللغة البونية وكذلك في لهجة مالطة[3]. كما أشارت المعاجم العربية وكتب اللغة إلى أنّ تطور القاف إلى همزة كان معروفا عند العرب في عصور الفصاحة، وأوردت لنا جملة من المفردات الفصيحة مروية بوجهين أحدهما القاف والآخر الهمزة. جاء في لسان العرب لابن منظور «زنق على عياله وزنأ عليهم اذا ضيق عليهم فقرا وبخلا» واستشهد ببيت العفيف العبدي :

لاهم أن الحراث بن جبلة زنأ على أبيه ثم قتله[4]

(1) - Philipe marçais, les parlers arabes, esquisse grammaticale de l'arabe maghrébin, Larousse, 1977, p225

(2)-فوزي حسن الشايب ، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة ، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط1،2004ص55.

(3)-أحمد علم الدين الجندي ، اللهجات العربية في التراث، ص133.

(4)- لسان العرب، مادة زنق

وروى أبو الطيب اللغوي في كتابه «الإبدال» ما جاء عن أبي عمرو قولهم: الأفز الوثبة بالعجلة والقفز الوثب[1].

وخليق بنا أن نسلم أن نطق الهمزة أخذ موقعا مستمرا ومطردا لا يعرف الشذوذ في العامية التلمسانية، ولم نجد في الكتب متى شاعت هذه الظاهرة بالضبط في المدينة، إلا أنه ينبغي أن نؤكد على أنّها ظهرت مند عهد غير بعيد، فهذا «عبد الرحمان بن خلدون» لم يشر في مقدمته إلى وجود الهمزة بدل القاف في ألسنة أهل زمانه في المغرب العربي، فقد ذكر ابن خلدون عند وصف نطق القاف لدى معاصريه (في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري) أنّ خاصية الجيل العربي في عهده هو نطقهم القاف متوسطة بين الكاف والقاف[2]، ولم يعط «ويليام مارسي» قسطا كبيرا من الشرح و البيان، بل اكتفى بإشارة خفيفة مفادها أن عددا من سكان تلمسان يصعب عليهم النطق بالقاف فيبدلونه همزة، ويؤكد ذلك أن عبد العزيز الزناقي لم يسجل لها أثرا في كتابه ق بلهجة تلمسان المطبوع سنة 1904، فقد أورد فيه القاف على أصلها الفصيح بالرغم من أنه مثل الواقع اللهجي آنذاك.

ويرى التيجيني بن عيسى أن البدايات الأولى لانتشار هذه الظاهرة، قد حدثت بعد نزوح الأندلسيين إلى شمال المغرب العربي، بدليل وجودها في المغرب الأقصى بمدينتي طنجة وفاس، ولكنها شاعت شيوعا واضحا بعد رجوع أهل تلمسان الذين هاجروا إلى الشام ومصر[3].

وتجدر الإشارة الى أنّ تلمسان كباقي المدن الحضرية طرأ عليها تغيير كبير نتيجة عوامل كثيرة، نذكر من بينها عامل النزوح الذي لعب دورا في تقليص نسبة الصفاء التي كان يتميز بها أهل تلمسان، فتوفر وسائل النقل لأهل البدو

(1)- أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث ، ص133.

(2)- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ج3، ص1283

(3)- التيجيني بن عيسى ، لهجة تلمسان وعلاقتها بالفصحى، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، ص 39

ساعد على الاتصال اليومي بأهل المدينة ضف إلى ذلك عامل المصاهرة مع البدو،الأمر الذي قلّص من نسبة الخصائص المميزة للهجة تلمسان.

ورغم هذه العوامل التي ربما شوهت وأفقدت منطوق تلمسان مميزاته الخاصة، إلّا أنّه يحسن بنا أن نسجل الدور الهام الذي يقوم به المجتمع النسوي التلمساني في سبيل الحفاظ على هذا التراث اللغوي.

3-3 - إبدال الأصوات الأسنانية: تعد الأصوات الأسنانية من الأصوات العربية التي يستصعبها اللسان البشري[1]، ونظرا للجهد العضلي الذي يصاحب نطقها، اندثرت وتحولت إلى أصوات قريبة منها، فالإنسان يتلمس أيسر السبل وأسهلها محاولا التخلص من الأصوات العسيرة للوصول إلى ما يهدف إليه من إبراز المعاني وإيصالها إلى المتحدثين معه[2].

لقد تخلصت معظم لهجات الحواضر العربية بما فيها العامية التلمسانية من الثاء والذال والظاء، وهي أصوات رخوة، فحلت محلها التاء والدال والطاء (الدال المفخمة)، وهي أصوات شديدة لا تتطلب بالمقارنة معها عناءً أو مجهودا عضليا كبيرا، بيد أنّ اللهجات البدوية حافظت على الأصوات الرخوة، ولم تبدلها، وعليه فإن الأصوات الأسنانية هي من بين أهمّ المفارقات التي تميّز بها الحضري عن البدوي.

وقد أرجع بعض العلماء علّة انتقال صفة الأصوات من الرخاوة إلى الشدة إلى أن اللسان في الأصوات الشديدة يصطدم بالحنك الأعلى؛ فيلتقي بها التقاءً محكما ينحبس معه النفس، وهذا أسهل عليه من حالة النطق بالأصوات الرخوة حيث تقف حركة اللسان عند مسافة قصيرة من الحنك ليكون بينهما مجرى يتسرب منه الهواء[3]. ومن الحروف الأسنانية التي حدث فيها إبدال في العامية التلمسانية نجد:

(1)- ابن دريد ،جمهرة اللغة ،تح رمزي منير بعلبكي ،دار العلم للملايين ،ط1، 1987،ج1،ص12.

(2)- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص253

(3)- المرجع نفسه، ص176.

أ-التاء والثاء : والأمثلة كثيرة حيث أننا لا نجد لحرف الثاء أثرا في لسانهم وعوض بصوت التاء، كما هو الشأن في بعض المدن الحضرية كالجزائر العاصمة ويمكن عد نطق الثاء تاء معيارا هاما يتميز به الحضر عن سكان القرى والأماكن الريفية الذين يحافظون في نطقهم على الثاء ولا يبدلونها تاء.

ومعلوم أنّ هذا النوع من الإبدال ساد لهجات عربية حديثة[1] وحتى قديمة[2]، وأصبح قانونا مطردا لا يعرف استثناء غير أن نطق الثاء تاء في العاميّة التلمسانية يكون دائما مصحوبا بزائدة صوتية تعطيه صفة الرخاوة فينطق (تس)، وقد لاحظنا بوضوح أنّ هذه الظاهرة متفشية بعمق في لسان جميع الفئات التلمسانية، فمن خلال مساءلاتنا، تبيّن لنا أنّ هذه الخاصية لا تتغير بين أهل المدينة فلا نسمعهم ينطقون التاء (t) التي تستعمل بين أهل الريف. من ذلك قولهم : تسئيل في ثقيل، تسوم في ثوم وغيرها.

وقد انتقل مخرج الثاء إلى الوراء قليلا فالتاء من الأصوات الأسنانية اللثوية والثاء من الأصوات الأسنانية وهما يتصفان بالهمس ، وهذا القرب المخرجي مع الاتحاد في صفة الهمس هو الذي أدى إلى إبدال الثاء تاءً . وهذه الظاهرة اللغوية نسبتها بعض المصادر إلى اليهود[3]، وبعضها إلى بني قريظة وبني النظير[4]، وبعضها إلى يهود خيبر[5]وقد قال شاعرهم السموأل :

(1)- نجد هذا النوع من الإبدال في لهجة الشاميين، والمصريين ،وبعض المغاربة.

(2)- ابن الجوزي ،تقويم اللسان ،تح عبد العزيز مطر ،دار المعارف ،القاهرة ،ط2، 2006، ص89.

(3)- أبو زيد الأنصاري،النوادر في اللغة ،تح محمد عبد القادر، دار الشروق،بيروت،ط1989،1،ص347.

(4)-أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن سيده ، المخصص، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، دط،دت،ج3، ص95.

(5)- الزمخشري، الفائق في غريب الحديث ،تح ابراهيم أبو الفضل وغيره ،عيسى البابي الحلبي ، ط2 دت،ج1،ص351.ولسان العرب مادة ،خ ب ت

وآتاني اليقين انّى إذا ما مت وإن رمّ أعظمي مبعوت .

ينفع الطيب القليل من الرزق ولا ينفع الكتير الخبيت.

وفي هذه الأبيات وقع إبدال الثاء تاء في لفظتين وهما مبعوت والخبيت وهذه لهجة الشاعر وإنما أراد مبعوث والخبيث[1] .

ب –الدال والذال: لقد تطور صوت الذال في العامية التلمسانية وكل عاميات الحواضر العربية إلى دال كما في دبح وكداب وغير ذلك، ويمكن تفسير هذه الفوارق النطقية التي تبدو على ألسنة المنحدرين من منشأ مدني أو ريفي؛ ذلك أنّ بيئة الريف أو الجبل ترمز إلى خشونة الطبيعة وقساوتها أما بيئة المدينة فرقيقة تمثل رقة الحضارة ونعومتها فبديهي أنّ طبيعة البيئة السهلة في المدن والحواضر تنتج إنسانا رقيقا في تكوينه و طبعه فيلجأ إلى الأصوات السهلة التي تميزه عن خشونة البدوي .

وما من شك أنّ التلمسانيين تأثروا بالأندلسيين الذين وفدوا إلى المدينة بعد سقوط غرناطة سنة 1492، فقد وردت شواهد قوية في كتب لحن عامة تبين لنا أن من أبرز خصائص عربية الأندلس قلبها الذال دالا[2]، الأمر الذي يفسر شيوع هذا الخطأ في لهجتهم العامية إلى يومنا هذا.

ومما يُسوغ الإبدال بينهما هو أن الذال انتقل مخرجه إلى الداخل فتحولت صفته الرخوة إلى صفة شديدة ونطق دالا. ويشير عبد العزيز مطر إلى أن نطق الذال دالا ربما يكون ناتجا عن تصحيف وقع فيهما لاتفاق صورتهما ماعدا الإعجام[3]، وفي الوقت نفسه يعلل لهذه الظاهرة بأنها ناجمة عن التطور الصوتي في المخرج وفقا لنظرية السهولة في النطق[4].

(1)- المصدر نفسه، ج1،ص351.

(2)- أبو بكر محمد بن الحسن بن مدحج ،لحن العوام ، تحقيق عبد الوهاب التازي سعود، مطبعة فضالة، المملكة المغربية، 1995،ص134.

(3)- عبد العزيز مطر،لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة،دار الكتاب العربي ، القاهرة،دط،1967،ص226 - 227.

(4) - ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية،ص176

ج - الطاء (أو الدال المفخَمة) و الضاد أو (الظاء): لم يعد لصوتي الضاد و الظاء وجود في اللهجة التلمسانية الحديثة بل وفي كثير من اللهجات العربية العامية، فقد تحول إلى أصوات أخرى مشابهة حسب الأفراد والسياقات المختلفة التي يقع فيها هذا الصوت العربي.

ويبدو أن صوت الضاد كان ثقيلا على بعض الألسنة العربية، ناهيك عن المستعربين الذين دخلوا الإسلام، الأمر الذي جعلها تتطور في كثير من اللهجات العربية و الجزائرية[1] على وجه الخصوص إلى طاء أو دال مفخمة، ولقد ذكر الدكتور «إبراهيم أنيس» بأن الضاد القديمة كانت صعبة النطق على أهالي الحواضر التي فتحتها الجيوش العربية الإسلامية فأبدلوها طاءً أو ذالا مفخمة، وهي خاصية ميزتهم عن كل السكان البدو الذين استطاعوا أن يحافظوا عليها إلى يومنا هذا.

ومما يمتازبه الحضر في مدينتي تلمسان والجزائر العاصمة إبدالهم الظاء المطبقة (أو الضاد) طاء مطبقة، وترجع العلة إلى سهولة انتقال الظاء إلى الطاء لقربها في المخرج واشتراكهما في صفة الإطباق والاستعلاء وعليه تغيرت صفة الرخاوة في الظاء إلى صفة الشدة في الطاء ومن أمثلة الطاء التي سادت في قولهم : العطم ، رمطان ، طهر، بيطة ..

والظاهر أن هذه الميزات موجودة غالبا عند الفئة النسوية المسنّة باعتبارها أكثر حفاظا على الملمح الأصلي للهجة التلمسانية، في حين وجدنا خلال إقامتنا بأنّ باقي الفئات الاجتماعية الأخرى ينطقون صوتي الظاء والضاد (دون التمييز بينهما) دالا مفخمة، ومردّ ذلك يعود إلى الاحتكاك بسكان القرى و المدن المجاورة ناهيك عن تأثير المدرسة والتحكم في اللغة العربية الفصحى لاسيّما أصواتها، ومن أمثلته في اللهجة قولهم : دربني ، يدعف، الدلام.

---

(1)- نجد هذه الميزة في لهجة العاصمة، انظر نصيرة بودهينة، اللهجة الدزيرية، رسالة ماجيستير، جامعة الجزائر،1998، ص38.

ويبدو أن إبدال الظاء دالا حدث بعد إبدال هذا الصوت ذالا، ثم أبدل دالا كعادة التلمسانيين في التخلص من الأصوات الأسنانية، وإبدال الظاء ذالا له تبريره أيضا من الناحية الصوتية إذ أنّهما يّتفقان في المخرج ، ثم أبدل الذال دالا فزالت صفة الرخاوة، وكما هو معروف فإن الأصوات الشديدة أيسر نطقا من الأصوات الرخوة، ومن ثمة لجأت العامة في تلمسان إليها للاقتصاد في الجهد العضلي.

وفي صفوة الكلام يستقر لدينا أنّ ظاهرة الإبدال بين الصوامت، وإقامة بعضها مقام بعض من بين أهم الظواهر الصوتية التي شاعت على لسان الناطقين بالعامية التلمسانية، وأصبحت سنّة من سننهم وقانونا من قوانينهم أثناء الممارسة الكلامية، وذلك لتحقيق قدر من سهولة النطق والاقتصاد في الجهد العضلي المبذول.

المراجع والمصادر:

1- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،مصر،دط،1965.

2-سعيد الأفغاني، قصة العامية في الشام، مجمع اللغة العربية في القاهرة، 1978،ج41.

3-التيجيني بن عيسى ، لهجة تلمسان وعلاقتها بالفصحى، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان،1993.

4-الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)البيان و التبيين ،تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت لبنان،دت ،ج1

5- ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية ،لبنان، دت،ج1.

6-أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب، 1983، ج1.

7-ابن الجوزي ،تقويم اللسان ، تح عبد العزيزمطر ،دارالمعارف ،القاهرة،ط2، 2006.

8-عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية، الجزائر،2007، ج1.

9-عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، تحق علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر الفجالة ، القاهرة ،ط3،دت، ج4.

10-ابن دريد ،جمهرة اللغة ،تح رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين ،ط1، 1987،ج1

11-عبده الراجحي،اللهجات العربية في القراءات القرآنية ،المعرفة الجامعية، 1998.

12-أبوبكرمحمد بن الحسن بن مدحج الزبيدي ،لحن العوام ، تحقيق عبد الوهاب التازي سعود، مطبعة فضالة، المملكة المغربية، 1995

13 - سيبويه (أبو بشرعمرو بن عثمان بن قنبر) .الكتاب,تحقيق عبد السلام محمد هارون, مكتبة الخليج، القاهرة، ط1982،2

14-فوزي حسن الشايب ، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة ، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط2004،1.

15- عبد الصبور شاهين، القراءات القرآنية في ضوء اللغة الحديث، مكتبة الخانجي، القاهرة ،دط، 1994.

16-محمد عبد الله عطوات، اللغة بين الفصحى و العامية، دارالنهضة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2003.

17-عادل هادي حمادي العبيدي، الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية في قراءة الجحدري البصري، مكتبة الثقافة الدينية ا،لقاهرة ،ط1، 2005

18-ابن فارس ،الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تعليق أحمد حسن بسج،دارالكتب العلمية، بيروت لبنان،ط1، 1997 .

19-مكي بن أبي طالب القيسي، الكشف عن وجوه القراءات وعللها و حججها، تح محي الدين، مطبوعات المجمع العلمي، دمشق،1974،ج1.

20- جان كانتينو ، في علم الأصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية1966 دط.

21-عبد العزيز مطر،لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة،دار الكتاب العربي ، القاهرة،دط،1967

22-ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، طبعة جديدة محققة.

23-هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمد عياد ، عالم الكتب ، لبنان، ط 2 ،1990

24-علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، نهضة مصر، مصر، ط3، 2000،

25- موفق الدين بن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت ،لبنان،دت، ج10.

26- انظر الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة بيروت ،لبنان،ط2002،1،ص41.

27-Philipe, marçais, les parlers arabes, esquisse grammaticale de l'arabe maghrébin, Larousse, 1977.

لام التعريف وتعدد معانيها الوظيفية في سياق الكلام

أ.رحمونة معمري
جامعة الجزائر (2)

مقدمة:

كثيرة هي المواضيع النحوية التي لم يحسم فيها الأمر، و بقيت محل خلاف و جدال إلى يومنا هذا، ولعل أهم أسباب ذلك اختلاف مناهج البحث والدراسة و اختلاف زوايا النظر. ومن هذه المواضيع: تعدد المعاني الوظيفية للأدوات التي تعتبر من العناصر اللغوية التي يصعب الاستغناء عنها فلا تكاد تخلو جملة أو عبارة من أداة على الأقل.

و» لام التعريف» من الأدوات التي سببت للنحاة حيرة و اختلافا في تعداد وتصنيف أنواعها و معانيها الوظيفية، و ما اختباري لها إلا لبيان مدى أهميتها في الاستخدام اللغوي، وتعداد معانيها الوظيفية في ضوء السياق بالمتفق عليه والمختلف فيه بين العلماء، وكيف أن تفسير الكلمة أو حتى الآية يتغير تبعا لتغير معنى اللام فيها.

فما المقصود بتعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد؟ وكيف يتعدد المعنى في الأدوات؟ وما هي لام التعريف وما هي خصائصها؟ وما هي المعاني التي تفيدها في سياق الكلام؟

هذه التساؤلات وغيرها سنحاول الإجابة عنها فيما سيأتي من مباحث.

1 - تعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد:

إنّ ظاهرة تعدد المعنى تحيلنا بالضرورة إلى مفهوم « المشترك اللّفظي» الذي حدّه أهل الأصول بأنّه: «اللفظ الواحد الدّال على معنيين مختلفين، فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة «[1]، أي أنّ في أصل الوضع أطلق اللفظ الواحد للدلالة على أكثر من معنى واحد، مثل كلمة (الخال) تطلق على الشامة في الوجه وعلى أخ الأم.

وإذا نظرنا إلى المباني وجدناها «تتسم بالتعدد والاحتمال، فالمبنى الواحد منها صالح لأن يعبر عن أكثر من معنى واحد ما دام غير متحقق بعلامة ما في سياق ما، فإذا تحقق المعنى بعلامة أصبح نصاً في معنى واحد بعينه تحدّده القرائن اللفظية والمعنوية والحالية على السواء».[2]ولام التعريف من المباني التي يتعدد معناها وفق السياق الّذي وردت فيه.

فكما هو معلوم أن لام التعريف من مباني التقسيم وتندرج تحت قسم الحروف والأدوات، والوظيفة العامة التي تنهض بها الأداة أساسا هي التعليق، بالإضافة إلى أن كل طائفة من الأدوات تؤدي وظيفة خاصة تسمى الأدوات باسمها، فالنفي مثلا وظيفة خاصة تؤديها أدوات النفي، والاستفهام أدوات الاستفهام والشرط أدوات الشرط. [3]

وقد لوحظ من خلال تتبع استعمال الأدوات في اللغة أن قسما منها يتعدد معناه الوظيفي باتجاهين :

(1)- السيوطي، جلال الدين: المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت،(د.ط)، 1986، ج1، ص 369.

(2)- ينظر: د. تمام حسّان: اللغة العربية معناها و مبناها، عالم الكتب، ط3، 1998، ص163.

(3) - ينظر: د.الساقي (فاضل مصطفى): أقسام الكلام العربي -من حيث الشكل و الوظيفة - مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1988، ص 328 , وتمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص 125

الأول : يتعدد ضمن إطار الوظيفة الأساسية « التعليق»، أي أن الأداة لا تخرج عن كونها أداة، ولا تؤدي غير وظيفة الأداة. ومن أمثلة ذلك الهمزة، فمن المعلوم أنها تؤدي وظيفة التعليق في الجمل الاستفهامية أي أن تكون للاستفهام، إلا أنها قد تستعمل لنداء القريب، أو للتعجب نحو قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾الفيل: 01، أو للإنكار الإبطالي نحو قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ الحجرات: 12، وغير ذلك. بالإضافة إلى ما درسه النحاة تحت عنوان : « نيابة الحروف بعضها عن بعض»، ومن ذلك «الباء» التي تنوب عن الهمزة، وعن « لام التعليل» وعن «مع»، وعن « في»، وعن « عن» وعن «على» وعن «من»...في بعض المواضع، والسياق هو الّذي يحدد ذلك. والأمثلة كثيرة في هذا الوجه من التعدد.

الثاني : يتعدد بخروجه عن آداء وظيفة التعليق إلى آداء وظيفة أووظائف أخرى تستفاد من السياق، وتحددها القرائن، ومن أمثلة ذلك خروج همزة الاستفهام عن آداء وظيفة التعليق إلى وظيفة التسوية نحو قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾البقرة: 6، وقيام الكاف مقام الاسم، وتكون بمعنى « مثل» كقولنا: (زيد كالأسد)، وأيضا استعمال «إلى» بمعنى « عند» (الاسم)[1] والأمثلة كثيرة لا يسع المقام لحصرها. ولام التعريف يتعدد معناها الوظيفي وفق هذين الاتجاهين.

(1) - ينظر: الساقي: نفس المرجع، ص 328 وما بعدها.

2 -لام التعريف ماهيتها و خصائصها:

سنحاول فيما يلي أن نقف على ماهية لام التعريف و خصائصها من اختصاص، و بساطة أو تركيب، و معان وظيفية تفيدها من خلال السّياق .

و حتى لا يكون هناك خلط في المفاهيم لا بد من الإشارة إلى أنّا أخذنا مصطلح الأداة مرادفا لمصطلح الحرف «حرف المعنى »، كما هو الحال عند سيبويه[1]، فمتى أطلق الحرف أريد به الأداة و العكس، رغم علمنا أن مصطلح الأداة أوسع من مصطلح الحرف.

أ ـ لام التعريف و الحروف المختصة :

أولا: مفهوم الاختصاص في الحروف :

لقد كان للنّحاة تقسيمات مختلفة للحروف، فقسموها باعتبار عدّتها أي: العدد و الكم إلى أحادية و ثنائية إلى غاية الخماسية، و قسموا الزائد على الحرف الواحد إلى بسيط و مركب، فالبسيط أو المفرد نحو(من، عن، في، هل ...) والمركب ما كان مركبا من حرفين مختلفين أو أكثر نحو لولا (لو + لا)، لوما (لو + ما)، هلا (هل + لا) - وإن اختلف النحاة في بساطة هذه الحروف أو تركيبها-

و قسّموها أيضا باعتبار عملها أو عدم عملها، فالعاملة نحو حروف الجر و النصب و الجزم، و غيرها، وغير العاملة نحو(قد، والسين، و سوف، ولام التعريف ...)، كما قسّموها باعتبار دلالتها أي: ما تحدثه من معنى لم يكن نحو حروف النقل و التخصيص و التعدية و الربط و هلم جرا، و في هذا السياق قال أحد النحاة «المهلّبي»:

تَفَطّنْ فإنّ الحرفَ يأتي لستة * * لنقل و تخصيص وربط و تعدية

---

(1) - د. خضير (محمد أحمد): الأدوات النحوية و دلالاتها في القرآن الكريم , مكتبة الانجلو المصرية , مطبعة محمد عبد الكريم، (د.ط)، (د.ت)، ص 07 .

وقد زيد في بعض المواضع واغتدى ** جوابا، كسيت العزو الأمن ترديه

أما النقل فمن الإيجاب إلى النفي، ومن الخبر إلى الاستخبار، وإلى التمني والترجي والتشبيه، والتّخصيص للمضارع بالاستقبال بالسين وسوف، و للاسم بلام التعريف والربط بحروف الجر، وحروف العطف، والتعدية تدخل فيها الواو في المفعول معه، وإلا في الاستثناء، والجواب كنعم ولا.

وقد قسموها كذلك باعتبار اختصاصها وعدم اختصاصها.[1]

لكن ما المقصود بالاختصاص؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه فيما يلي:

الاختصاص لغة : مصدر اختص بالشيء : انفرد به دون غيره. [2]

اصطلاحا : هو اختصاص حروف الجر و النداء بدخولها على الاسم فقط، أو اختصاص أدوات العرض و التّحضيض و الشرط بدخولها على الفعل[3] كقولنا : يا عمرو أقبل إليّ، حيث دخلت أداة النداء « يا» على الاسم « عمرو»، وحرف الجر «إلى» على الضمير « ياء المتكلم» وكقوله تعالى:﴿... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ...﴿٣﴾﴾الطلاق: 3، حيث دخلت أداة الشرط « من « على الفعل «يتوكل».

ثانيا: جهة الاختصاص في لام التعريف:

ذكر ابن السّراج في « الأصول « أنّ الحروف لا تخلو من ثمانية مواضع: إما أن تدخل على الاسم وحده كلام التعريف، أو الفعل وحده كسوف والسين، أو لتربط اسماً باسم، أو فعلا بفعل كحروف العطف، أو لتربط فعلاً باسم

(1) - ينظر: السيوطي: الأشباه والنّظائر في النحو , دار الكتب العلمية , بيروت – لبنان , ج2 , ص 16 وما بعدها .

(2) - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، ط1، 1997، مادة (خ.ص.ص) ج7، ص 24.

(3) - د. بابستي (عزيزة فوال): المعجم المفصل في النحو العربي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1992م، ج 1، ص 59 .

كحروف الجر نحو: مررت بزيد، أو على كلام تام نحو: أعمرو أخوك؟ و ما قام زيد، أو لتربط جملة بجملة و هي أدوات الشرط، أو تكون زوائدا نحو قوله تعالى:﴿...فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ...﴿١٥٩﴾﴾آل عمران:159 [1].

وبناء على ما ذكره، فإن لام التعريف من الأدوات المختصة بالأسماء، ويؤكد هذا أيضا قول الزمخشري في «مفصله»: «لام التعريف هي اللام الساكنة الّتي تدخل على الاسم المنكور فتعرّفه...»[2].

غير أنّها «قد تدخل على الفعل، ولم يوجد هذا إلاّ في الشعر كقول الفرزدق:

مَا أَنْتَ بِالحَكَمِ التُرْضَى حُكُومَتُهُ ولاَ الأَصِيلِ وَلاَ ذِي الرَّأْيِ وَالجَدَلِ

و قيل فيه: إنّ «أل» اسم موصول، دخل على مضارع مبني للمفعول لمشابهته لاسم المفعول»[3]، وقيل أيضا: «إنها بقية (الّذي)»[4].

و مهما يكن من أمر فإنّها مختصة بالأسماء على جميع وجوهها: من كونها لتعريف العهد، أو الجنس، أوزائدة، أو موصولة، أو غير ذلك من أقسامها على حد تعبير «الشاطبي» في «شرح ألفية ابن مالك»[5].

ب ـ «أل» التعريف أم همزة التعريف أم لام التعريف ؟

اختلف النّحاة حول أداة التعريف، ونجم عن هذا الاختلاف ثلاثة مذاهب:

---

(1)- ابن السّراج: الأصول في النحو، تح: د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1996، ج1، ص 43-42.

(2)- الزمخشري: المفصل في صنعة الإعراب، فهرسة:د.إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1999، ص424

(3)- البغدادي: خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب، فهرسة د.محمد نبيل طريفي، إشراف د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1998، ج1، ص50.

(4)- المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تح: د.فجر الدين قباوة و الأستاذ محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص201.

(5)- البغدادي: خزانة الأدب، ج1، ص51.

المذهب الأول: و يمثله الخليل إذ يرى أن «أداة التعريف «أل» برّمتها، وهمزتها همزة أصلية، وهي همزة قطع وصلت لكثرة الاستعمال، وهي حرف واحد ك»قد»، إذ لا يمكن القول الألف واللاّم، كما لا يمكن القول في قد: القاف والدال».(1)

ويقوي هذا المذهب قطع «أل» في أنصاف الأبيات، إذ لو كانت اللام وحدها حرف التعريف لما جاز فصلها من الكلمة الّتي عرّفتها، لا سيما و اللام ساكنة، والساكن لا ينوى به الانفصال نحو قول «عبيد بن الأبرص»:

يا خَليلَيَّ إربَعا وَاستَخبِرا الـ　　　مَنزِلِ الدارِسَ مِن أَهلِ الحَلال

مِثلَ سَحقِ البُردِ عَفّى بَعدَكَ الْ　　　قطرُ مَغناه و تأويبُ الشِّمالِ(2)

و أيضا الوقوف عليها عند الاضطرار كقول الشاعر:

عجِّلْ لنا هذا و ألحقنا بِذَا الْ		الشَّحم إنا قد مَلِلْناه بَجَلْ

فإفراده «أل» وإعادته إياها في البيت الثاني يدل من مذهبهم على قوة اعتقادهم لقطعها، فصار قطعهم «أل» وهم يريدون الاسم بعدها كقطع النابغة الذبياني قد وهو يريد الفعل بعدها:

أفِدَ* التّرحُلُ غير أن رِكابنا		لما تَزُلْ برحالنا و كأن قدِ

فصار قطع «أل» من الاسم كقطع «قد» من الفعل، لأنّ التقدير فيه (وكأن قد زالت).(3)

و مما يدل على أنّ أصل الهمزة همزة قطع هو لزومها الفتح،

(1)- سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج3، ص324.

(2) - ينظر: ابن جني: سر صناعة الإعراب ، تح: د.حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2، 1993، ج1، ص333.

* أفد = قرب.

(3)- ينظر: ابن جني: نفس المصدر، ص334.

و همزة الوصل مكسورة، وإن فتحت فلعارض كهمزة « أيمُن الله «، فإنها إنّما فتحت لئلا ينتقل من كسر إلى ضم دون حاجز حصين».[1] و أيضا إثباتها في نحو قوله تعالى: ﴿...ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ ...٥٩﴾يونس: 59،

و قوله: ﴿...ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ...١٤٣﴾الأنعام: 143، ونحو قولهم في القسم: (أفألله) ولو كانت همزة وصل لحذفت البتة.[2]

و هناك حجج أخرى تثبت أنّ «أل» أداة التعريف منها: «أنّ العرب لا يبدؤون بالساكن، وأنّ أداة التعريف عند الأنباط هي «الألف» و «اللام»، و الأنباط على اتصال وثيق بالعرب يوم وضعوا منهاجهم الكتابي، و أن أداة التعريف في لغة حمير هي «الهمزة» و «الميم»، ويؤكد هذا ما يروى عن رجل أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: « هَلْ مِنَ امْبِرِّ امْصِيام في امْسَفَر؟».

فرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً: « ليس امبِرُّ امْصيامُ في امْسَفَر»».[3]

المذهب الثاني: و يمثله المبرد، إذ يقول: «إنّ الهمزة المفتوحة هي أداة التعريف وحدها، ثم ضُمّ إليها اللام، كي لا يلتبس التعريف بالاستفهام، وقد اعتمد بعض المحدثين في إثبات هذا الرأي على أنّ أداة التعريف في العبرية – إحدى اللغات السامية- هي (ه) (p) القريبة من مخرج الألف، و التبادل مألوف بين الهمزة و الهاء في العربية و العبرية».[4]

(1)- الأشموني: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، فهرسة :حسن حمد، إشراف: د.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان ، ط1: 1998، ج1، ص165.

(2)- ينظر ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج1، ص 335-334.

(3)- عزيزة فوال: المعجم المفصل في النحو العربي، ج1، ص218.

(4)- عزيزة فوال: نفس المرجع ، ص217.

المذهب الثالث : و يمثله سيبويه، و يؤيده ابن جني، إذ يرى أنّ أداة التعريف هي اللام وحدها، و أن الهمزة همزة وصل دخلت عليها لسكونها، والدليل على ذلك شدة امتزاج أداة التعريف بما عرفته، بدليل نفوذ الجر بحرفه إلى ما بعد أداة التعريف نحو قولهم: (عجبت من الرّجل، و مررت بالغلام)، ولو كانت الأداة حرفين كـ«قد» و «هل» لما جاز الفصل بها بين الجار و المجرور به، وبدليل إحداث هذه الأداة بدخولها معنى في ما عرفته لم يكن قبل دخولها، وهو معنى التعريف، وصار المعرّف كأنه غير ذلك المنكور، و شيء سواه، و لهذا أجازوا الجمع بين رجل والرّجل، و غلام و الغلام قافيتين من غير استكراه و لا اعتقاد إبطاء* فصارت أداة التعريف للزومها المعرّف كأنها مبنية معه كياء التحقير و ألف التكسير. وأيضا دليل التنكير و هو التنوين في آخر الاسم على حرف واحد، فينبغي أن يكون دليل التعريف في أول الاسم كذلك، لأنّهما متناقضتان.[1]

بعد عرضنا لهذه المذاهب وحجة كل مذهب نصل إلى نتيجة هامة و هي أنّ أداة التعريف هي اللام وحدها لا الهمزة وحدها، و لا «أل» برمتها، وذلك لعدة أسباب منها:

أصحاب المذهب الثالث ردّوا حجج المذهب الأول بحجج قوية ومقنعة منها:

أنّ قطع «أل» في أنصاف الأبيات و الوقوف عليها ليس دليلاً على أنّها حرف واحد للتعريف لأن الهمزة لمّا لزمت اللام لسكونها، وكثر اللفظ بها صارت كالجزء منها من جهة اللفظ لا المعنى، وجرت مجرى ما هو على حرفين نحو:

---

(1)* الإبطاء هو تكرار كلمة الرّوي بلفظها و معناها من غير فاصل أقله سبعة أبيات، وهو عيب من العيوب اللغوية للقافية، ينظر: الاستربادي: شرح كافية ابن الحاجب، ج3، هامش ص321.

- ينظر ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج1، ص335 و ما بعدها.

هل وبل، فجاز فصلها في بعض المواضع لهذه العلّة. ثم إنّ قطعها كذلك لا يدل على انفصالها عمّا عرّفته بدليل أنّه جاء في الشعر قطع لبعض الكلمة وما هو منها أصل في النصف الأول، وإتمامه في النصف الثاني، دون أن يدل ذلك على انفصال بعض الكلمة من بعض نحو قول الشاعر:

يا نَفْسِ أكلاً واضْطِجا		عاً نفسِ لَسْتِ بِخالِدَة

أما قطع الهمزة في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فعارض وليس أصلاً حتى لا يلتبس الاستفهام بالخبر.[1]

وأما فتحها فلتخالف حركتها في الأسماء والأفعال.[2] وما يؤيد هذه الحجة قول «الهروي» في «الأزهية» : «واعلم أنّ ألفات الوصل الّتي في أوائل الأسماء تبدأ كلها بالكسر، إلاّ ألف لام التعريف وألف «أيمُن الله» في قول البصريين، فإنهما يبتدئان بالفتح ليفرق بين دخولها على الاسم و بين دخولها على الحرف...، لأنّ الألف التي مع لام التعريف داخلة على حرف...».[3]

لكن لم كانت أداة التعريف حرفاً واحداً ساكناً ؟

الجواب: أنّهم أرادوا مزجها بما بعدها لما تحدثه فيه من المعنى فجعلوها على حرف واحد ليضعف عن انفصاله مما بعده، وأسكنوه ليكون أبلغ في الاتّصال لأن الساكن أضعف من المتحرك.[4]

وسبب أخر حسب «الفاخوري» أنّ المذهب الثاني هو أقرب ما يكون إلى ما هو معهود في الأصول السامية.[5]

(1)- ينظر: ابن جني: نفس المصدر، ج1، ص340 وما بعدها، وينظر: ابن يعيش: شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة، ج9، ص19-18.

(2)- ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج1، ص117.

(3)- الهروي: الأزهية في حروف المعاني، تج: عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط2، 1981، ص28.

(4)- ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج1، ص346.

(5)- ابن هشام: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تح: الفاخوري، دار الجيل، بيروت،

وهذا ليس كافيا، لأنّه قد يوجد في العربية ما لا يوجد في الأصول السامية لأن لكل لغة خصوصياتها ومميزاتها، حتى وإن انتمت لنفس الأصل، والفروق الموجودة بين اللغة العربية واللغة العبرية خيردليل على ذلك.

قبل الانتقال من هذا العنوان إلى آخرلابد أن نشير إلى أنّ هناك من يرى أنّه لا اختلاف بين الخليل وسيبويه في أنّ أداة التعريف هي «أل» برمتها، وإنّما الخلاف بينهما في الهمزة أزائدة أم أصلية ؟ ومن هؤلاء ابن مالك.

وهناك من يرى أن المذاهب الثلاثة هي: الأول: المعرّف «أل» والألف أصل، والثاني: المعرّف «أل» والألف زائدة، والثالث: المعرّف «اللام» وحدها[1].

ج ـ المعاني الوظيفية الّتي تفيدها لام التعريف:

سبق أن ذكرنا أنّ لا م التعريف يتعدد معناها الوظيفي باتجاهين :

إمّا أن يتعدد ضمن إطار الوظيفة الأساسية (التعليق): أي أنّها لا تخرج عن كونها أداة ولا تؤدي غيروظيفة الأداة.

وإمّا أن يتعدد بخروجها عن أداء وظيفة التعليق إلى أداء وظيفة أخرى تستفاد من السياق، وتحددها القرائن. وسنحاول فيما يلي الوقوف على هذه المعاني.

لام التعريف: أداة من الأدوات «تؤدي وظيفة التعريف في الاسم المفرد، فدخولها عليه معناه سلب التنكير منه، فالفرق بين الاسم النكرة والاسم المعرف بها كالفرق بين المطلق والمقيّد».[2]

وهي إذ تقوم بهذه الوظيفة الأساسية أي التعريف تنقسم إلى: عهدية، وجنسية، والّتي للحضور، والّتي لبيان الحقيقة، والّتي للغلبة، والّتي للاستغراق، والمبدلة من ضميربالمتفق عليه والمختلف فيه.

ط1، ج1، ص144.

(1)- ابن هشام: شرح قطر الندى وبل الصدى ، فهرسة: د. اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ،ط1، 1996، ص110.

(2)- الساقي: أقسام الكلام العربي، ص381.

1 ـ العهدية: هي الّتي عهد المخاطب مدلول مصحوبها قبل ذكره -أو أثناء ذكره- أي لقيه وأدركه. يقال: عهدت فلاناً أي أدركته.[1] و هي ثلاثة أقسام:إما أن تكون للعهد الذكري، أوللعهد الحضوري، أوللعهد الذهني.

العهد الذكري: و هي ما سبق لمصحوبها ذكر في الكلام، كقولك: (جاءني ضيف فأكرمت الضيف)، أي الضيف المذكور، و منه قوله تعالى:

﴿..كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ...١٦﴾ المزمل: 15 - 16، ونحو قوله تعالى:﴿...مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ...٣٥﴾النور: 35. وعبرة هذه أن يسدّ الضمير مسدّها مع مصحوبها.[2] فلك أن تقول: «جاءني ضيف فأكرمته، وسبب هذا التعريف يرجع إلى ذكر النّكرة مرتين في الكلام بلفظ واحد، تكون في الأولى مجرّدة من اللام العهدية و في الثانية مقرونة بها، و هذه اللام تربط بين النكرتين، وتحدد المراد من الثانية بأن تحصره في فرد واحد هو الّذي تدل عليه النكرة الأولى، وهذا التحديد و الحصر هو الّذي جعل الثانية معرفة لأنّها صارت معهودة عهداً ذكرياً»[3]. و «اللفظ السابق قد يكون مذكوراً صراحة كما في الأمثلة السابقة (ضيف، رسول، مصباح، زجاجة)، وقد يكون كناية نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾آل عمران: 36، فالذكر تقدم ذكره في اللفظ مكنياً عنه بما في قولها: ﴿نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي

(1)- الأستربادي(رضي الدين) : شرح كافية ابن الحاجب، دار الكتب العلمية ، ط1، 1998، ج3، ص322.

(2)- الغلاييني مصطفى: جامع الدروس العربية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط25، 1991، ص147 وما بعدها.

(3)- عباس حسن: النحو الوافي، ج1، ص (424-423).

بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾[آل عمران 35]، فالنّذر كان خاصاً بالذكور، والأنثى تقدم ذكرها صريحاً في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران 36]».[1]

العهد الحضوري: وهي التي يكون مصحوبها حاضراً في الحس والمشاهدة وقت الكلام[2]، كقولك لمن سدد سهما «القرطاس» أي أصب القرطاس الحاضر وقت الكلام، وكقوله تعالى:﴿...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴿٣﴾﴾المائدة: 3 ، أي هذا اليوم الحاضر وهو يوم عرفة من حجّة الوداع، وحكم هذه اللام أنّها تحقق وتعرف النّكرة في وقت وقوع المدلول، وأثناء الكلام.[3]

و يرى «المرادي» و» الأشموني» أن هذه اللام هي التي يكون مصوحبها حاضراً حساً -كما سبق أن رأينا- أو علماً أي: حاضر معناه في علم المخاطب كقوله تعالى: ﴿...إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ...﴿٤٠﴾﴾التوبة: 40 [4]، غير أن الحضور العلمي نوع قائم برأسه ولا يعود إلى العهد الحضوري كما سيأتي بيانه لاحقاً.

و كثيراً ما تأتي هذه اللاّم في صدر الكلمات الّتي بعد أسماء الإشارة نحو: (جاءني هذا الرجل)، أو بعد «أيّ» في النّداء نحو: (يا أيّها الرجل).[5]

غير أنّ «المرادي» و «السيوطي «يريان أنّ هذا النوع أي: الواقعة بعد أسماء الإشارة و «أيّ» لا يعود إلى العهدية، و إنّما هو نوع قائم بذاته يطلقون عليه اسم **لام الحضور**.

---

(1)- الأشموني: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج1، ص 167.

(2)- د. إميد علي السيد: في علم النحو ، دار المعارف، القاهرة ، ط7، 1997، ج1، ص163.

(3)- ينظر: عزيزة فوال: المعجم المفصل في النحو العربي ، ج1، ص220 وينظر: عباس حسن: النحو الوافي، ج1، ص425.

(4)- ينظر: الجنى الداني، ص193، وشرح الأشموني، ج1، ص167.

(5)- عباس حسن: النحو الوافي، ج1، هامش1،ص 425.

فيقول المرادي: « أل» لفظ مشترك يكون حرفاً و اسماً. وجملة أقسامها أحد عشر قسماً:

الأول: أن تكون حرف تعريف، و الثاني: أن تكون للحضور، و هي الواقعة بعد اسم الإشارة نحو:﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾البلد: 1، وبعد (أيّ) في النّداء نحو: يا أيّها الرجل، وفي نحو: الساعة و الوقت إذا أريد به الحاضر، و هذا القسم راجع إلى الذي قبله، فقال بعضهم: يرجع إلى الجنسية...، وقيل: بل هي راجعة إلى العهدية»[1]. والظاهر في تقسيمه هذا أنّ الأداة هذه ليست للتعريف، إلا أنّه يستدرك وينسبها إليه.

أما السيوطي فيقول: « تنقسم اللام إلى تسعة أقسام: أحدها لتعريف الجنس...، الثاني لتعريف عهد وجودي بين المتكلم والمخاطب...، الثالث لتعريف عهد ذهني...، والرابع لتعريف الحضور كقولك: هذا الرجل، و هو يصحب اسم الإشارة، وقياس يا أيّها الرجل وما شاكله أن يكون من تعريف الحضور بوجود القصد إليه بالنداء».[2] و أيضاً ابن جني يراها قسماً قائماً برأسه ويسميها تعريف الواحد بغير عهد فيقول فيها: « تعريف الواحد بغير عهد قولك لمن لم تره قط ولا ذكرته يا أيّها الرجل أقبل، فهذا تعريف لم يتقدمه ذكر ولا عهد».[3]

ذكرنا أنّ اللام الّتي للعهد الحضوري كثيراً ما تأتي بعد أسماء الإشارة، وبعد أيّ مما يعني أنّها يمكن أن توجد في مواضع أخرى، حصرها ابن عصفور بأنها لا تقع إلا بعد أسماء الإشارة أو « أي « في النداء , أو «إذا « الفجائية نحو: خرجت فإذا الأسد , أو في اسم الزمان الحاضر نحو:» الآن «. ويرى ابن هشام أنّ في هذا نظر, لأنّها قد تكون للحضور في غير ما ذكر نحو قولك لشاتم رجل

(1)- المرادي: الجنى الداني، ص(192 - 193).

(2)- السيوطي: الأشباه والنظائر، ج2، ص 57 وما بعدها .

(3)- ابن جني: سر صناعة الإعراب ، ج1، ص350.

بحضرتك: « لا تشتم الرجل «, و لأن الّتي بعد « إذا « ليست لتعريف شيء حاضر حالة التكلم، و لأن الصحيح في الداخلة على « الآن « أنّها زائدة لأنّها لازمة.[1]

أ ـ **العهد الذهني أو العلمي:** وهو ما حصل في علم المخاطب بغير الذكر[2]، أي أنّ مصحوبها معلوم لدى المخاطب, كأن يكون بين المتكلم و المخاطب عهد في شيء معين نحو: حضر الأستاذ،) ونحو قوله تعالى: ﴿..إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ..﴿٤٠﴾﴾التوبة: 40، فالغار معلوم، علم من تاريخ الهجرة النبوية أنّه في جبل ثور.[3]

و حكم هذه اللام أنّها تحدد المراد من النكرة تحديدا مبنيا على المعرفة القديمة في عهد مضى قبل النطق.[4]

غير أن «السيوطي» و «الأشموني» يوردان مفهومين آخرين مخالفين لما ذكرناه للعهد الذهني، فيحمله السيوطي على الإشارة إلى الحقيقة باعتبار قيامها بواحد في الذهن، ويرى أنّ هذا التعريف قريب من النكرة، لأن حقيقة التعريف إنما يكون باعتبار الوجود، وهو باعتبار الوجود نكرة، لأنّه لم يقصد مسمى معهودا في الوجود فيضع بذلك هذا العهد في مقابل العهد الوجودي الّذي يشمل عنده العهد الذهني و العهد الذكري.[5]

و الأشموني له نفس المفهوم تقريبا مع بعض الفروق، و هي: أنّه يسمى الوجود بالخارج فيشير بذلك هذا العهد إلى حصة غير معينة في الخارج, و

(1) - ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب , تح: الفاخوري , دار الجيل , بيروت , ط 1 , 1991 , ج1، ص 93

(2) - إميد علي السيد: في علم النحو، ج1 , ص 163

(3) - د. محمد حماسة عبد اللطيف، أحمد مختار عمر، مصطفى النحاس: النحو الأساسي، دار الفكر العربي ,(د.ط)، 1997، ص 38 .

(4) - عزيزة فوال: المعجم المفصل في النحو العربي ، ج1 , ص 220 .

(5) - السيوطي: الأشباه و النظائر ج2 , ص (58-57).

يكون العهد الخارجي مقابلا له، وأنّه يتوسع في مفهوم العهد الخارجي فيشمل العهد الوجودي كما سماه السيوطي والعهد الحضوري.[1]

ومثال هذا العهد حسبهما قوله تعالى:﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ يوسف: 13، و قولك: «دخلت السوق» إذ لا عهد بينك و بين مخاطبك في الخارج أو الوجود، ولهذا السبب اعتبر النحاة جملة «سُبُّنِي» في قول الشاعر:

ولَقَدْ أمُرُّ على اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي فمَضَيْتُ ثُمَّةَ قُلْتُ لا يَعْنِينِي

نعتاً لمدخول اللام « اللَّئِيمِ» و الذي سوّغ ذلك هو أن « اللام» جنسية: فالمنعوت نكرة معنى لا لفظا[2].

وقيل يعرض لهذه اللام - العهدية- الغلبة، و الغلبة: أن يغلب اللفظ عند إطلاقه على فرد من مدلولاته دون باقي الأفراد بسبب شهرة الأول[3]، نحو «المدينة» و «الكتاب» فحقهما الصدق على كل مدينة و كل كتاب، لكن غلبت «المدينة» على مدينة الرسول، و«الكتاب» على كتاب سيبويه، حتى إنهما إذا أطلقا لم يتبادر إلى الفهم غيرهما. ولا تحذف هذه اللام إلا في النداء أو في الإضافة نحو: هذه مدينة رسول الله.[4]

واللام التي للغلبة حسب ابن عقيل قسم قائم برأسه، لا يعود إلى العهدية، وقيل فيها إنّها قسم من «أل» الزائدة، لأنّها لازمة في الكلمة ولم تكن للتعريف وسُلبته، ولا تحذف إلاّ في المواضع الّتي ذكرناها.[5]

(1)- الأشموني: شرح الأشموني ج1 , ص 168-167.

(2) - الأشموني: نفس المرجع، هامش 1 , ص 168.

(3)- عباس حسن: النحو الوافي ، ج1، هامش 1، ص433.

(4)- ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت ، 2001، ج1، ص186.

(5)- عزيزة فوال: المعجم المفصّل في النحو العربي ، ج1، ص215.

2 - **الجنسية:** هي الّتي تدخل على نكرة تفيد معنى الجنس المحض مثل السيف حديد صلب، والكتاب مفيد، فكلمة الكتاب و السيف لا تدل على واحد معيّن، بل على واحد شائع بين أمثاله لا يمكن تخصيصه بالتعيين (التعريف) وليس في كل منها ما يدل على العهد، ولذلك سميت كذلك.[1] .وهي قسمان: إما أن تكون للاستغراق و إما لبيان الحقيقة.

2 - 1) **الاستغراقية:** و علامتها أن يصلح وقوع «كل» محلّها -كما سنرى- وهي قسمان:

إما لاستغراق الأفراد: وهي الّتي تدخل على واحد من الجنس فتجعله يفيد الشمول والإحاطة بجميع أفراده إحاطة حقيقية، بحيث تخلفها «كل» حقيقة فلا يتغير المعنى نحو قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ العصر: 2، و قولك: العسل حلو، فلو قلت: كل إنسان في خسر، وكل عسل حلو لما تغير المعنى.[2] ويسمى هذا النوع» الاستغراق الحقيقي، ويندرج تحته ما يسمى بالاستغراق العرفي كقولك: جمع الأمير التّجار؛ أي : تجار بلده لا تجار العالم».[3] فهو استغراق جميع الأفراد في مكان أو زمان تنزيلًا لهم منزلة الكل.

وإما لاستغراق خصائص الأفراد: و هي الّتي تدخل على واحد من الجنس فتجعله يفيد الإحاطة والشمول لا بجميع الأفراد، ولكن بصفة واحدة من الصفات الشائعة بين تلك الأفراد، وذلك على سبيل المبالغة والمجاز، لا الحقيقة، بحيث تخلفها «كل» مجازا نحو: زيد الرّجل علماً، أي الكامل من هذه الصفة، و منه قوله تعالى :﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ

(1)- ينظر عزيزة فوال: نفس المرجع، ص218 وينظر: عباس حسن: النحو الوافي ، ج1، ص425.

(2)- ينظر: ابن هشام: مغني اللبيب، ج1، ص93، و عباس حسن: النحو الوافي، ج1، ص426.

(3)- إميد علي السيد: في علم النحو ، ج1 ، ص164.

﴿٢﴾البقرة: 2، وتسمى هذه اللام الكمالية.[1] ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾الحشر: 23، وفي هذا يقول الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن): « التعريف له أسباب منها: الجنس وهي فيه على أقسام: أحدها أن يقصد المبالغة في الخبر، فيُقصَرَ جنس المعنى على المخبر عنه، نحو زيد الرّجل، أي الكامل في الرجولية، وجعل سيبويه صفات الله تعالى كلها من ذلك».[2]

وبناءً على قوله هذا فإن اللامات في أسماء الله الحسنى في هذه الآية (الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهين، العزيز، الجبار، المتكبر) كلها تدل على الكمال.

و «حكم ما تدخل عليه لام الاستغراق بنوعيها أنّه يكون معرّفاً لفظاً نكرة معنى، لأنّها لتعريف الجنس كلّه لا لتعريف فرد منه»[3]، وبذلك تكون اللام التي للعهد الذهني كما فهمه كل من السّيوطي والأشموني جنسية استغراقية وليست عهدية.

2-2) الّتي لبيان الحقيقة:

و تسمى أيضا الّتي لبيان الماهية، والّتي لبيان الطبيعة، وهي الّتي تبيّن حقيقة الجنس وماهيته وطبيعته القائمة في الذهن من دون النظر إلى عدده أو الصفات الطارئة عليه، لذلك لا يصح حلول كلّ محلها، لا حقيقة ولا مجازاً. ومثال ذلك قوله تعالى:﴿..وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ...﴿٣٠﴾﴾الأنبياء:

---

(1)- ينظر مثلا : عزيزة فوال: المعجم المفصل، ج1، ص220، وعباس حسن: النحو الوافي ج1، ص 426 - 427.

(2) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن, تح: محمد أبو الفضل إبراهيم , المكتبة العصرية , صيدا - بيروت , ج4 ,ص88.

(3)- عباس حسن: النحو الوافي، ج1، ص427.

30، أي من هذه الحقيقة لا من كل شيء اسمه ماء.[1] وقوله أيضا:﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ... ﴿٣٤﴾﴾النساء: 34. إذ اللام في الرّجال والنساء لبيان الحقيقة الموجودة في الخارج، لا الشاملة لأفراد الجنس فقوله تعالى هذا لا يريد به رجلاً بعينه أو امرأة بعينها وإنما المراد: هذا الجنس قوّام على ذلك الجنس من حيث هو، وإن كان يتفق بعض أفراد النّساء من هو قوام على بعض أفراد الرّجال بسبب عوارض.[2]

و تفيد ما دخلت عليه نوعاً من التعريف يجعله في درجة «علم الجنس» لفظاً و معنى، وعلم الجنس: اسم موضوع للصورة الخيالية الّتي في داخل العقل، والّتي تدل على فرد شائع من أفراد الحقيقة الذهنية، و هو يخص كل شخص من ذلك الجنس يقع عليه ذلك الاسم، نحو أسامة، فإن هذا الاسم يقع على كل ما يقال له : «أسد».[3]

و اختلف في هذا القسم فقيل: هو راجع إلى العهدية، وقيل: هو راجع إلى الجنسية -كما ذكرنا- وقيل: هو قائم برأسه، و من قال بالوجه الأخير هو المرادي، وحجته في ذلك: «أنّ هناك فرقاً بين العهدية و الجنسية والّتي لتعريف الحقيقة، ذلك أنّ العهدية يراد بمصحوبها فرد معيّن، والجنسية يراد بمصحوبها كل الأفراد حقيقة أو مجازاً، والّتي لتعريف الحقيقة يراد بمصحوبها نفس الحقيقة لا ما تصدق عليه من الأفراد».[4]

---

(1)- ابن هشام : شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص149.

(2) - ينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج4، ص88، بتصرف.

(3)- ينظر: عباس حسن: النحو الوافي، ج1، هامش1، ص290-289، و ص 296 ,428.

(4)- المرادي: الجنى الداني ، ص 195-194.

كما قد اختلف في لام الاستغراق، فمثلا ابن هشام و الأشموني يعتبرانها قسماً قائماً برأسه، ويحصران الجنسية في الّتي لبيان الحقيقة فقط.[1]

3 - المبدلة من ضمير: «وهي الّتي تكون عوضاً من الضمير، ويكون هذا الضمير مضافاً إليه، وقال بهذا القسم الكوفيون وتبعهم ابن مالك،و من أمثلته قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ ص:50 وقوله تعالى:﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾النازعات:41 ، إذ التقدير فيهما: أبوابها، وهي مأواه، فحذف الضمير وأبدل باللاّم.أما البصريون فيرفضون هذا، ويرون أن الضمير في ذلك محذوف و التقدير: مفتحة لهم الأبواب منها أولها، وهي المأوى له...»[2]

و ما يمكن التوصل إليه كنتيجة أن أقسام اللاّم الّتي تدل على التعريف إنما تعود في الأصل إلى ثلاثة: عهدية وجنسية و مبدلة من ضمير، إذ الّتي للحضور و الّتي للغلبة تعودان إلى العهدية، و الّتي للاستغراق، والّتي لبيان الحقيقة تعودان إلى الجنسية كما رأينا عند أغلب النحاة.

هذا وقد تخرج لام التعريف عن معناها الأصلي (التعريف) لتؤدي المعاني الوظيفية الآتية: تكون موصولية، أو زائدة، أو للمح الأصل بالمتفق عليه والمختلف فيه.

1 -الموصولية: «وتكون اسماً موصولا بمعنى الّذي ومشتقاته وهي الداخلة على الصفات نحو: أسماء الفاعلين وأسماء المفعولين».[3] تقول هذا الضارب زيداً، والمراد الّذي ضرب زيداً وهذا المضروب و المراد الّذي ضرب أو يضرب، والسبب هو التوصل إلى وصف المعرفة بالجملة، لأن ذلك غير ممكن لتنافيها في التعريف والتنكير لو لم تدخل هذه اللام و توصل بالجملة، كما توصل

(1)- ينظر ابن هشام: شرح قطر الندى و بل الصدى، ص110 - 111 و الأشموني: شرح الأشموني، ج1، ص167 - 168.

(2)- المرادي: الجنى الداني، ص198 - 199.

(3)- ابن هشام: مغني اللبيب ، ج1، ص91.

الّذي بها، غير أنّ اللاّم لا تدخل إلا على الأسماء، لذلك حول لفظ الفعل إلى لفظ الفاعل أو المفعول، و المراد الفعل فإذا قلت: الضارب، فاللام اسم في صورة الحرف واسم الفاعل فعل في صورة الاسم و متى نويّ باللام «الّذي» عملت فيما بعدها فنقول هذا الضارب زيداً أمس.[1]

و قيل: تدخل أيضا على الصفات المشبهة، وليس بشيء عند ابن هشام، لأنّ الصفة المشبهة للثبوت، ولا تؤول بالفعل، ولهذا كانت الداخلة على اسم التفضيل ليست موصولة باتّفاق.[2]

وقد اختلف في هذه اللام، ونجم عن هذا الاختلاف ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: و هو مذهب الأخفش، حيث قال فيها: إنّها أداة تعريف موصولة وردّ هذا بأنه لوكانت للتعريف لمنعت إعمال اسمي الفاعل والمفعول، كما منع منه التصغير و الوصف، وبأنّها وصلت بجملة فعلية فعلها مضارع، وبجملة اسمية و بظرف[3]، و»مثال الأول قوله:

يقُولُ الخَنا وأَبْغَضُ العُجْمِ ناطقاً	إلى ربّنا صَوْتُ الحِمارِ اليُجَدَّعُ

و مثال الثاني قوله:

من القومِ الرّسولُ اللهِ مِنْهُمْ		لَهُمْ دانتْ رِقابُ بَني مَعِدّا

وفي هذا المثال قال بعض الكوفين: إن» اللام» بقية «الذي « أي : الّذين رسول الله منهم، فحذف الاسم اكتفاء باللام، وذهب بعضهم إلى أنها زائدة.

و مثال الثالث قوله :

مَنْ لا يزالُ شاكرًا على المَعَهْ فَهُو حَرٍ بِعِيشَةٍ ذاتِ سَعَهْ

و التقدير : (الّذي معه)».[4]

(1)- ابن يعيش: شرح المفصل، ج3، ص143.

(2)- ابن هشام: مغنى اللبيب، ج1، ص91.

(3)- ينظر: ابن هشام: نفس المصدر، ص91 - 92 و المرادي: الجنى الداني ، ص201 - 202

(4)- المرادي: الجنى الداني، ص201 - 202

المذهب الثاني: «وهو مذهب المازني، حيث قال فيها: إنّها حرف موصول، وليست اسماً، وإن نوي بها مذهب الاسمية، بحجة أنّها لو كانت اسماً موصولا لما أعرب الاسم الّذي بعدها، لأنّه صلة و لكان الإعراب لها، وحكم على موضعها بالإعراب الّذي يستحقه «الّذي»[1].

و ردّ هذا بأنّها لا تؤول مع ما بعدها بمصدر، و بأنّها قد تدخل قليلاً على الجملة كما رأينا آنفاً.[2] وهذا المذهب يناصره ابن يعيش- كما سنرى -

المذهب الثالث: «وهو مذهب الجمهور، إذ يرون فيها أنّها اسم موصول بحجة عود الضمير من الصفة بعدها إليها، كما يعود إلى الّذي من صلتها.[3] وبحجة أنه قد يعطف الفعل على الأسماء الداخلة عليها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾الحديد:18. فالفعل «أقرضوا» معطوف على الاسم «المصدقين»، وكما هو معلوم أن الفعل لا يعطف إلا على فعل مثله، أو على ما يشبهه، لذلك قدّرت الآية بـ (الّذين يصدقون) فتكون بذلك اللام اسماً موصولاً.[4]

وردّ هذا-كما رأينا في حجج المذهب الثاني- بأنّه لو كانت اسماً موصولا لكان لها موضع من الإعراب مثل موضع «الذي»، و ما عود الضمير إلاّ إلى الموصوف المحذوف وليس إلى نفس اللاّم، لأنك إذا قلت: مررت بالضارب فتقديره: مررت بالرجل الضارب.[5]

(1)- ابن يعيش: شرح المفصل، ج3، ص144.

(2)- ينظر: ابن هشام: مغني اللبيب/ ج1، ص91، و عزيزة فوال: المعجم المفصل في النحو العربي، ج1، ص221.

(3)- ابن يعيش: شرح المفصل: ج3، ص144.

(4)- ينظر: عباس حسن: النحو الوافي، ج1، هامش 2، ص356، وعزيزة فوال: المعجم المفصّل، ج1، ص221-220.

(5)- ينظر: ابن يعيش: شرح المفصل، ج3، ص144.

غير أن هناك من يقول «بأنّ لها موضعا من الإعراب مثل الّذي و فروعه، فتكون في محل رفع، أو نصب، أو جر حسب موقعها في الجملة، واختلف في كونها مبنية أو معربة».[1]

و هناك من يقول: «إنّها هي وصفتها كالمركب المزجي لا يظهر إعرابه إلاّ على الجزء الأخير منه، أما صلته فهي ما يسمى بالشبيه بالجملة»[2]، و سميت كذلك لشبه الصفة بالفعل في المعنى، و في الاحتياج إلى مرفوع بعده.[3]

و من المحدثين من يرى بأنّها تقترب من الجنسية و العهدية معاً، فمثلا تمام حسّان يقول: «أما دلالة «أل» على الموصولية فتتحقق عند اقترانها بالوصف، لأنّ الوصف مشتق... فإذا اقترن الوصف بـ«أل» صلح أن يحل محله «الّذي» أو «الّتي « و مع كل منهما فعل من مادة الوصف المقترن بـ« أل» فالمؤمن هو الّذي آمن، و الكافر هو الّذي كفر... وهكذا،

ويبقى لها في هذه الحالة عموم الدلالة الّذي تتسم به الموصولات، فتقربُ بالموصولية من معنى الجنس، أي أنّ المؤمن كل من آمن، و الكافر كل من كفر، أو خصوص الدلالة الّذي في الوصف، فتقرب بها من معنى العهد، إذ يكون المؤمن أحياناً هو الذّي ذكر منذ قليل، أو هو المعهود بين المتكلم سبحانه و بين السامع...»[4].

3 - **الزائدة:** و هي الّتي لا تفيد تعريف ما تدخل عليه من الأسماء و هي نوعان: لازمة وغير لازمة.

---

(1)- عباس حسن: النحو الوافي، ج1، هامش 2، ص388.

(2)- عزيزة فوال: المعجم المفصل في النحو، ج1، ص221.

(3)- عباس حسن: النحو الوافي ، ج1، هامش 1، ص384.

(4)- تمام حسان : البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط 2، 2000، ج1، ص(34-33).

أ. **اللازمة:** هي لا تفارق ما دخلت عليه لأنّها قارنت وضعه[1] ، فتزاد زيادة لازمة في:

- الأسماء الموصولة كالّذي و الّتي و فروعهما، و ليست للتعريف لأنّه لا يجتمع تعريفان فالموصول معرّف بصلته لا باللاّم.[2] ألا ترى أنّ نظائرها من نحو «من» و «ما» كلّها معارف، وليست فيها لام التعريف، و يؤكد زيادة اللاّم هنا لزومها ما دخلت عليه وعدم جوازسقوطها، في حين لام التّعريف يجوز سقوطها مما دخلت فيه، وعليه تكون هذه اللاّم لتعريف اللّفظ، و إصلاحه لأن يكون وصفاً للمعرفة[3]، و يسمها السيوطي باللام التحسينية، إلاّ أنّه لا ينسبها إلى الزائدة بل يراها قسماً قائماً برأسه.([4]) غير أنّ هناك من يرى أنّ هذه الأسماء معرّفة باللاّم وليس بصلتها، كما تتعرف «من» و «ما» بنية اللام، و «أي» بالإضافة، و بذلك تكون هذه اللاّم معرّفة و ليست زائدة.[5]
- بعض الأعلام الّتي قارنت وضعها للعلمية، مرتجلة كانت كالسموأل واليسع، أو منقولة كاللاّت والعزّى[6]،

أو لغلبتها على بعض من هي له في الأصل « كالبيت» للكعبة و «النجم» للثريا، وهذه في الأصل لتعريف العهد[7]، وقد ذكرناها في الغلبة.

- «بعض الظروف المصدّرة بها مثل «الآن»، و هو ظرف زمان مبني على الفتح، وقد اختلف في اللام الداخلة عليه، فذهب قوم إلى أنّها لتعريف

(1)- إميد علي السيد: في علم النحو ، ج1، ص165.
(2)- ينظر: ابن هشام: أوضح المسالك : ج1، ص145.
(3)- ينظر: ابن يعيش: شرح المفصل، ج9، ص20.
(4)- ينظر: السيوطي: الأشباه و النّظائر، ج2، ص58.
(5)- ابن هشام: أوضح المسالك، ج1، ص146.
(6)- إميد علي السيد: في علم النحو، ج1، ص165.
(7)- ابن هشام: مغني اللبيب، ج1، ص94.

الحضور كما في قولك: « مررت بهذا الرجل» لأن قولك: «الآن» بمعنى : هذا الوقت، وعلى هذا لا تكون زائدة، وذهب قوم ومنهم ابن مالك و ابن جني إلى أنها زائدة و هو مبني لتضمنه معنى الحرف وهو لام الحضور».[1]، و الثاني -حسب ابن جني – «هو الأرجح بسبب لزوم اللام و لو كانت للتعريف لما لزمت، ولجاز سقوطها، وحقيقة تعريفه بلام أخرى محذوفة غير هذه الظاهرة الّتي فيه، وهو بمنزلة «أمس» في أنه تعرف بلام مرادة، والقول فيهما واحد، ولذلك بنيا لتضمنهما معنى حرف التعريف».[2]

ب . غير اللاّزمة: «و هي الّتي لم تقارن وضع الكلمة، بل عرضت بعد الوضع»[3]، فتوجد حيناً وتحذف حيناً، و هي ضربان: ضرب اختياري و آخر اضطراري:

أما الاختياري فيلجأ إليه الشاعر و غير الشاعر لغرض يريد تحقيقه وهو: **«لمح الأصل».**[4] و تسمى اللام حينئذ اللام الّتي **للمح الأصل** وهي:

- «الداخلة على بعض الأعلام المنقولة، فتزاد على الوصف لتكون رمزاً دالاً على المعنى القديم تلميحاً، يضاف إليه معنى العلمية»[5]، و «أكثر ما تدل على المنقول من صفة كقولك في حارث: الحارث، و عادل: العادل، فبزيادتها تلميح لصفتي الحرث و العدل القديمتين، وذات الإنسان المسمى بهذين الاسمين.

و تدخل على المنقول من مصدر، أو اسم عين لأن المصادر و أسماء الأعيان قد تجري مجرى الصفات في الوصف بها على التأويل، فالمنقول من مصدر كالفضل، والنصر والمنقول من اسم عين: كالنعمان و هي في الأصل من

(1)- ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، ص170.
(2)- ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج1، ص 352 - 353.
(3)- إميد علي السيد: في علم النحو، ج1، ص165 - 166.
(4)- عباس حسن: النحو الوافي ، ج1، ص431.
(5)- عزيزة فوال: المعجم المفصّل في النحو العربي، ج1، ص215.

أسماء الدّم، ثم سمي به».[1] ويرى ابن هشام بجواز دخول اللام في هذه الثلاثة نظراً إلى الأصل، وحذفها نظراً إلى الحال،

و الباب كلّه سماعي فلا يجوز دخولها في نحو محمد و معروف.[2]

و سميت أيضا بالّتي للمح الصفة، لكن المرادي يرد ذلك لدخولها على المصادر و أسماء الأعيان، وهي ليست وصفاً في الأصل.[3] و خرّج ابن الناظم هذا بأنها قد تجري مجرى الصفات في الوصف بها على التأويل كما سبق أن رأينا.

و قد تدخل هذه اللاّم على العلم المنقول من الفعل كقول الشاعر:

رأيتُ الوليدَ بنَ اليزيدِ مباركا	شديداً بأعباء الخلافةِ كاهلُهُ

و قيل: إنّها هي ضرورة سهّلها تقدم ذكر الوليد، كما قيل: بل هي للتعريف، إذ نكر العلم ثم دخلت عليه اللام، كما ينكر إذا أضيف.

كما قد تدخل على النكرة فلا تفيدها التعريف في نحو قولهم: (ادخلوا الأول فالأول) لأن الحال واجبة التنكير، وفي نحو قراءة بعضهم:﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ ٨﴾المنافقون: 8، بفتح ياء «ليَخرجنّ» وذلك لأن الأذل على هذه القراءة حال، والحال واجبة التنكير، فلهذا اللام زائدة لا معرّفة والتقدير ليخرُجن الأعز منها ذليلاً. و إن قدرت الأذل مفعولاً مطلقا على حذف المضاف و قيام المضاف إليه مقامه لا تكون اللام زائدة، أي تقدر الآية بـ: خروج الأذل.[4]

(1)- ابن الناظم : شرح ألفية ابن مالك، تح: د.عبد الحميد السيّد محمد عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت ، ص102.

(2)- ينظر: ابن هشام: أوضح المسالك، ج1، هامش 1، ص148.

(3)- المرادي: الجنى الداني، ص197.

(4)- ينظر ابن هشام: مغني اللبيب ، ج1، ص98 ، و ابن هشام: شرح شذور الذهب، ص49 ، والأشموني: شرح الأشموني، ج1، ص177.

و هناك من يرى « أنّ اللام « الّتي للمح الأصل» قسم قائم بذاته، و لا يعود إلى الزائدة، بدليل أنّ دخولها يفيد معنى لا يستفاد بدونها، و أنّ حذفها و ثبوتها ليس على السواء، لأنه إذا لمح الأصل جيء بها و إن لم يلمح لم يؤت بها».[1]

و «أما الاضطراري فيلجأ إليه الشعراء وحدهم عند الضرورة ليحافظوا على وزن الشعروأصوله»[2]، ومن أمثلته:

زيادة اللاّم على العلم كقوله :

و المراد: (بنات أوبر) لأنه علم على نوع من الكمأة رديء الطعم، غير أنّ هناك من قال: إنّ اللام فيه للمح الأصل، لأنّ أوبر صفة كحسن

و حسين و أحمر، و هناك من قال: للتعريف لأنّ (ابن أوبر) نكرة و منهم المبرد.[3]

و أيضا زيادتها على «التمييز كقول إرشاد بن شهاب اليشكري:

رأَيْتُك لمّا أَنْ عَرفْتَ وُجوهَنا	صَدَدْت وَطِبْتَ النَّفْسَ يا قَيْسُ عَنْ عَمرِو

و الأصل: طبت نفساً، لأن التمييز يتعين فيه التنكير، ولذلك هي زائدة اضطراراً حسب البصريين، و غير زائدة بل معرّفة عند الكوفيين لأنّه يجوز حسبهم وقوع التّمييز معرفة».([4]) من خلال حصرنا للمعاني الوظيفية الّتي تفيدها اللام عدا التعريف يتبين أنّها قسمان لا ثلاثة، تكون في الأول موصولية، و في الثاني زائدة، لأنّ «الّتي للمح الأصل» ما هي إلا زائدة في الأصل –كما رأينا- على أنّ هذه الزيادة لفظية لا معنوية، لأنّ كل زيادة في اللّفظ تصحبها بالضرورة زيادة في المعنى، فاللام الزائدة اللازمة قد تدل على تعريف اللّفظ واصطلاحه

(1)- ابن هشام: أوضح المسالك، ج1، ص149.
(2)- عباس حسن: النحو الوافي، ج1، ص430.
(3)- ابن هشام: مغني اللبيب، ج1، ص97.
(4)- ابن هشام: أوضح المسالك، ج1، ص147.

لأن يكون وصفاً للمعرفة، وغير اللازمة قد تدل على المعنى القديم للوصف تلميحاً يضاف إليه معنى العلمية.

خاتمة:

ما يمكن أن نستخلصه أخيرا أن ظاهرة تعدد المعني الوظيفي لها علاقة بالمشترك اللفظي، وتمس تقريبا كل المباني، والأدوات من المباني التي تمسها ظاهرة التعدد و لا يتحدد معناها إلا من خلال تسييقها و بمعونة القرائن حالية أو مقالية. فالسياق له دور هام في تحديد المعنى المراد لكل مبنى.

ورغم اختلاف النحاة في أقسام لام التعريف: لام العهد، لام الجنس، اللام المبدلة من الضمير، اللام الموصولية، اللام الزائدة إلا أنه لم يشك أحد منهم في أنها من بين الأدوات التي يتعدد معناها الوظيفي.

فالمعنى الأصلي لها هو التعريف وأقسامها تعود في الأصل إلى ثلاثة: عهدية وجنسية و مبدلة من ضمير، إذ الّتي للحضور و الّتي للغلبة تعودان إلى العهدية، و الّتي للاستغراق، والّتي لبيان الحقيقة تعودان إلى الجنسية كما رأينا عند أغلب النحاة، ولكنها قد تخرج عن معناها الأصلي (التعريف) لتؤدي المعاني الوظيفية الآتية: تكون موصولية، أو زائدة، أو للمح الأصل بالمتفق عليه و المختلف فيه.

المصادروالمراجع:

القرآن الكريم

1- القرآن الكريم

2- الأستربادي(رضي الدين): شرح كافية ابن الحاجب، دار الكتب العلمية ، ط1، 1998، ج3.

3- الأشموني: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، فهرسة :حسن حمد، إشراف: د.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان ، ط1: 1998، ج1.

4- إميد علي السيد: في علم النحو، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1997، ج1.

5- بابستي عزيزة فوال: المعجم المفصل في النحو العربي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1992م، ج 1.

6- البغدادي: خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب، فهرسة د.محمد نبيل طريفي، إشراف د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1998، ج1.

7- ابن جني ، سر صناعة الإعراب ، تح: د.حسن هنداوي ، دار القلم ، دمشق، ط2، 1993، ج1.

8- حسّان تمام : - اللغة العربية معناها و مبناها ، عالم الكتب، ط3، 1998.

9- البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط 2، 2000، ج1.

10- حسن عباس: النحو الوافي، دار المعارف ، ج1.

11- حماسة محمد عبد اللطيف، أحمد مختار عمر، مصطفى النحاس: النحو الأساسي، دار الفكر العربي، 1997.

12 - خضير (محمد أحمد): الأدوات النحوية و دلالاتها في القرآن الكريم , مكتبة الأنجلو المصرية , مطبعة محمد عبد الكريم، (د.ط)، 2001 .

13 - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1972، ج4

14 - الزمخشري: المفصل في صنعة الإعراب، فهرسة:د.إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دارالكتب العلمية، بيروت-لبنان،ط1، 1999.

15 - الساقي(فاضل مصطفى): أقسام الكلام العربي - من حيث الشكل و الوظيفة - مكتبة الخانجي، لقاهرة، 1988.

16 - ابن السّراج: الأصول في النحو ، تح: د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1996، ج1 .

17 - سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988، ج3.

18 - السيوطي(جلال الدين) :- المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت،(د.ط)، 1986، ج1.

19 - الأشباه و النّظائر في النحو، دارالكتب العلمية، بيروت – لبنان، ج2.

20 - ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 2001، ج1.

21 - الغلاييني مصطفى: جامع الدروس العربية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط25، 1991.

22 - المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تح: د.فجر الدين قباوة و الأستاذ محمد نديم فاضل، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

23 - ابن منظور: لسان العرب، دارصادربيروت، ط1، 1997، ج7.

24 - ابن الناظم : شرح ألفية ابن مالك، تح: د.عبد الحميد السيّد محمد عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت،1991.

25 - الهروي: الأزهية في حروف المعاني، تج: عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق، ط2، 1981.

26 - ابن هشام: - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تح: الفاخوري، دار الجيل –بيروت، ط1، ج1.

27 - شرح قطر الندى و بل الصدى ، فهرسة: د. اميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1996.

28 - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1991، ج1.

29 - شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996.

30 - ابن يعيش: شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة، ج9.

التقابل في القرآن الكريم
دراسة تطبيقية في سورة الليل

د. محمد تمزغين
أستاذ محاضر، كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر 1

ملخص:

ينطلق المقال من إشكالية محددة هي: ما قيمة أسلوب التقابل ؟ وأثر توظيفه في الخطاب القرآني؟ وقد نهج المقال المنهج الوصفي لرصد جهود المفسرين والبلاغيين في تحديد أسلوب التقابل، والتحليلي في الوقوف على أبعاد الدلالة في سورة الليل من حيث استعمال الخطاب القرآني فيهما لأسلوب التقابل، وقد قسم المقال إلى مبحثين، الأول عن تعريف الأسلوب وأنواعه وحضوره في القرآن الكريم وتعامل المفسرين معه، والثاني عن التقابل في سورة الليل، وبيان أثره الدلالي والوجداني.

مفردات مفتاحية: تقابل، القرآن، دلالة، سورة الليل.

مقدمة:

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، على خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ، ليكون للعالمين نذيرا، فجاء بلسان قومه ليبين لهم هدايةَ الخالق الحكيم، ويورثهم الإقناع بتلك المعاني والحِكم والإحكام، يوقظ فيهم دافعية الإيمان والعمل الصالح والانطلاق في الحياة بنور وهدى.

ومن الأساليب التي جاء بها القرآن منافسا بل معجزا العرب بها أسلوب التصوير الفني، وأسلوب الأمثال، وأسلوب الجدال، وأسلوب القصص، وأسلوب الحوار، وأسلوب التكرار. ومن تلك الأساليب البارزة في القرآن الكريم أيضا أسلوب المقابلة، فما المقصود بهذا الأسلوب؟ وكيف كان توظيفه في الخطاب القرآني؟ وما مدى اهتمام المفسرين بهذا الأسلوب؟ هذا ما يحاول المقال بحثه، من خلال دراسة تطبيقية لسورة الليل، كشفا لطريقة القرآن في توظيفه هذا الأسلوب، وبيان أبعاده المعرفية والوجدانية.

وقد تعددت الدراسات عن هذا الأسلوب، محاولةً الكشف عنه؛ تعريفا وأنواعا وكيفيات، مع تفاوت بينها دقة أو عمومية، وإبداعا أو تكرارا. وفي هذا الصدد **نذكر دراستين بارزين هما أقرب إلى مجال البحث أي القرآن الكريم، وإلى مضمون المقال:**

1 - **المقابلة في القرآن الكريم**، دراسة دكتوراه للدكتور بن عيسى باطاهر، طبعة دار عمار، الأردن، 2000م، وقد عرّف المقابلة في الدراسات القديمة والحديثة، ثم تناول تطبيقاتها في القضايا الكبرى في القرآن الكريم، وفي قضايا الدين والأخلاق، وفي قضايا السياسة والاقتصاد، وفي قضايا العلم والفكر، ثم وقف عند خصائص المقابلة في التعبير القرآني.

وهي من الدراسات الجادة بل من الدراسات الأولى في هذا الصدد، فمعظم من درس الموضوع قد اعتمدها، إلا أن صفة العمومية غلبت عليها كونها

دراسة متقدمة تقتضي الجمع والتصور العام، ثم لتناولها مجالات متعددة يستلزم كل مجال الوقوف عنده، فغدت أقرب إلى التمثيل منه إلى التحليل، وتناول الأفكار دون الأسلوب والمنهج.

2 - **التقابل والتماثل في القرآن الكريم**، دراسة دكتوراه للدكتور فايز عارف القرعان، دراسة أسلوبية، طبعة دار العالم الحديث، الأردن، 2006م، حدد مفهوم التقابل، ثم أنماطه، ثم تناول التقابل في محاور القرآن الكريم وهي محور الإيمان ومحور الكفر والتقابلات بين المحورين، ثم محور النفاق والتقابل بين محوري الإيمان والكفر، بعدها بحث دور التقابل والتماثل في إنتاج الدلالة، تقابلا وتخالفا وتماثلا.

والدراسة مبتكرة أيضا إذ توغلت في الدراسات البلاغية للمتقدمين والمحدثين، ووقفت على التباين والتناظر بين التماثل والتقابل، وحاولت أن تطبق ذلك في آيات القرآن الكريم بما تناولته من محاور وتقابل بينها، وتعد هذه الدراسة رائدة أيضا في مجالها، وقد اعتمدها من جاء بعدها من الدراسات.

وتبقى دراسات ومقالات أخرى تناولت التقابل بشكل تطبيقي، وبأبعاد مختلفة، فمنها **التقابل الدلالي في سورة الحديد** لهديل رعد تحسين[1]، ومنها **أسلوب التقابل في الربع الأخير من القرآن الكريم**، لعماري عز الدين[2]، ومنها **تقابل المعاني في سورة محمد**، لعبد العزيز بن صالح العمار[3]، ومنها **دراسة تناسق السياق في التقابلات الدلالية في الجزء الثلاثين من القرآن**

(1) -مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، مج2، ع7، 2010م، ص357.

(2) -مذكرة ماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2009-2010م.

(3) -مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع25، سبتمبر 2012م، ص13.

الكريم، لمحمد صالح شريف عسكري وآخرون، وغيرها من الدراسات التي تناولت نصيبا من القرآن فأبرزت فيه أسلوب التقابل، بين متوسع ومقل.

إضافة إلى مقالة مهمة في موضوع هذا المقال، وهي لأحمد علي ربا، بعنوان: **التقابل في النص القرآني، دراسة أسلوبية دلالية**[1]، وقد حاولت تناول **التقابل في سورة الليل**، فبرز فيها جهد محترم، لولا الإغراق نوعا ما في البحث عن الروابط جَعَلها تلتزم ما لا يلزم في معاني السورة. وهذا لم يمنع من الاستفادة منها.

ولعل الجديد الذي سيتم تناوله في هذا المقال هو دراسة سورة الليل من زاوية التقابل، بنفس المفسرين وقواعدهم وضوابطهم، وإبراز أثر استعمال هذا الأسلوب في مزيد الكشف عن المعاني، وإظهار الآثار المعنوية له.

وقد اقتضى البحث أن يقسم إلى مبحثين، الأول يتم التعريف فيه بالتقابل وأنواعه، وحضوره في القرآن الكريم، ثم المبحث الثاني ويتناول السورة بالدراسة، باستعمال المنهج الوصفي التحليلي.

المبحث الأول: التعريف بالتقابل وجهود المفسرين في تناوله

أولا: التعريف بالتقابل وأنواعه

أصل التقابل في اللغة من المواجهة، يقول ابن فارس: «القاف والباء واللام أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدلُّ كلمةُ كلِّها على مواجهةِ الشَّيء للشَّيء»[2] يقال: قابلَ الشيء بالشيء مقابلة وقِبالا إذا عارضه. والتقابل نقيض التدابر، وريح القبول تقابل ريح الدبور[3]،

(1) -موقع تحولات، tahawolat.nst/MagazinsArticlsDetails.aspx ?Id=1209

(2) -معجم مقاييس اللغة، تح. عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، 2002، 5/ 42، مادة قبل

(3) -الفيروزابادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، إشراف محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005 م، ط8، 1/1045، مادة قبل.

ويأخذ التقابل معاني أوسع عند اللغويين والبلاغيين، فهذا أبو هلال العسكري يعرف المقابلة فيقول: «المقابلة إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ، على جهة الموافقة أو المخالفة»[1]، بينما يعرفها الباقلاني فيقول: «أن يُوَفِّق بين معان ونظارها، والمضاد بضده»[2]، فالتقابل أو المقابلة تكون بين المعاني المتضادة أو المتوافقة، بينما ابن رشيق يشير إلى أن: « أكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد»[3].

وقد تركز الجهد عند كثير من البلاغيين المتقدمين في التقابل اللفظي، ففرقوا بين الطباق والمقابلة - مثل ابن رشيق القيرواني- فالطباق ضدية بين لفظ ولفظ، والمقابلة بين جملة وجملة، بينما جعلها البعضُ الآخر نوعاً واحداً، كالعلويّ وابن الأثير والسيوطي، بل إنّ العلوي وابن الأثير لم يُحبّذا اسم الطباق واقترحا أنْ يُسمّى هذا النوع البلاغي: مقابلة[4].

إلا أن الملاحظ على أغلب البلاغيين المتقدمين قصر التقابل في إطار البديع، وهو ما لم يرضاه المحدثون، من مثل بكري شيخ أمين إذ يقول: «إن الطباق والمقابلة وما يتفرع عنهما ليس أمرا نافلا، ولا زينة بديعية، يلهو بها الأديب، فيورد الكلمة وضدها، والعبارة وأختها أو نقيضها ليجعل كلامه براقا خلابا بديعيا. إنما الطباق أساس من عمارة هذا الكون في ظاهره وباطنه، وهو أكبر

(1) -كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 371.

(2) -إعجاز القرآن، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م، 140.

(3) - العمدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار السعادة، مصر، ط1، 1964م، 2/15

(4) -ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، ط1، 1962، 3/ 144. العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، مطبعة المقتطف، مصر، 1914م، 2/377. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، 2/122

مما وصفه المؤلفون»[1]، فجعله أساسا من أسس التفكير والتعبير الإنساني، وليس زخرفا من القول، أو زينة يمكن الاستغناء عنها.

والواقع أن التقابل ليس مظهرا أو أسلوبا من الأساليب فقط، بل إطارا للتفكير يوجه إلى الدلالة كما يوقف على الجمال، ويدعو إلى الحركة كما يورث تأثر الوجدان. وله دور في إقناع القارئ وإيصاله بالنظر إلى المتقابلات إلى تصور الموضوع والوصول إلى نتيجة دقيقة.

ويمكن اختيار تعريف بن عيسى للتقابل والمقابلة أنها: **إقامة تضاد بين الألفاظ والمعاني والأفكار لغايات بلاغية وقيم معنوية**[2].

ملاحظة: استعمال المقابلة بالمعنى المرادف للتقابل باعتبار عدم حصر المقابلة في جانبها اللفظي فقط بل حتى المعنوي كذلك، وعدم حصرها في جانب البديع فقط بل أسلوبا من أساليب التعبير والتفكير.

أنواع التقابل[3]:

والتقابل أنواع فمنه المفرد ومنه المركب، ومن العلاقات بين المتقابلين: التضاد والتخالف. وسنأتي بأمثلة من القرآن الكريم في العنصر الآتي، بينما نقف هنا عند الفرق بين التضاد والتخالف، حيث التضاد تقابل حقيقي، بينما التخالف تضاد اعتباري. فالتضاد: إنما يكون بحيث إذا ثبت أحدهما نُفي الآخر، ومن أمثلته قوله تعالى:

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾التوبة: 82، فكان الضحك مقابل البكاء، والقلة مقابل الكثرة

(1) - انظر كتاب بكري شيخ أمين، علم البديع.

(2) -باطاهر، بن عيسى، المقابلة في القرآن الكريم، دار عمار، الأردن، ط1، 2000م، ص26.

(3) -ينظر: الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391، 3/458 وما بعدها. القرعان، التقابل والتماثل في القرآن، 113 وما بعدها.

والتخالف: يكون بحيث لا يتنافيان مطلقا، ولكن الأول ينافي سبب الثاني أو نتيجته، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾الجن:10، فكان التقابل بين الشر والرشد، فالرشد ينتج عنه الخير، والشر سببه الغي، فكان التقابل بين الرشد والغي، وبين الخير والشر. ويتوسع التقابل من مجرد ضدية بين مفردتين إلى تقابل بين عبارتين، ثم إلى تقابل موسع ليكون سياقا مقابل سياق، وجملة آيات مقابل جملة أخرى من الآيات، ما يجعل التقابل أوسع من مجرد الطباق أوالمقابلة البديعية. وسنأتي على أمثلة لهذا التوسع في العناصر الآتية.

ثانيا: حضور التقابل في القرآن الكريم، وموقف المفسرين منه:

كان أسلوب التقابل أسلوبا أثيرا للقرآن الكريم، حيث توسع في استعماله اتساعا كبيرا، يشهد لذلك الآيات الكثيرة بل نسق بعض السور المبنية أساسا على التقابل.

وسنحاول هنا أن نتتبع بعض النماذج من التقابل في آيات القرآن الكريم مع الإشارة إلى جهود المفسرين في تحليل تلك النماذج:

وقف الزمخشري عند قوله تعالى:﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾الزمر: 45 . فلاحظ التقابل بين الاشمئزاز والاستبشار، وقال:» مدار المعنى على قوله وحده، أي: إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم اشمأزوا، أي: نفروا وانقبضوا (وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ) وهم آلهتهم -ذكر الله معهم أو لم يذكروا- استبشروا، لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها... ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز؛ إذ كل واحد منهما غاية في بابه؛ لأنّ الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة

وجهه ويتهلّل. والاشمئزاز: أن يمتلئ غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه»[1].

كما وقف الآلوسي عند التقابل بين آيتين وشرط كل واحدة منهما والحكم الناتج عن تلك الشروط، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾النساء: 90 - 91، فقال:»وعن بعض المحققين أن هذه الآية مقابلة للآية الأولى...فقوله سبحانه: (فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ) مقابل لقوله تعالى: (فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ) وقوله جل وعلا: (وَيُلْقُوا) مقابل لقوله عز شأنه: (وَأَلْقَوْا) وقوله جل جلاله: (وَيَكُفُّوا) مقابل لقوله عز من قائل: (فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ) والواو لا تقتضي الترتيب، فالمقدم مركب من ثلاثة أجزاء في الآيتين، وهي في الآية الأولى الاعتزال وعدم القتال وإلقاء السلم فبهذه الأجزاء الثلاثة تم الشرط، وجزاؤه عدم التعرض لهم بالأخذ والقتل كما يشير إليه قوله تعالى: فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا وفي الآية الثانية عدم الاعتزال وعدم إلقاء السلم وعدم الكف عن القتال، فبهذه الأجزاء الثلاثة تم الشرط، وجزاؤه الأخذ والقتل المصرح به بقوله سبحانه: فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ»[2].

ويلاحظ الرازي التقابل بين مثالين للإنفاق في سورة البقرة، فيثيره اختيار المفردة الربوة، ويعمل الاجتهاد فيقول:»اعلم أن المفسرين قالوا: البستان

(1) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 4/ 134.

(2) - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 3/ 107.

إذا كان في ربوة من الأرض كان أحسن وأكثر ريعا. ولي فيه إشكال: وهو أن البستان إذا كان في مرتفع من الأرض كان فوق الماء، ولا ترتفع إليه أنهار، وتضربه الرياح كثيرا، فلا يحسن ريعه، وإذا كان في وهدة من الأرض انصبت مياه الأنهار، ولا يصل إليه إثارة الرياح فلا يحسن أيضا ريعه، فإذن البستان إنما يحسن ريعه إذا كان على الأرض المستوية التي لا تكون ربوة ولا وهدة.

فإذن ليس المراد من هذه الربوة ما ذكروه، بل المراد منه كون الأرض طينا حرا، بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ وربا ونما، فإن الأرض متى كانت على هذه الصفة يكثر ربعها، وتكمل الأشجار فيها.

وهذا التأويل الذي ذكرته متأكد بدليلين أحدهما: قوله تعالى: ﴿... وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ... ۝٥﴾الحج:5، والمراد من ربوها ما ذكرنا فكذا هاهنا. والثاني: أنه تعالى ذكر هذا المثل في مقابلة المثل الأول، ثم كان المثل الأول هو الصفوان الذي لا يؤثر فيه المطر، ولا يربو ولا ينمو بسبب نزول المطر عليه، فكان المراد بالربوة في هذا المثل كون الأرض بحيث تربو وتنمو»[1].

فنلاحظ كيف أعمل الرازي قرينة المقابلة لتحديد معنى الربوة أنها طين حر تربو بالغيث، مقابل الصفوان الذي يصبح صلدا بالوابل أيضا. كذلك فقد أعمل الرازي التقابل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٩ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٠﴾المائدة:38 - 40، فقال: «واعلم أنه تعالى لما أوجب قطع

(1) مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420 هـ، ط3، 7/ 49

اليد وعقاب الآخرة على السارق قبل التوبة، ثم ذكر أنه يقبل توبته إن تاب أردفه ببيان أن له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فيعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، وإنما قدم التعذيب على المغفرة لأنه في مقابلة تقدم السرقة على التوبة»[1]. فبيّن الحكمة من ورد التراتب في الآية حيث تقديم التعذيب على الرحمة، لسبق القطع على التوبة.

كذلك فقد حمل بعض المفردات على المجاز بناء على التقابل، يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾آل عمران:107 - 108. فيقول الرازي: «بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه، بمعنى شدة الحزن والغم. وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني...قلت: ولأبي مسلم أن يقول: الدليل دل على ما قلناه، وذلك لأنه تعالى قال:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾عبس:38 - 40، فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشار، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلا، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل كذلك فقد وقف ابن عاشور عند التقابل بين الطريق المستقيم والسبل المتفرقة عنه، في قوله عزوجل: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾الأنعام:135. فقال: «والسُبُل: الطّرق، ووقوعها هنا في مقابلة الصّراط المستقيم يدلّ على صفة محذوفة، أي السّبل المتفرّقة غير المستقيمة، وهي التي يسمّونها: بُنيات الطّريق، وهي طرق تتشعّب من السبيل الجادّة ذاهبة،

(1) مفاتيح الغيب، 11/ 357

يسلكها بعض المارّة فرادى إلى بيوتهم أو مراعيهم، فلا تبلغ إلى بلد ولا إلى حَيّ، ولا يستطيع السّيرَ فيها إلاّ مَن عَقَلها واعتادها، فلذلك سبب عن النّهي قوله: (فتفرق بكم عن سبيله)، أي فإنّها طرق متفرّقة فهي تجعل سالكها متفرّقاً عن السّبيل الجادّة، وليس ذلك لأنّ السّبيل اسم للطّريق الضيقة غير الموصّلة، فإنّ السّبيل يرادف الصّراط، ألا ترى إلى قوله: (قل هذه سبيلي)، بل لأنّ المقابلة والإخبار عنها بالتّفرق دلّ على أنّ المراد سبُل خاصّة موصوفة بغير الاستقامة»[1].

فهذه بعض الأمثلة لتوظيف القرآن الكريم لهذا الأسلوب، وقفنا معه على جهد المفسرين في تفسير تلك الآيات وبيان معاني مفرداتها وتتبع التقابل واستعماله قرينة للترجيح والتحديد.

المبحث الثاني: التقابل في سورة الليل

سنعمل في هذا المبحث على تناول التقابل في سورة الليل، مع ملاحظة خدمة التقابل للسياق والتناسب بين الآيات إضافة إلى تحقيق الإقناع العقلي والتأثير الوجداني، فالتقابل لوحده لا يحقق ذلك لولا التناسب والسياق[2].

أولا: تتبع التقابل في سورة الليل

الليل علامة السكون بما يغشى الأرض بالظلمة، والنهار علامة الحركة بما يجلي الأرض ويكشف ظلمتها والمصلحة في تعاقبهما[3]، فالعلاقة بينهما علاقة تعاقب، والتقابل بينهما تقابل زمن هو الليل والنهار، وتقابل أثر وهو الحركة والسكون[4]، وتقابل سبب[5] وهو النور والظلمة، وهو المُركَّز عليه أكثر هنا؛

(1) -التحرير والتنوير ، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997 م، 8/ 173

(2) -أحمد علي ربا، التقابل في النص القرآني، دراسة أسلوبية دلالية

(3) -مفاتيح الغيب، 31/ 181

(4) -ربا، التقابل في النص القرآني.

(5) -التحرير والتنوير، 30/ 368

فالليل والنهار في سورة الليل مقيدان بالغشية والتجلي[1]، أي حين الغشيان وحين التجلي.

ويلمح الآلوسي ارتباط الغشي والتجلي بالشمس، وهورد التقابل إلى مصدر واحد، فالشمس تجلي الأرض والشمس تختفي فتغشى الظلمة الأرض[2]، بينما يرد ابن عاشور التغشية للأرض والتجلية للشمس بدلالة آية: «والنهار إذا جلاها»[3]. ووجه التقابل والمعنى المقصود ابتداء هو: مثل لظهور الإيمان بعد الكفروبث التقوى بعد الفجور وهو تمثيل متكرر في القرآن الكريم[4]

وابتدأ القسم بالليل قبل النهار، لأن الغالب في الناس الظلمة، والنور حادث، مع أن اليسر والانشراح والحركة تأتي معه. وبينما أشار المفسرون إلى الاختلاف بين الذكر والأنثى، فقد ركز ابن عاشور على الجامع بينهما وهو الخلق، وأنه من الذي خلق الزوجين المختلفين[5].

ويصبح قوله تعالى: «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى» جَوَاب الْقَسَمِ[6]. والسَّعي عند ابن عاشور هو المشي القوي الحثيث، واستعيرهنا للعمل والكدّ[7]. بينما عند بنت الشاطئ هو بمعنى العمل مع القصد والدأب[8]. فيأتي في آيات بمعنى العمل مع الدأب، كقوله تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾الأنبياء: 93، وقول الحق:

(1) -التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، ط7، 2/ 102

(٢) - روح المعاني، 15/ 366

(3) - التحرير والتنوير، 30/ 367

(4) - المرجع ن، 30/ 368

(5) - المرجع ن، 30/ 379

(6) - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، 5/ 550

(7) -التحرير والتنوير، 30/ 379

(8) -التفسير البياني للقرآن، 2/ 103

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ﴾الإسراء: 19. وقوله جل وعلا:﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾الكهف: 103 - 104، والشتى «مشتق من الشت وهو التفرق الشديد، يقال: شتَّ جمعُهم، إذا تفرقوا، وأريد به هنا التنوع والاختلاف في الأحوال»[1]. وهو جمع شتيت، كمرضى ومريض[2]. فإن سعيكم لشتى: مساعيكم شتى، أوسعيكم شتيت متفرق مختلف تماما[3].

ثم تأتي الآيات بعدها تفصيلا لتفرق السعي واختلافه[4]، فصنف أعطى واتقى وصدق بالحسنى، وصنف بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فـ: أعطى مقابل لـ: بخل، وصدق بالحسنى مقابل لـ: التكذيب بها، ويبقى اتقى واستغنى، فهل بينهما تقابل؟ وجه ابن عباس اتقى بتقدير المحذوف أنه البخل، واعترضت عليه بنت الشاطئ في ذلك بأن التقابل في الآيات يمنعه، فما سبق من لفظ العطاء يقابل البخل، فيصرف الاتقاء إلى غير البخل، بما يقابل التكذيب[5]. ولكن هل فعلا التقوى تقابل التكذيب؟ لم تعطنا بنت الشاطئ جوابا شافيا ! لأن التكذيب يقابل في الآيات التصديق لتعلقهما بنفس المتعلق، فيصبح المقابل للتقوى حسب التوزيع هو الاستغناء. لذلك فاجتهاد ابن عباس له وجاهة، وهو: بخل واستغنى بماله، مقابل اتقى البخل فأعطى.

(1) -التحرير والتنوير، 30/ 379
(2) -فتح القدير، 5/ 551
(3) - روح المعاني، 15/ 366
(4) -المرجع ن، 15/ 366
(5) -التفسير البياني للقرآن، 2/ 107

ويبدو أن الجواب الأنسب هو حمل التقوى على المعروف المتداول في القرآن الكريم، وهو تقوى الله سبحانه، فيكون بين الاستغناء والتقوى تقابلا[1]، لكنه تقابل من وجه، فملاحظة آية سورة العلق، وهي قوله سبحانه:»كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»، ثم ملاحظة التقابل بين الطاغين والمتقين في سورة ص، يشير إلى إمكانية حمل الاستغناء على أنه سبب الطغيان، فاكتفي بذكر السبب عن الأثر، بينما ذكر الأثر وهو التقوى واكتفي به عن السبب وهو الافتقار إلى الخالق. فالخلاصة: استغنى فطغى، وافتقر فاتقى.

والحسنى: هي حسن العاقبة، بمصاديقها دنيا وأخرى[2] وتحتمل أموراً كثيرة مثل المثوبة أو النصر أو العدة أو العاقبة[3]. والتصديق بالحسنى هو الاعتراف بوقوعها، ويكنى به عن الرغبة في تحصيلها، ويرجع هذا التصديق إلى الإيمان. كما يتضمن عمل الأعمال التي يحصل بها الفوز بالحسنى[4]. واستفادة المعنى الأخير لأجل التقابل بينها وبين التكذيب بالحسنى وهو موقف وعمل أيضا.

والتيسير: التهيئة[5]، وهو جعل الشيء يسير الحصول[6]، وهو الإعداد لما يفضي إلى الراحة أو الشدة[7]، ولابد في ذلك من عمل، وهو ما اختاره ابن عطية بأن التيسير هو السلوك في عمل السعادة وطريق الهداية والجنة أو عمل الشقاوة وطريق الضلالة والنار[8]، والمعنى هو تيسر الدوام على تلك

(1) -روح المعاني، 15/ 367، وهو اختيار ابن عاشور أيضا: التحرير والتنوير، 30/ 382
(2) - التفسير البياني للقرآن، 2/ 105
(3) - التحرير والتنوير ، 30/ 382
(4) - المرجع ن، 30/ 383
(5) - فتح القدير، 5/ 551
(6) -التحرير والتنوير، 30/ 383
(7) - روح المعاني، 15/ 367
(8) - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ، 5/ 491

الأعمال والاستزادة منها[1]. وكأن التيسير للعسرى هو بالمقابل تعسير أسباب الخير والصلاح والضعف عن فعلها، وهو اختيار مقاتل وقول الشوكاني[2].

واليسرى: الْخَصْلَة الْحُسْنَى، وَهِيَ عَمَلُ الْخَيْرِ، فيصبح ما هو فيه كلفة من الأعمال الصالحة أيسر لتدرب النفس عليه[3]. ولاحظت بنت الشاطئ في اليسرى والعسرى صيغة الفعلى الدالة على أتم اليسر فلا يسر مثله وأتم العسر فلا عسر بعده[4]، وكأني بالآية تقصد الجنة التي هي كمال اليسر، والنار التي هي أشد الشدة، وهما المنتهى[5]. واستعمال الصلة وجوابها يومئ إلى العلة، فتلك الأعمال هي العلة في ذلكم التيسير والتهيئة، وأن التيسير جزاء عن فعلها[6]

ثم رجع السياق إلى الاستغناء، فماله الذي يبخل به لن يغنيه إذا تردى في العسر إلى العسرى، والتردّي: السقوط من علوّ إلى سفل[7]، وتردى في البئر هلك[8]. وقد يلقي المستغني اللومَ بأن الهداية لم تصله، فيجيبه الخالق إن علينا للهدى[9]، فيلقي التبعة عليه أن الله أعذر إليه. أو يتصور أنه لو شاء الله نزع منه الإيمان لألجأه إليه ولما كان ردئ، فيجيبه إن لنا للآخرة والأولى[10].

(1) -التحرير والتنوير، 30/ 385
(2) - فتح القدير، 5/ 551
(3) - المرجع ن، 5/ 551
(4) -التفسير البياني للقرآن، 2/ 109
(5) -روح المعاني، 15/ 368
(6) - التحرير والتنوير، 30/ 386
(7) -المرجع ن، 30/ 387
(8) -روح المعاني، 15/ 368
(9) - التحرير والتنوير، 30/ 388
(10) - المرجع ن، 30/ 388

إن علينا البيان وإن الملك لنا[1]، فقد التزم الله بإرشاد الناس إلى الخير قبل أن يؤاخذهم بسوء أعمالهم، فضلا منه سبحانه وحكمة منه، وإلا فإن الدنيا والآخرة ملكه[2].

ومن هدايتكم إنذاركم إعذارا[3] بأشد نار تسعّر وتتقد لهبا خالصا[4]، فلا يقاسي حرّها ولهيبها[5] ولا يستأهلها إلا الأشقى، ويفصح بشقاوته وصفه بالَّذِي كَذَّبَ أي بالحق وَتَوَلَّى وأعرض عن الطاعة[6]. وبالمقابل، سيبعد عنها المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي فلا يحوم حولها[7].

وقد أشار الشوكاني إلى تمام التقابل بين مآل الأشقى والأتقى بأَنَّهُ «لَا يَصْلَاهَا صِلِيًّا تَامًّا لَازِمًا إِلَّا الْكَامِلُ فِي الشَّقَاءِ وَهُوَ الْكَافِرُ، وَلَا يُجَنَّبُهَا وَيُبْعَدُ عَنْهَا تَبْعِيدًا كَامِلًا بِحَيْثُ لَا يَحُومُ حَوْلَهَا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا الْكَامِلُ فِي التَّقْوَى»[8]. كما علل الوصفين بأنهما نتيجة أعمال، فالشقاء للكذب والتولي والتُّقى لإيتاء ماله زكاة، فهي صلات تؤذن بالحكم[9].

(1) -فتح القدير، 5/ 551

(2) -التحرير والتنوير، 30/ 388

(3) -روح المعاني، 15/ 369

(4) -التفسير البياني للقرآن، 2/ 112

(5) - المرجع ن، 2/ 113

(6) - روح المعاني، 15/ 369

(7) -المرجع ن، 15/ 369

(8) -فتح القدير، 5/ 552. وقد أشار أحمد علي ربا إلى وجود التخالف في الأسلوب بين لا إلا الحاصرة، وبين الرابط بواو العطف. والواقع أن هذا ما يشير إلى التركيز على السعي السلبي، بذكر الإنذار والحصر، وذكر الإغناء قبله بالمال، والتردي، وهذا ما يظهر عدم التقابل الضدي بل التخالفي هو الغالب في السورة وهو أوسع.

(9) -التحرير والتنوير، 30/ 390

والتقي ببذله بيسر وسماحة مالّه وهو يتزكى طالبا النقاء والطيبة[1]، ليس جزاء على نعمة سبقت لأحد عنده، أو ابتغاء لأحد يجزيه بها على هذا البذل[2]. فتلك نعم يجزاها غير الأتقى[3]، أما الأتقى فليس له مبتغى يلتمسه ويجتهد سعيا فيه إلا إرضاء ربه الأعلى دون سواه[4]. ما جزاؤه؟ ليس فقط تجنيبه نارا تلظى بل نيل الثواب الجزيل، بل كل ما يرضيه. يقول ابن عاشور:» وهذا تتميم لقوله: (وسيجنبها الأتقى)، لأن ذلك ما أفاد إلا أنه ناج من عذاب النار؛ لاقتضاء المقام الاقتصار على ذلك، لقصد المقابلة مع قوله: (لا يصلاها إلا الأشقى)، فتمم هنا بذكر ما أعد له من الخيرات»[5]. وكل من سعى هذا السعي رضي الله عنه، وإذا رضي المولى أرضى عبده[6]

ثانيا: التصور العام للتقابل في سورة الليل

نبدأ بكلام بنت الشاطئ التي وقفت على هذا التقابل في كامل السورة فقالت:» نركز اهتمامنا على تدبر ما يسيطر على السورة كلها من ملحظ التقابل والتفاوت، يبدأ باللفت إلى ما هو حسي مدرك في تفاوت ما بين غشية الليل وتجلي النهار، وخلقه الذكر والأنثى، توطئة إيضاحية لبيان تفاوت مماثل في سعي الناس: بين من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، ثم تفاوت الثواب والعقاب في الأخرى: بين الأشقى يصلى ناراً تلظى، والأتقى الذي يجنبها بما ابتغى وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى»[7].

(1) -التفسير البياني للقرآن، 2/ 116
(2) -المرجع ن، 2/ 118
(3) -روح المعاني، 15/ 371
(4) -التفسير البياني للقرآن، 2/ 118
(5) -التحرير والتنوير، 30/ 392
(6) -التفسير البياني للقرآن، 2/ 121
(7) -المرجع ن، 2/ 103

ويمكن -بعد تتبع السورة ووجوه المعاني- تدقيق هذا التقابل فيما يأتي:

-الليل وغشيانه الأرض بظلمته، يقابل النهار وتجلي الشمس على الأرض. يرد ذلك إلى مصدر واحد هو نور الشمس تجلية وغشاوة بفعل دوران الأرض حول مصدر النور، ليلا ونهارا، إقبالا وإدبارا للمصدر. وهنا نلحظ التقابل بين إقبال التقي على النور استهداء فسعيا وحركة في الخير ويسرا في الحياة وانشراحا إلى أن ينال الحسنى وتمام اليسر، يقابله تولي الشقي عن مصدر النور والهداية، فتغشاه الظلمات، يزداد ضيقا وعسرا لعامل الظلام، ويسعى سعيا غير منضبط فيزداد ضيقا وعسرا إلى أن ينال أشد العسر وهو النار التي تلظى

-الذكر والأنثى خلق الله للإنسان في زوجين، دليل ملك الله في الدنيا، ومن دليل ملكه أيضا جعله الإنسان زوجين شقيا وسعيدا. وكما له الخلق، له الملك، ومن ملكه ترتيب اليسرى على التقوى، وترتيب العسرى على الشقاء، ترتيبا ميسرا مهيئا، ثم يظهر تمام ملكه في الآخرة فإصلاء الأشقى نارا تلظى وهي تمام العسرى، وإرضاء الأتقى بالحسنى وتمام اليسرى.

-هل يعني توقف أصناف الناس في هذين الصنفين فقط ؟! لا، ولكن منطق التقابل حصر الشتيت في فريقين، لأنهما - كما يقول ابن عاشور- «هما المهم في الحث على الخير والتحذير من الشر، ويندرج فيهما مختلف الأعمال»[1]. وهو ما يلحظه الزمخشري في آخر السورة أي الجزاء بين صنفين هما المنتهى شقاوة أو تقوى، يقول: «الآية واردة للموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين»، فهو حصر «ادعائي مبالغة لا حقيقي»[2]، وهو ما يبرز مقصد التقابل في هذه الآية، فتقابل الصنفان الأولان بالصنفين الآخرين، وتم الربط بينهما

(1) - التحرير والتنوير، 30/ 381

(2) - الكشاف، 4/ 764، واستحسنه الطيبي في الكشف، والألوسي في روح المعاني.

-ثمة تقابل بين أعمال ومواقف الصنفين، مع ملاحظة أن التقوى ليست ضدا للاستغناء، بل تقابلا خلافيا، وقد أوضحنا التقابل بين السبب والأثر كالآتي: استغنى فطغى، وافتقر فاتقى.

-تعلق الإعطاء والبخل واحد و هو المال، بدلالة الآيات: «ما يغني عنه ماله إذا تردى»، و»الذي يؤتي ماله يتزكى»[1]. وهو ما يشير إلى تدخل الشعور والمقصد، تعليلا للموقف، فالذي بخل ظن أن ماله يغنيه وييسر عليه شؤونه فتولى، بينما الذي أعطى يرجو أن ينال اليسرى والحسنى بل رضوان وجه ربه الأعلى، فهو يؤتي ماله بقصد التزكي والنقاء

-ثمة تقابل في الجنة والنار، فالجنة لم تذكر بالاسم بل بوصفين هما الحسنى واليسرى، فمجموعهما يصور الجنة، تمام حسن وتمام يسر، في مقابل وصف النار بالتلظي، فيجتمع فيها تمام السوء والعسر

-حضور ملك الله تعالى في أول السورة ووسطها وآخرها، ففي الأول يظهر في إغشاء الليل وتجلي النهار، وفي خلق الزوجين في الإنسان، ثم يظهر ملكه في سنته، ومنها جعل الشقي والسعيد من الإنسان، ومنها تيسير اليسرى لطالبها وتيسير العسرى للعامل لها[2]، ولو شاء لمنعكم من الهدى في حياتكم أو ألزم به وهذا تصرف في ملكه أيضا، لكنه وكل الاختيار إليكم[3]، ثم يظهر ملكه في الأخير، فيجازي جزاءه لا أحد يجازي غيره، «فإليه المصير كما له المبتدأ» [4]

-ثمة ارتباط أيضا بين الشقاوة والضلال، وهو ما تشير إليه بنت الشاطئ لارتباط الشقاء بالضلال في آيات أخرى[5]، وهو ما يشير إلى خط الهداية

(1) -التفسير البياني للقرآن، 2/ 106

(2) -الطبري، البيان جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، 2000 م، ط10، 24/ 473.

(3) - الرازي، مفاتيح الغيب، 31/ 186

(4) -التفسير البياني للقرآن، 2/ 112

(5) -التفسير البياني للقرآن، 2/ 114

والضلالة من أول السورة بالليل والنهار، إلى آخر السورة رجاء للمحسوس وهو رضى الناس ومنا بالعطاء، وبين رجاء الغيب وهو إرضاء الرب الأعلى.

تبقى تقابلات أخرى في السورة:

بين الشقي والتقي، وليس بينهما تقابل، بل التقابل بين الشقي والسعيد كما في آيات كثيرة في القرآن، والتقي والطاغي كما في آيات أخرى، فاتقى فسعد، وطغى فشقى.

بين الرضى والسخط: فالأتقى ينال رضى ربه، ويرضيه ربه، أما الأشقى فينال سخط ربه ويسخط، ولعل المقابل للرضى هو الردى، فمن لم يرض عنه ربه فقد ردى.

في السورة تقابل بين سعيين مختلفين أتم اختلاف، وذلك في جوانب عديدة وردت في السورة: شعور، وقصد، وموقف، وسلوك، وجزاء، كالآتي:

الصنف	الشقي	التقي
النور	الضلال	الهدى
	الليل وغشاوة الظلمة	النهار تجلي النور
شعور	استغناء	افتقار
قصد	قصد إرضاء النفس والناس	قصد إرضاء الأعلى
موقف	تكذيب بالحسنى	تصديق بالحسنى
سلوك	طغى	اتقى
	تولى	أقبل وقصد الأعلى
	بخل بماله	أعطى ماله
جزاء	التيسير للعسرى	التيسير لليسرى
	التلظي بالنار	مجانبة النار
	التردي	الرضى

خاتمة:

لعل من أبرز نتائج هذا البحث أن التقابل أسلوب مهم من أساليب القرآن الكريم، يورث الإقناع كما يورث الجمال والتأثير، وأن العلماء السابقين لغويين وبلاغيين ومفسرين اهتموا به اهتماما كبيرا، كل من زاوية تخصصه، فاللغويون من زاوية الدلالة، والبلاغيون من زاوية التأثيروالجمال، والمفسرون من حيث التوظيف في الكشف عن معاني القرآن ومقاصده.

وقد تجلى ذلك في الجانب التطبيقي من خلال سورة الليل، بالوقوف على تناسب السورة، وإبراز التقابلات التي تم بها مزيد الكشف عن المعاني، مع استحضار الصورة كاملة بالتقابل بين سعيين شعورا وقصدا وموقفا وسلوكا وجزاء.

ومن توصيات البحث، مزيد الكشف والوقف على التقابل أسلوبا من أساليب القرآن في الهداية، بالتحقيق في أنواعه والوقوف على تفاصيل الهداية تطبيقا له في السور القرآنية الأخرى. والله أعلم وأحكم.

المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير، نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، 1962م، ط1.

2. الآلوسي، محمود شكري، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت

3. باطاهر، بن عيسى، المقابلة في القرآن الكريم، دار عمار، الأردن، 2000م، ط1.

4. الباقلاني، محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، 1991م، ط1.

5. الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420 هـ، ط3

6. الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391م

7. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت

8. السيوطي، عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت.

9. الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، ط7.

10. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت

11. الطبري، محمد بن جرير، البيان جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، 2000 م، ط10

12. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م

13. ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422 هـ، ط1.

14. العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، مطبعة المقتطف، مصر، 1914م

15. العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت.

16. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، 2002

17. الفيروزابادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، إشراف محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005 م، ط8.

18. القرعان، فايز عارف، التقابل والتماثل في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية، دار العالم الحديث، الأردن، 2006م

19. القيرواني، ابن رشيق، العمدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار السعادة، مصر، 1964م، ط1.

السياسة اللغوية في الجزائر وأثرها في تعليم اللغة العربية بالمدارس الابتدائية

أ.الكاسية عليك

جامعة عبد الرحمن ميرة –بجاية –الجزائر-

ملخص البحث:

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى إبراز أثر الوضع اللغوي في الجزائر في تعليم اللغة العربية للمتعلمين المبتدئين، وما خلّفته السياسة اللغوية المنتهجة من قبل السلطات في تعليم هذا النسق من آثار سلبية في النمو اللغوي والفكري والمعرفي للمتعلم، بالإضافة إلى ما يعيشه هذا الأخير من اضطرابات نفسية ولغوية في الأطوار الأولى من التعلّم، إذ تتعايش في المجتمع الجزائري عدة لغات، وتختلف وضعيات استخدام هذه اللغة أو تلك باختلاف المنشأ السوسيو لغوي بالدرجة الأولى (لهجات عربية، لهجات أمازيغية، لغة فرنسية...)، وتبقى اللغة العربية الفصحى لغة القراءة والكتابة، ويقتصر استخدامها على التعليم وبعض المواقف الرّسمية، إلاّ أنّ الحكومة الجزائرية انتهجت إزاء الوضع السابق، سياسة تعليمة أثّرت سلبا على تعليم وتعلّم النسق اللغوي الفصيح، حيث لم تراع الوضع اللّغوي المعقّد والمتّسم بالتّعددية، ولم تَعْتنِ بتحديد طبيعة اللّغة العربية الفصحى ومنزلتها، فاعتبرتها اللغة الأولى للمتعلّم الجزائري، في حين إنّها ليست كذلك، بل هي لغة ثانية بالنّسبة للناطقين باللهجات العربية، ولغة ثالثة بالنّسبة للناطقين باللّهجات الأمازيغية، وقد أدت هذه السياسة المنتهجة من قبل السلطات

إلى عدم مراعاة المسؤولين عن إعداد الطرائق والمحتويات التعليمية بدورهم لمنزلة اللّغة الفصحى في التداول، وكان نتيجة ذلك كلّه تأخر تطوّر الطفل المعرفي والفكري وقصور كفايته اللّغوية والتّواصلية، وبالتالي، تدنّي المستوى اللغوي في مختلف مراحل التعليم.

كلمات مفاتيح: السياسة اللغوية، اللغة العربية الفصحى، التعليم، اللهجات، طرائق التعليم والتعلم.

Résumé:

A travers ce document de recherche, nous cherchons à mettre en évidence l'impact de la situation linguistique en Algérie sur l'enseignement de la langue arabe pour les apprenants débutants, et les effets négatives de la politique linguistique adoptée par les autorités dans l'enseignement de ce système linguistique sur le développement linguistique, intellectuel et cognitif de l'apprenant, en plus des perturbations Psychologiques et linguistiques de ce dernier dans les premiers stades d'apprentissage, car la société algérienne est multilingue dans la mesure où il y existe quatre langues, et les modes d›utilisation de telle ou telle langue diffèrent en fonction de l›origine socio-linguistique en premier lieu (dialectes arabes, dialectes berbères, langue française ...), et la langue arabe traditionnelle reste la langue de lecture et d›écriture, et son utilisation est limitée à l›éducation et à certains postes officiels, mais le gouvernement algérien a adopté une politique d›éducation qui a affecté négativement l›enseignement et l›apprentissage de cette langue, car il n›a pas pris en compte la situation linguistique complexe et pluraliste, et n›a pas voulu définir la langue arabe classique et son statut, la considérant comme première langue de l›apprenant, alors qu'il s'agit d'une deuxième langue pour les locuteurs des dialectes arabes, et une troisième langue pour les locuteurs des dialectes berbères, et cette politique a conduit au non-respect des responsables de l›élaboration des méthodes et des contenus pédagogiques, à leur tour, du statut de

la langue d'usage quotidien, et a été le résultat de tout ce retard chez l'enfant ; cognitif, intellectuel et le manque de développement de la compétence linguistique et communicative et, par conséquent, le faible niveau de la langue dans les différentes étapes de l'éducation.

Mots clés: politique linguistique, arabe classique, enseignement, dialectes, méthodes d'enseignement.

تشكّل اللّغة عنصرا مهما في تحديد هويّة المتكلّم وتوحيد أفراد المجتمع، كما تُعتبر سببا في انقسام أبناء الأمّة الواحدة والشعور بالتهميش والغبن والإقصاء في حالات عديدة، وبالتالي فإنّ اختيار لغة ما لتكون لغة وطنية أو لغة رسمية هو مسألة جوهرية تؤثّر بوضوح على مستويات مختلفة، لاسيما المستوى التعليمي.

1. مفهوم السياسة اللغوية: السياسة اللّغوية(Politique linguistique) كما يحدّدها اللساني الاجتماعي جان لويس كالفي، هي «مجموعة من الاختيارات الواعية المتعلقة بالعلاقات بين اللغة/اللّغات والحياة الاجتماعية»[1]، حيث تقوم السلطة أو بعض المؤسسات الأخرى باختيار بين الخيارات العديدة قصد الوصول إلى حلول تراها مناسبة للمشكلات التي يطرحها استعمال اللغة في المجتمع.ويربط كالفي مصطلح «السياسة اللغوية» بمصطلح آخر متعلّق به، وهو مصطلح «التخطيط اللغوي»(Planification linguistique)الذي يُقصد به «الانتقال إلى العمل / التطبيق»[2]، ويقرّ الباحث برنارد سبولسكي أنّ مصطلح «التخطيط اللغوي» كان يدل على كلّ محاولة ترمي إلى تغيير صيغة اللّغة أو للدّلالة على كيفية استخدامها، لكن «ومع نهاية الثّمانينات، منح الفشل الذريع والمتكرّر لسياسات التخطيط القومية فرصة لتشجيع استخدام واستبدال هذا

(1)- لويس جان كالفي، علم الاجتماع اللغوي، دار القصبة للنشر، الجزائر: 2006، ص111.

(2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الأخير بمفهوم أكثر حيادية وهو السياسة اللغوية»[1]، ويعني هذا المصطلح تقرير الدّولة السياسة اللّغوية التي ينبغي انتهاجها وتجسيد ذلك على أرض الواقع، إذ ينبغي وضع سياسة لغوية ما للنّظر في العلاقة بين اللّغة والحياة الاجتماعية، والنّظر في وضعية اللّغة ضمن المنظومة الاجتماعية ككلّ.

وانطلاقا ممّا سبق، فإنّ السياسة اللغوية هي اتّخاذ السّلطة قرارات واعية تخصّ الخيارات المطروحة بعد دراسة مسبقة لها، والانطلاق من أسس محدّدة تخضع للدّقة العلمية، وكذا الانطلاق من علاقة اللّغة بالحياة الاجتماعية قصد تنظيم الوضعية اللغوية، كأن تلجأ السلطة مثلا إلى اختيار لغة (في مجتمع متعدّد اللّغات) من أجل تسيير شؤون الدولة، أو من أجل تعليم الأطفال في المدارس...الخ.

ويحدّد ميشال زكريا أهم القضايا التي تركز عليها السياسة اللغوية وتسعى إلى إيجاد الحلول لها عندما يكون الوضع اللّغوي معقدا بسبب تعدّد اللّغات في المجتمع الواحد، ويلخّصها في ما يلي:

1. محاولة إزالة كلّ لغات والبقاء على لغة واحدة، وتصبح هي اللّغة القومية، يعني إزالة التّعددية اللّغوية، ودمج الأقليات الإثنية في بوتقة الثّقافة الوطنية.

2 . الاعتراف بالتّعددية والمحافظة على اللّغات الأساسية في إطار الدولة، وتبني لغة واحدة أو أكثر تخدم التواصلات بين المقاطعات في داخل الدولة. وهذا الاتجاه يعترف بالتّعددية الثقافية كطابع تتسم به الدولة.

3 . الاعتراف بلغتين رسميتين تتوافقان مع التركيبة اللغوية الوطنية[2].

---

(1)- برنارد سبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، ترجمة عبد القادر ستقادي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 2010. ص162.

(2)- ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية (دراسة لغوية اجتماعية مع مقارنة تراثية)، ط1، دار العلم للملايين، لبنان: 1993، ص16

تلجأ الدولة إلى تبني سياسة لغوية معيّنة لحل المشكلات التي يطرحها التّعدّد اللغوي، كاتخاذ قراربشأن ترسيم لغة أواختيارلغة التعليم، أوفرض لغة ثالثة لأداء خدمات معيّنة، أو ارتقاء بلهجة من اللّهجات والارتقاء بها إلى مرتبة اللّغة الرسمية،... إلى غير ذلك من المشكلات المطروحة في المجتمع المتّسم بالتعقيد اللّغوي، إلاّ أنّ المسألة الأكثربروزا في هذا المجال هو اتّخاذ قرارات بشأن تقرير اللّغات الوطنية والرّسمية.

ويُعتبر العالم العربي بصفة عامة، والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص من المجتمعات التي تعيش وضعا لغويّا معقّدا تتعايش فيه عدة لغات مع تداخل عوامل كثيرة (ثقافية، اجتماعية، تربوية ...) مع قضية اللغة ممّا يزيد الوضع تعقيدا.

2 -الوضع اللغوي في المجتمع الجزائري:

يتنوّع الوضع اللّغوي في بلادنا بتنوّع ثقافات المجتمع ولغاته، ونعيش وضعية لغوية مميّزة وهي «وضعية معقّدة بسبب وجود عدّة لغات وبالأحرى عدّة فضاءات لغوية»[1]. وتتمثّل هذه الفضاءات، كما تحدّدها الباحثة خولة طالب الإبراهيمي[2]، في:

1 - اللهجات العربية: وهي لغة التداول اليومي في معظم مناطق الوطن، وتشكّل لغات المنشأ للناطقين بها.

2 - اللّغة الفصحى: هي لغة المدرسة والمؤسّسات الثقافية، وهي لغة السياسة والإعلام والإدارة بصفة عامة، وتتقنها الفئة المثقّفة.

---

(1) - Khaoula Taleb I., Les Algériens et leur (s) langue (s), 2ème édition, El Hikma, Alger, 1997, p.22.

(2)التفاصيل نجدها في المرجع نفسه، ص: 22، 33.

3 - اللّهجات الأمازيغية: تشغل أيضا حيّزا كبيرا في الاستعمال الشفوي، وتشكّل لغات المنشأ للناطقين بها. وتتسع في مناطق عديدة أهمها: الأوراس، جرجرة، الهقار، الميزاب، ومناطق أخرى.

4 - اللّغات الأجنبية: ولهذه اللّغات كالفرنسية بالدرجة الأولى، ولغات أخرى تأثير هام على الاستعمال الشفوي للهجات الجزائرية سواء العربية أو الأمازيغية. ولم يقتصر استعمال اللّغة الفرنسية على الجانب الشفوي فقط، بل سجّلت وجودها ومكانتها في الميدان الإعلامي وفي معظم المؤسّسات الاقتصادية وبعض الإدارات، وكذا في التعليم العالي.

تعيش الجزائر وضعًا لغويًّا خاصا، حيث يسود المجتمع تعدّد لغوي معقدّ قد بلغ فيه الاحتكاك اللّغوي ذروته، فإلى جانب تعايش الفصحى واللّهجات، هناك ظاهرة أخرى أكثر تعقّيدا للوضع اللّغوي في مجتمعنا (وفي بعض دول المغرب العربي كالمغرب الأقصى مثلا) وهي ظاهرة الثنائية اللّغوية، إذ تختلف هذه الأخيرة باختلاف مناطق البلاد، فنجد مناطق تتحدّث (أمازيغية / عربية) وأخرى (عربية / فرنسية) ومناطق تتحدث (أمازيغية / فرنسية). وكثيرون هم الأشخاص الذين يتقنون لغتين أو أكثر (عربية / فرنسية / أمازيغية...). وقد لاحظ فرقيسون، وهو يدرس المجتمعات المحلية للكلام (كالمجتمع الجزائري مثلا) كيف يتحوّل المتكلّمون في مواقف مختلفة «من إحدى اللّغات إلى أخرى، حيث يمكن أن يتكلّم الفرد مستوى لغوي في المنزل، ويتحول إلى آخر في المدرسة أو العمل، ثمّ يعود مرة أخرى إلى الأولى في أي لقاء مع الأصدقاء وهكذا»[1]. وهذه الظاهرة يتميز بها حتى الكلام الفردي، حيث إنّ معظم الجزائريين حين يتكلمون، نجد أنّ ذلك الوضع الاجتماعي والتحوّل في المواقف المختلفة ينعكس على السّلوك الكلامي الفردي. ويتعقّد السّلوك

(1)- محمد السيد علوان، المجتمع وقضايا اللغة، دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية: 1995، ص 135.

اللّغوي للفرد بسبب تعقيد وتشابك العوامل والمواقف اللّغوية الاجتماعية المحيطة به.

3 - منزلة اللّغة العربية الفصحى: يتضح من العنصر السابق أنّ لغة التعامل اليومي في الجزائر (وأيضا في معظم الدول العربية) تختلف تماما عن لغة المدرسة ولغة الثقافة بصفة عامة، وليس للفصحى مكانة في الاستعمال اليومي، فهي لغة التعليم في المدارس ولغة المعاملات الرسمية بصفة عامة، في الوقت الذي تتسم فيه اللهجات بطابع الوظيفية، فهي لغة التّداول اليومي تسيطر على نطاق الاستعمال الشفوي وعلى ألسنة المتكلمين، ويتفاعل معها الطفل كثيرا قبل دخوله إلى المدرسة، هذا ما ليس للفصحى فرصة فيه، حيث إنّ التّفاعل يتمّ في وضع اللّغة في سيرورة اجتماعية، وسيفتقر الطفل إلى هذا التفاعل مع اللغة التي سوف يجدها عند ولوجه المدرسة.

وانطلاقا من الوضع السابق، فإنّه لا يمكن للغة العربية الفصحى أن تنزل منزلة اللغة الأولى للمتكلم الجزائري، سواء الناطق باللهجات العربية أو الأمازيغية، ولا يُمكن اعتبارها اللغة الأم بالنسبة للمتعلّم رغم أنّها ليست لغةً غريبة عن الطفل المقبل على الدخول إلى المدرسة ولا عن محيطنا كونها لغة التعليم، والإدارة، والدين، والأدب، والمعاملات الرسمية، واللغة التي تستعملها الكثير من القنوات الإذاعية الوطنية، والقنوات التليفزيونية ووسائل الإعلام بصفة عامة، فالطفل يستمع إلى هذه اللغة من خلال القنوات المتخصصة في الألعاب التربوية والأفلام الكرتونية ومختلف الأنشطة التلفزيونية المفضّلة لديه، سواء قبل دخوله المدرسة أو خلال مرحلة التعليم الابتدائي. فاللّغة الأمي اللّغة التي يفتح بها الفرد عقدة لسانه عند ظهوره إلى الوجود، وهي اللّغة التي تناغيه به أمّه، وينشأ على التحدّث بها مع أفراد عائلته ومحيطه الاجتماعي، يكتشف بها هذا المحيط ويفهمه، وهذه اللّغة بالنسبة للأطفال الجزائريين هي تلك اللّهجات العربية أو الأمازيغية التي اكتسبوها بالسليقة،

وارتبطوا بها، وتعوّدوا على ممارستها بكلّ عفوية. بينما اللّغة الفصحى يتعلّمها في المدرسة بوعي، ويتدرّب على استخدام قواعدها، ثمّ يشغل نفسه على فهم هذه القواعد حتّى تصبح هذه اللّغة لغة ثانية إلى جانب اللّغة التي اكتسبها في محيطه، وهي ليست لغة أجنبية بل لغة ثانية، يستدعي تعليمها اعتماد مناهج وأساليب تختلف عن تلك التي تُعلَّم بها اللغة الأم. واللغة الثانية هي« لغة تحلّ من جهة الرتبة في الاكتساب والحذق مباشرة بعد اللغة الأم/ الأولى وقبل أية لغة أخرى تأتي لاحقا (الثالثة، الرابعة...)»[1]، فاللغة الثانية تُعلّم مباشرة بعد اكتساب لغة الأم، وقد أكّد اللسانيون الاجتماعيون حقيقة أنّ اللغة العربية الفصحى هي اللغة الثانية بالنسبة للفئة التي نشأت على التّحدّث باللهجات العربية، واللغة الثالثة بالنّسبة للفئة التي نشأت على التّحدّث باللهجات الأمازيغية.

4 -السياسة اللغوية في الجزائر: إنّ السياسة اللغوية المنتهجة في الجزائر، وفي ظلّ الظروف المذكورة، تتمثّل في قرار الحكومة الاعتراف باللغة العربية الفصحى كلغة وطنية ورسمية منذ الاستقلال إلى غاية 2001 حيث تمّ الاعتراف بالأمازيغية كلغة وطنية إلى جانب اللغة العربية، والاعتراف بها كلغة رسمية أيضا سنة2015، وكان اعترافها باللغة العربية الفصحى دون لغات أخرى مرتبطا إلى حدّ ما بتنظيم التّعدد اللّغوي السائد في المجتمع، والحفاظ على الوحدة الوطنية، والتّخلص من شبح التعدّد اللغوي على النّطاق الرسمي، ولو كلّفها ذلك تهميش اللّغة الأمازيغية لعدة سنين، ونظنّ أنّ عدم الاعتراف بهذه الأخيرة كلغة وطنية ورسمية سببه هو الاعتقاد بأنّ ذلك سيؤدي حتما إلى الانفصال وتفكيك الوحدة الوطنية وانقسام الوطن.

(1) - محمد الشيباني «الطفل العربي بين اللغة الأمّ والتواصل مع العصر» ضمن كتاب: اللغة والتواصل التربوي والثقافي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء: 2008، ص106.

لقد اختارت السلطات من التّعدد اللغوي السائد في البلاد اللغة العربية الفصحى كلغة رسمية ووطنية وخصصتها لأداء مجموعة من الوظائف، فهي لغة التعليم ولغة السياسة والإدارة، ولغة الممارسات الدينية...الخ، كما قرّرت أن تكون اللغة العربية الفصحى لغة المدرسة، وبالتالي، أنزلت هذه اللغة منزلة اللغة الأم للجزائريين، وقد كان لهذا القرار (أي اعتبار الفصحى اللغة الأم) نتائج وخيمة، طبعا، على تعليم اللغة في المدرسة الجزائرية، حيث إنّ لغة الجزائريين، رسميا، هي اللغة العربية الفصحى، في حين يعيش الواقع حقيقة أخرى مختلفة تماما، لأنّ استعمال اللغة في الحياة العادية للجزائريّين واستعمالاتهم اليومية محدود جدا.

5 السياسة اللّغوية والسياسة التعليمية: تُعتبر المدرسة الابتدائية المؤسسة الأولى التي أَدخلت إليها الجزائر اللغة العربية الفصحى بعد الاستقلال، إلاّ أنّ المواد العلمية والحساب ظلّت تدرس باللغة الفرنسية إلى غاية فرض وزارة التربية الوطنية سياسة التعريب على المدرسة الجزائرية، حيث تمّ تعريب المدرسة الابتدائية بالتدرّج، وتحقق التعريب الكامل لهذه المؤسسة سنة (1981) وأصبحت اللغة العربية الفصحى، منذ ذلك الحين، اللغة المسيطرة على المدرسة الابتدائية، وهي لغة تدريس جميع المواد، وبقيت اللغة الفرنسية تُعلم كلغة أجنبية ابتداءً من السنة الثالثة من التعليم الابتدائي. ومن هنا «انتقلت اللغة العربية، عبر مختلف الإصلاحات التي قيم بها من منزلة اللغة المدرّسة إلى منزلة لغة التدريس تدريجيا»[1]. وقد استمرت وزارة التربية الوطنية في تطبيق سياسة التعريب على المؤسسات

(1)- خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، تر. محمد يحياتن، ط2، دار الحكمة، الجزائر: 1997، ص129.

التعليمية الأخرى (الإكمالي، ثمّ الثانوي، فالجامعي)[1]، وقد شمل التعريب البرامج والكتب المدرسية والوسائل التعليمية المرافقة لتعليم اللغة العربية.

ويُعتبر تحديد السلطات لمنزلة اللغة، في أي بلد كان، المنطلق الأساس للديداكتيكيين والمنهجيّين، ينتقون، من خلال ذلك، المنهجية الملائمة لتعليم تلك اللّغة، حيث تختلف منهجية تعليم لغات المنشأ عن منهجيات تعليم اللّغات الثانية، والتي تختلف بدورها عن منهجيات تعليم اللغات الأجنبية.

وقد انطلق معدّو مناهج وطرائق التدريس اللغة ومحتوياته في الجزائر من السياسة اللغوية التي انتهجتها السلطات الحاكمة إزاء الوضع اللغوي السائد في المجتمع الجزائري، حيث عكست السياسة التعليمية السياسة اللغوية التي كان مفادها الاعتراف باللغة العربية الفصحى كلغة وطنية ورسمية من جهة، واللغة الأولى/الأمّ للجزائريين من جهة ثانية، وذلك يتناقض طبعا مع ما يعيشه المتعلم الجزائري الذي يذهب إلى المدرسة عند بلوغه سنته الخامسة أو السادسة، ليجد بيئة جديدة يسودها نمط لغوي مختلف عن النمط الذي استحكمه شكلا ومضمونا، هذا الوضع الجديد، يفرض عليه الخضوع لسلوكات لغوية جديدة تتناقض نوعا ما مع السلوكات المكتسبة في المحيط، خاصة أنّ النمط الفصيح نمط مضبوط بقواعد صارمة (في التركيب والمعجم معا) وهذا عكس ما تعوّد عليه في لغة المحيط والتي تنفر من الضبط والتقنين. ومن هنا، فإنّ الطفل الذي يدخل المدرسة لأوّل مرة، يجد لغة تختلف عن اللغة التي نشأ على التواصل بها في القواعد المعجمية والتركيبية وفي بعض خصائص النّطق بها، وحتى في الأعراف الاجتماعية التي تضبط استعمالها، مع وجود عناصر لمشتركة بين النسق الفصيح والعامي وغيابها بين النسق الفصيح والأمازيغية.

(1)- التفاصيل نجدها في: المرجع نفسه، ص: 134، 136.

والواقع أنّ اللغة الفصحى لم تحظ باستعمال واسع حتّى في الفضاء التربوي، إذ حتى النقاشات التي تجري بين المدرسين والتلاميذ في قاعات الدروس، فغالبا ما يُمزج فيها بين لغة المحيط ولغة المدرسة.

6 . أثر السياسة التعليمية على منهجية تعليم اللغة الفصحى في المدرسة الابتدائية: ممّا انجرّ عن السياسة اللغوية، التي تعتبر اللّغة العربية الفصحى اللغة الأولى للجزائريين، تعليم هذه الأخيرة بالتطبيق عليها مناهج تعليم اللغات الأولى، وذلك بالتركيز على آلية التعلّم بدلا من آلية الاكتساب، فاللغة الأم تُكتسب في المحيط دون تدريب وتركيز الانتباه، ويُركّز فيها على الاستعمال الشفوي دون وجود نظام كتابي يلتزم المتكلم بضوابطه، أمّا الفصحى التي هي ليست لغة المحيط، فإنّ الطّفل يتعلّم أنظمتها (الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية) وكيفية توظيف هذا النسق، ويساعده على ذلك التدريبات المستمرة بشكل صريحأو ضمني، وكثيرا ما يتمّ التركيز على المكتوب إلى جانب النطق. يعني أنّ اللغة الفصحى لا تُكتسب بعفوية ولا يتسم تعلّمها بسمة الطبيعية، وتُعتبر قاعة الدرس «فضاءً بيداغوجيًّا يحتضن مجموعة لغوية تؤثثه تشترك في قواسم من بينها: تداول قواعد هذه اللغة وهو جانب ميتالغوي (حيث يقدم المعلم على وصف هذه اللغة وصفا نحويا، صرفيا، صوتيا...) واحترام لشروط إجراء المحادثات (الإيجاز، الدقة واللياقة...) وفق مقتضيات تحددها العملية البيداغوجية ومناهج تعلّم اللغات»[1]، هذا عكس اللغة الأمّ التي تُكتسب اكتسابا طبيعيا وعفويا.

ويذهب شكري فيصل إلى أنّ المشكل الرئيس الذي يعانيه تعليم اللّغة الفصحى، في وقتنا الحالي هو أنّنا نحاول تعليمها((ولكن الذي يجب أن نحاوله في الحقيقة إنّما هو اكتساب اللّغة العربية وأن تكون هذه المحاولة على كلّ نطاق، في انسجام كامل بين المدرسة والمجتمع من حولها... وبين المدرسة

(1)- محمد الشيباني، الطفل العربي بين اللغة الأمّ والتواصل مع العصر، ص104.

وكلّ وسائل الإعلام))[1]. فالاكتساب هو الهدف وليس التعليم والتعلّم، لأنّ الطفل بحاجة إلى اكتساب المهارات اللغوية والتواصلية تسمح له باستخدام لغة المدرسة. فآلية التعليم تناسب تعليم لغات الأم، أمّا آلية الاكتساب فهي المناسبة لتعليم اللغات الثانية، في حين تركز مناهج تعليم الفصحى بمدارسنا، ومع المبتدئين، على آلية التعليم، وقد أكّد الباحث تمام حسان (حين سُئِل عن المنهجية المناسبة لتعليم اللغة الفصحى في العالم العربي، في ندوة نُظِّمت بإحدى المدارس العليا بالمغرب الأقصى (سنة 1977))، إلى أنّ «الأمر بالنسبة لمعلّم اللغة العربية واضح من هذه الناحية. والحمد لله

فالفصحى لغتنا الثانية، هكذا كانت في الجاهلية، وهكذا ظلّت في الإسلام إلى يومنا هذا، وينبغي أن نطبق على تعليمها وإعداد البرامج لها ما يناسب من المناهج مع «اللغة الثانية»»[2]، هذا ما يقتضي إعادة النظر في المناهج المعتمدة في تعليم الفصحى، ومراعاة وضعية هذه الأخيرة في الاستعمال قبل التخطيط لطرائق تدريسها.

وانطلاقا ممّا سبق، يربط الكثير من الباحثين سبب انهيار مستوى تعليم اللغة العربية الفصحى، في مدارسنا، إلى الاهتمام المنصب على الأشكال اللغوية، ظنّا أنّ الطفل عندما يأتي إلى المدرسة يكون قد اكتسب ملكة أساسية باللّغة العربية التي هي لغته الأم، لذا يتمّ تعليمها بشكل صريح، في حين إنّ التعليم الصريح للّغة العربية الفصحى لا يصل بالطفل إلى اكتساب الطلاقة بهذه اللغة، ولا يتحكم في آلياتها، ويعجز عن توظيف قواعدها توظيفا سليما في مواقف الاستخدام، لكن ما ينبغي أن نقوم به

(1) - شكري فيصل، قضايا اللغة العربية، مجلة لسان العرب، ع.26، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (مكتب تنسيق التعريب)، الرباط: 19986، ص27.

(2)- المصطفى بن عبد الله بوشوك، تعليم وتعلّم اللغة العربية وثقافتها، ط2 ، الهلال العربية، المغرب: 1994، ص45.

هو جعل الطفل يكتسبها، لأنّ الاكتساب عملية تتطوّر في سياق طبيعي، أو تعليمي خلال التفاعلات الكلامية المختلفة، وعملية الاكتساب تشبه طبيعة الطفل الذي يتعلّم لغته الأولى في محيطه حيث ((لا يشغل نفسه بفهم القواعد النحوية عندما يستمع إلى جملة أبيه وأمّه))[1]. ذلك لأنّ المتعلّم في هذه الحالة لا يتعرّض إلى المصطلحات، ولا تهمّه القواعد التي تضبط كلامه، مثل الطفل الذي يوضع في بيئة لغوية معيّنة، فيكتسب لغة جديدة دون أن يعي تلك القواعد التي هو بصدد اكتسابها واحترامها.

نصل إلى أنّ اللغة العربية الفصحى لا يمكنها أن تنزل منزلة اللّغة الأم بالنسبة للطفل الجزائري، ولا يمكن أن نطبّق في تعليمها طرائق تعليم لغات المنشأ، وهذا عكس ما يجري في الواقع، ولا تعرف طرائقنا قرارًا واضحا يقودها إلى تجاوز والأهواء الشخصية والقرارات السياسة التي لا تخدم مصلحة المتعلّم، وتتناقض مع واقعه، وكان تطبيق هذه السياسة التي تتناقض مع الواقع هو السبب المباشر في المشاكل التي يتخبّط فيه تعليم اللغة بالمدرسة الجزائرية.

8 -أثر السياسة التعليمية على المتعلّم الجزائري: يعيش المتعلم الجزائري تناقضا بين واقعه اللّغوي، حيث يستضمر نمطا كلاميا نتيجة احتكاكه بأسرته ويتمثّل في لهجة بيئته التي يتحدثها بطلاقة، وما يعيشه في المدرسة من الازدواجية بين اللّهجة واللّغة العربية الفصيحة في السنة الأولى والثانية من تعلّمه، والثنائية اللّغوية بين العربية والفرنسية في السنة الثالثة، وبين العربية والأمازيغية في السنة الرابعة في بعض الولايات، حيث تقدّم له هذه اللّغات الجديدة عليه بأساليب لا معالم لها، وبطرائق غير مناسبة، مما

(1) - رشيد طعيمة، تعلّم اللّغة العربية لغير الناطقين بها مناهجه وأساليبه، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو- 1989، الرباط: 1989، ص20.

يؤدي به إلى عدم استضمارواكتمال أي نسق من هذه الأنساق، فيضطرب نموكفاياته اللّغوية والتواصلية، ونموه المعرفي والوجداني، وينتهي به الوضع إلى أزمات نفسية في بداية نموه، وبالتّالي، يفشل في مشواره التعليمي التعلّمي. وإذا كان الدّارس الذي نشأ على استعمال اللّهجة العربية بطلاقة واستحكم ملكاتها يعاني صعوبات في تعلّم النّسق الفصيح، فإنّ وضعية الدّارس الذي نشأ على التحدّث بلهجة من اللّهجات الأمازيغية واستحكم نظامها هي وضعية أكثر تعقيدا، لأنّ مهما اتّسعت الفروق بين اللّهجات العربية واللّغة التي انحدرت منها، فإنّ هناك مواضع كثيرة تتفق فيها مع الفصحى وتبقى مرتبطة بها، لكن الوضع يختلف بالنّسبة للأمازيغية التي لا تربطها بالفصحى صلة، ممّا يستدعي الاستعانة بمناهج تعليم اللّغات، على أساسها التّعليم التّواصلي الذي يستهدف الكفاية التّواصلية بالدّرجة الأول.

ومن الآثار السلبية التي ترتّبت عن السياسة التعليمية السابقة أن المتعلِّم بصفة عامة يعاني من تأخّرٍ في التّعبير، مع ظهور اضطرابات لغوية، وتأخّرٍ في القراءة، وضعفٍ في الرّصيد المعجمي الفصيح، وانعدام القدرة على استضمار النّاجع للتّراكيب اللّغوية، وتداخلات غير سويّة على المستوى المعجمي، وعلى المستوى الفونولوجي (صعوبة النّطق بالفونيمات غير الموجودة في نسقه الأصلي) وعلى المستوى النّظمي (تأطير الفكر بالنّسق الأصلي) أما على المستوى الإدراكي والمعرفي، فإنّ الطفل لا يصرف مجهوداته في التعبير والإبداع، وإنّما في المحاولات الصعبة للسّيطرة على اللّغة التي لا يتحكم فيها، عوض استثمار هذا الجهد المضني في فهم وتحليل الواقع والنّصوص واستثمارها وتقويمها ونقدها...، كلّ هذا نتيجته هو تأخر تطوّر الطفل المعرفي والفكري وقصور كفايته اللّغوية والتّواصلية، وبالتالي التّرسّب والفشل الدّراسي[1].

(1)- محمد الرباحي، إشكالات تعليم النّسق الفصيح بالمغرب: من أجل وسط لغوي لتعلّم العربية الفصحى. الانترنت http://www.alsaheefa.net

وتتراكم الأخطاء التي تتخلّل لغة طفل المدرسة الابتدائية وتتجذّر في أساليبه، وتصاحبه إلى المراحل التّعليمية المتقدّمة (الثانوي والجامعي) حيث إنّ الطّالب العربي المتخرّج في المدرسة أو حتى في الجامعة، كما يصفه الباحث نهاد الموسى، «لا يقرأ كما ينبغي أن يقرأ: (...) فلا يقرأ قراءة جهرية معبّرة، ولا هو يسرع في القراءة الصامتة، ولا هو يحسن استخلاص معاني ما يقرأ، ولا هو يحسن التّغلغل فيما وراء السّطور، بل إنّه، بصورة عامة، لا يحبّ القراءة (...) لا يكتب كما ينبغي أن يكتب؛ فهو كثير الخطأ في الإملاء، كثير الخطأ في النّحو (...) لا تجري أفكاره على نحو متسلسل، ويستعمل الألفاظ استعمالا قلقا. (...) ولا يحسن الاستماع ابتداء فإذا أظهر الاستماع تبيّن أنّه لا يحسن استخلاص مضمون ما يسمع»[1]، والخلل في كلّ ما سبق لا يكمن في المتعلّم ذاته، حيث أثبت العلماء، على رأسهم تشومسكي، أنّ الطّفل يملك قدرات فائقة تمكّنه من اكتساب نظام أيّ لغة، وطالما نجد أطفال جزائريّين يتقنون أكثر من لغة في المحيط قبل سنّ الدّخول المدرسي، ويعبّرون بها بكل طلاقة وإبداع، لكن واقع تعليم النّسق الفصيح لم يوفّر للطّفل إمكانية تحقيق ذلك.

وقد جرت تعديلات وإصلاحات على النّظام التربوي، فمسّ ذلك مختلف جوانب هذا النّظام، إلاّ أنّها تعديلات تحول دون فكّ إشكالات تعليم اللّغة الفصحى، كونها لا تراعي منزلة هذه اللّغة في التّداول، بل لم تراع «اللّغة نفسها، بطبيعتها الخاصة، ونظامها الذّاتي، وأشكال تحقّقها في مواقف الاستعمال، والمسلّمات في طريقة اكتسابها، ونظريات درسها؛ ذلك أنّ النّظر في طبيعة الموضوع لا يقل أهمية عن النّظر في طبيعة المتعلّم عند أيّة محاولة لتشكيل طريقة في تعليمه»[2]. فقد تضافرت كلّ العوامل لتدني مستوى التعليم اللغة

(1)- نهاد الموسى، مقدمة في علم تعليم العربية، ضمن كتاب «أشغال ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية» سلسة اللّسانيات، ع5، الجامعة التونسية. تونس: 1983، ص 152.

(2)- المرجع نفسه، ص 151.

العربية الفصحى بمدارسنا (كالاختلاف بين لغة المحيط ولغة المدرسة، سيطرة السلوكات اللغوية الاجتماعية على ذهن المتعلّم، عدم مراعاة المسئولين لمنزلة اللغة الفصحى، وفشل المناهج في تلبية الحاجات اللغوية والتواصلية للمتعلمين...) وبالتالي، فإنّ الأهداف التي سطرتها المدرسة الابتدائية لتعليم اللغة العربية الفصحى صعبة المنال، لأنّ وضعية تعليم هذه الأخيرة وضعية معقّدة، وأنّ عواقبها وخيمة على المتعلّم وعلى المدرّس الذي يتخبّط بطريقة عشوائية بحثا عن أنسب الطرائق لتحسين هذا الوضع.

9 -الحلّ المقترح: إنّ الحل للمشكلة المطروحة في هذه الدراسة هي مسؤولية السلطات بالدرجة الأولى، إذ ينبغي تبني سياسة لغوية تأخذ في الحسبان الوضع اللّغوي المعقّد والمتّسم بالتّعددية، باعتبار أنّ اللّغة الفصحى هي لغة المعاملات الرّسمية والممارسات الدّينية من جهة، وبعيدة عن كونها لغة الاستعمال اليومي من جهة ثانية. أي تحديد الوضع اللغوي السائد في المجتمع، وبالتالي، تحديد طبيعة اللّغة العربية الفصحى ومنزلتها (فهي ليست لغة أولى، بل هي لغة ثانية أوثالثة). ولتبنّي هذه السياسة، ينبغي قبل ذلك إسناد للمتخصصين في أبحاث اللسانيات الاجتماعية مهمة تحديد الواقع اللّغوي في الجزائر تحديدا علميا، ووضع خريطة لغوية حقيقية. وهذا التحديد سيساعد المربين على صياغة طرائق محكمة، واستراتيجيات تعليمية مناسبة لتعليم الفصحى بالمدرسة الجزائرية، يعتنون من خلالها بمكانة هذه اللّغة في الاستعمال العام لها في المجتمع، ويراعون الفوارق الأساسية بينها وبين اللّهجات المتداولة في المحيط.

خلاصة:

نصل من خلال هذا الطّرح إلى أنّ الحديث عن المناهج المناسبة لتدريس اللغة العربية الفصحى يأتي بعد وضع سياسة لغوية تأخذ في الحسبان منزلة هذه اللغة في الاستعمال اليومي، وبالتالي نتفادى المشاكل التي تلقي بظلالها على كلّ من المتعلم والمعلّم، والتي تقود إلى ضعف قدرات الطفل اللغوية والتواصلية، بل كثيرا ما تقود إلى الفشل المدرسي والرسوب، ثمّ الضياع.

إنّ التخطيط المحكم للطرائق التعليمية يقتضي تحليل واقع اللّغة لتحديد الصعوبات التي لا يجب أن تغفلها الطرائق، كالاختلافات القائمة بين لغة الاستعمال ولغة المدرسة، والوقوف عند أبعاد هذه الفوارق بكلّ جديّة، حيث إنّ المشكلة الرّئيسة التي تؤثّر بعمق في الضّعف اللّغوي لدى متعلّمي المدارس الابتدائية في بلادنا ترتبط من جهة بالتّعدد اللّغوي السّائد في المحيط، ومن جهة ثانية، بغياب منهجية تعليمية تستحضر طبيعة اللّغة الفصحى أثناء إعداد البرامج والطّرائق المناسبة لتحقيق أهداف تعليم اللّغة العربية الفصحى، وانعدام الجرأة العلمية التي تفصل في وضع هذه اللّغة من أجل تحديد منزلتها في المحيط الاجتماعي، لأنّ هذا العمل يستهدف سياسة تعليمية محكمة تراعي خصوصيات هذه اللغة، ومنزلتها، وتأخذ بعين الاعتبار الوضع الإثنو لساني للمتعلم، (عربي، أمازيغي،...)، وبالتالي يمكن أن نخطط لعملية تعليم والتّعلّم تخطيطا محكما.

المراجع و المصادر:

- الكتب باللغة العربية:

1 - برنارد سبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، ترجمة عبد القادر ستقادي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 2010.

2 - رشيد طعيمة، تعلّم اللّغة العربية لغير الناطقين بها مناهجه وأساليبه، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-إيسيسكو- 1989، الرباط: 1989.

3 - شكري فيصل، قضايا اللغة العربية، مجلة لسان العرب، ع26، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (مكتب تنسيق التعريب)، الرباط: 19986.

4 - لويس جان كالفي، علم الاجتماع اللغوي، دار القصبة للنشر، الجزائر: 2006،.

5 - محمد السيد علوان، المجتمع و قضايا اللغة، دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية: 1995.

6 - محمد الشيباني «الطفل العربي بين اللغة الأمّ والتواصل مع العصر» ضمن كتاب: اللغة والتواصل التربوي والثقافي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء: 2008.

7 - المصطفى بن عبد الله بوشوك، تعليم وتعلّم اللغة العربية وثقافتها، ط2، الهلال العربية، المغرب: 1994.

8 - ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية (دراسة لغوية اجتماعية مع مقارنة تراثية)، ط1، دار العلم للملايين، لبنان، 1993.

9 - نهاد الموسى، مقدمة في علم تعليم العربية، ضمن كتاب «أشغال ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية» سلسة اللّسانيات، ع5، الجامعة التونسية. تونس: 1983.

- الكتب باللغة الفرنسية:

1 - Khaoula Taleb Ibrahimi, Les Algériens et leur (s) langue (s), 2ème Edition, El Hikma, Alger. 1997.

- المراجع الإلكترونية:

1 http://www.alsaheefa.net

التأصيل لمصطلحات نقدية
عند إبراهيم عبد الرحمن محمد

د. حواس بري

قسم اللغة العربية وآدابها

-جامعة الجزائر -2

حاضر فينا أستاذنا الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد –رحمه الله- في جامعة عين شمس كلية الآداب قسم اللغة العربية، ونحن طلبة في مرحلة الماجستير في عام 1984 وكان من حَضّنا أن التقينا به وتعلّمنا منه الكثير فيما يتعلق بالجسارة التي يجب أن يتحلى بها الطالب، من خلال كتابه بين القديم والجديد وقال ما مضمونه: هدفي من هذا الكتاب أن أدرّب الطلبة على النقد، وهذا الذي لمسناه على امتداد سنة دراسية وما بعدها، كنا نقرأ معا كتابه بين القديم والجديد وفي حضرته، يطلب إلينا نحن الطلبة الذين لم يتجاوز عددنا سبعة طلاب، بعد تحديد الفقرة ثم يطلب إلى كُلٍّ منا أن يبدي فهمه، ثم يقوم بالكشف عمَّا حَوَتْهُ هذه الفقرة أو تلك، انتبه إليها بعضنا وفاتت بعضنا الآخر، ومنها ما يتفضل به علينا بوصفه قراءته الخاصة، ورؤيته للقضية أو الموضوع أو الفكرة المتناوَلة وكان كلما سنحتْ الفرصة يلوّح بمصطلح جديد نحسبه غير متداول في الحياة النقدية والثقافية أيامئذ، وأحسبُ أن هذه المصطلحات هي من فيض قراءاته للنقد العربي، قديمه

وحديثه وللنقد الغربي كذلك، ثم للقراءات التي ينشئها حول الشعر العربي قديما وحديثا.

ينطلق إبراهيم عبدالرحمن من حقيقة مفادها من أن الشعر وثيقة فنية تحمل مضامين شتَّى، ومعلوم لدى النقاد أن أغراض الشعر مثلا تتحول بالدراسة إلى معالم توجهها القراءة الواعية إلى الفكرة التي يقصدها الشاعر، كونه لا يقدمها في تعبير سافر الوضوح بل يَعْمَدُ إلى الرمز الموازي للقضية التي يعالجها أو الفكرة التي يريد اقناع المتلقِّي بها، وفي هذا المعنى وجدنا إبراهيم عبدالرحمن يتناول مصطلح الرمز الموازي ويقدمه بفهم الناقد المتأنِّي المتمكِّن من فهم المصطلح الذي يتناوله بالعرض والتحليل، وسنقوم بعرض أقواله في هذا المصطلح والمصطلحات التي سنتناولها وقد تردَّدَتْ كثيرًا خاصة في كتابه بين القديم والجديد الذي نعُدُّه علامة فارزة في فكر إبراهيم عبدالرحمن النقدي، الذي جمع فيه بين النظرية والتطبيق، حيث كان يقدِّمُ آراءه النقدية في الفُهوم التي توارثتها الأجيال عن «جماعة الديوان» مثلا وتهيَّأ للقراء والدارسين أنّ جماعة الديوان أصيلة بآرائها وتعريفاتها النقدية وشواهدها التي كانت تقدمها؛ بوصفها النموذج الذي يجب أنْ يحتذيه الشاعر العربي المعاصر للجماعة أيامئذ، لكنَّ إبراهيم عبدالرحمن لم يكن مِمَّنْ اطمأنَّ للآراء النقدية التي كانت تُرَدِّدُهَا الجماعة وتدعو الشعراء للأخْذ بها، بل عاد إلى الأصول النظرية لجماعة الديوان ووجدها أصولا ثلاثة وهي: التراث النقدي اليوناني ثم التراث النقدي العربي القديم والشعر العربي القديم ثم النقاد والشعراء الإنجليز، وانطلق من مقولته المشهورة التي كان يرددها فينا في أثناء محاضراته بأنّ جماعة الديوان «أصنام يجب أن تُحَطَّم» وقد أثارت كلمته هاته حفيظة بعضهم. نشر نقده العلمي الرصين عن جماعة الديوان

في خمس مقالات نشرها في جريدة الرأي الكويتية –كما حدثنا- يومئذ وهي فصل في كتابه «بين القديم والجديد» وعن الاستفزاز الذي أقلق بعض من قرأوا تلك المقالات. قال فكتبوا يَرُدُّون ...قال: «ولم أعبأ لأني أعلم أنها جفاء.» الرعد:آ.17 قال تعالى: (وأما الزبد فيذهب جُفاء وأمّا ما ينفع الناس فيَمْكُثُ في الأرض) وهذه هي الحقيقة التي أثبتها الزمان؛ فكتاب إبراهيم عبدالرحمن تتناوله الأجيال. وأما المقالات التي كُتِبت كردود على فكره الثاقب ونقده العلمي الرصين، فقد طواها النسيان وكانت جعجعة بلا طحين.

ومن تلك المصطلحات التي عالجها وكان فهمه لها متجاوِزًا لفُهوم غيره، فضلًا عن وضوح الطرح وعمق التناول:

الرمز الموازي: (الرمز الموازي ،المعنى الرمزي، التعبير الرمزي)

الرمز الموازي: هو مصطلح نقدي شاع في كتابات ومحاضرات إبراهيم عبدالرحمن، نقف عليه من خلال تحليل الشواهد الشعرية التي يستدعيها للقضية التي يبسِّطُها بوصفها فكرةً طافت في ذهنه عندما يستضيفها التحليل النقدي في قاعة الدرس، أوفي أثناء الكتابة.

يَعُدُّ إبراهيم عبدالرحمن أن الرمز الموازي يقوم على فكرة أساسها: «أن العمل الشعري ينبع في الحقيقة من ذلك التآلف الذي يقيمه الشاعر بين حقيقتين متقابلتين: الأولى أن واقع الفن الشعري متميّز عن واقع الحياة الحقيقي، والثانية أن الشعر تعبير فنّي عن هذا الواقع».

يُمَيِّزُ إبراهيم عبدالرحمن في العملية التكوينية للشعر أنها تتأسس من حقيقتين أما الأولى فتَمُثِّلُ الواقع وأما الأخرى فتَمُثِّلُ التعبير عن هذا الواقع بصورة فنية مغايرة للواقع المشاهَد أو المَعيش، ولكي نُبَسِّط أكثر نسوق

مشهدًا يستدعي الإشفاق والترحُّم غير أنَّ الشاعر تناوله بوصفه واقعًا، لكن ساقه في أسلوب فنّي، كأنه ليس هو الواقع بل صوَّر المحكوم عليه صلبا بالبطل الذي يُقَدِّمُ الهدايا للمَحَاويج. قال الشاعر:

علوفي الحياة وفي الممات لحقٌ أنت إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا وفود نَداك أيام الصِلات

كأنك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيامٌ للصلاة

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ احتفاء كمدِّهِمَا إليهم بِالهِبَات

حَطَّمَ الشاعر الواقع وبنى على أنقاضه صورة فنية جديدة قدمت المحكوم عليه بالإعدام بطلا، مما حدا بالأمير الواقع في أسره وحكم عليه بالموت أن يحْسده على هذا التصوير الفني البديع؛ إذ جعل منه بطلا يعود من المعركة منتصرًا ولذلك لم يتمالك الأمير نفسه فقال تمنيت أن لو كنتُ أنا المَصلوب لِيقال فيَ ما قال الشاعر. إلى هذه الدرجة تَحْدُثُ المُفارقة بين الواقع المعيش وبين التصوير الفنّي الذي يجعل من الواقع مادة فنية ينطلق منها ولا يجعلها غاية. والشاعر المقتدر هو الذي يجيد استعمال الرموز الموازية ليرتفع بالممدوح أو يهبط بالموصوف وكُتب النقد تزخر بالشواهد المُماثلة، من ذلك أن الشاعر الإسلامي عندما قال يصف قرن غزال:

كأنَّ إبْرة رَوْقِهِ...

فمن كان يستمع إليه، قال أشْفَقْتُ عليه كونه؛ جعل طرف القرن مُشَبَّهًا فبماذا عساه يُشَبِّهُهُ.

وعندما قال الشاعر يُتِمُّ البيت:

.....قلمٌ أصاب مِن الدَّواة مِدادَها

قال حسدته؛ لأنه شبهه بما لم يكن مُتَوَقَّعًا.

وعندما أراد الشاعر الفلسطيني أن يجعل من القضية الفلسطينية قضية إنسانية فإنه جعل الواقع وسيلة فنية ومن خلالها أقنع الآخر لأنّ مُسْتَتْبَعَاتِ القضية الفلسطينية وما يصحبها من سجن وتعذيب وتقتيل وتهجير...وفي المقابل وما يصحبها من صمود وصبرو تَحَدٍّ. هذه المتقابلات هي المادة الأوَّلية التي استقامت رموزا موازية للقضية الكبرى في أثناء التكوين الشعري، واستطاع الشاعر أن يُؤَلِّفَ بينها حتى تكون قادرة على الوفاء بحمل الفكرة التي يريد الشاعر إيصالها للمتلقي. وفي هذا المعنى يقول إبراهيم عبدالرحمن»يَعْمَدُ الشاعر إلى إعادة تشكيل المادة التي يجمعها من واقع الحياة ويُعدِّلها لتكون قادرة على الوفاء بحمل هذه الفكرة أو تلك التي يسعى إلى التعبير عنها...فالواقع إذن في الشعر خاصة، وسيلة فنية وليس غاية» [1].

ويجد إبراهيم عبدالرحمن في ذلك الحوار الذي افتعله الشاعر الفلسطيني راشد حسين بينه وبين زوجه، ليجعل من القضية الفلسطينية قضية إنسانية، عمد الشاعر إلى توظيف رموز موازية كثيرة فكانت وسيلته الفنية التي قدمت القضية التي التزم بها بوصفها قضية إنسانية، وجعلها فكرة تستدعي الإنسان إليها ما دام للشاعر قدرة على إعادة تشكيل المادة التي يجمعها من واقع الحياة ويقوم بتعديلها وإعادة صياغتها حتى تكون قادرة على الوفاء بحمل هذه الفكرة، قال الشاعر الفلسطيني راشد حسين:

قالت أخاف عليك السجن قلتُ لها مِن أجل شعبي ظلامُ السجن يُلتَحَفُ
لو يقصُرون الذي بالسِّجن مِن غُرف على اللصوص لهُدَّتْ على نفسها الغُرف
لكن لها أمل أن يُستضاف بها حُرٌّ فيعقب في أرجائها الترف

(1)- إبراهيم عبدالرحمن بين القديم والجديد ص8

قالت بساتيننا أزهارها نُسِفتْ متى تعود الأزاهير التي نسفوا

قُلْتُ انظري في سمانا لم تزل سُحُب غدًا تَزُخُّ إلى أن يزهر الأسف

قالتْ حلمْتُ بطف لا أريد له أبًا سجينا فقلتُ الحُلم يعتكف

أتحلُمين بطفل قلب والده عبدٌ أُعيذكِ من عَبْدٍ له خَلَفُ[1]

نجح الشاعر في إعادة تشكيل الواقع بعد أن حَطَّم صورته النمطية وبنى على أنقاضها صورا فنية بديعة؛ فالتحفَ الظلامَ الذي أخافته منه زوجُه، عَلّهُ ينثني عن قضيته. وعندما اصطلح الصهاينة على المجاهدين الفلسطينيين بأنهم «لصوص» كما كانت تدَّعي فرنسا على المجاهدين الجزائريين أيام الثورة المُباركة بأنَّهم «فَلَّاقَة» و «قُطَّاعُ طُرُق».

فأحدث الشاعر المُفارقة بقوله:

لو يقصرون الذي بالسجن من غُرف على اللصوص لَهُدَّتْ على نفسها الغُرف

وحسبَ اللصوص المُدَّعَى عليهم، وهم أصحاب القضية أن تَهْدَّ الغرف على نفسها احتراما وإجلالا لهم، لأنهم هم الأبطال الأشاوس؛ أصحاب القضية العادلة.ثم جعل الشاعر راشد حسين، يحكي على لسان زوجه عندما أرادت استدراجه حتى يتخلَّى عن قضيته وتفوز به لذاتها. فجعل الشاعر البساتين والأزهار رمزًا موازيًا للقُرى والأطفال على التوالي كما جعل السحب التي تزخ حتى يزهر الأسف، رمزا موازيا لاستمرار القضية. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الشاعر كان فقيها لغويا ينتخب الألفاظ ويوظفها بدقة؛ فاختار الزخ للأسف؛ ذلك لأن الأسف نوع من الأزهار ينتفع بالزخ دون غيره من المياه، والمعنى أن السُّحُبَ التي تزخ لري الأسف هي رمز موازٍ لاستمرار القضية الفلسطينية

(1)- إبراهيم عبدالرحمن، بين القديم والجديد، ص 333

العادلة وهذا هو الاستشراف الذي يجعل القضية تحيا في قلوب أبنائها وفي قلوب محبيها من الأشقاء والأصدقاء.

ولمَّا لم تنفع الحيل مع الشاعر سعت زوجُه إلى إبعاده عن قضيته، فصارت تحدِّثُه بوصفها الحبيبةَ المعنيةَ به؛ وشرعتْ تحدِّثُه عن حلمها بطفل، فردَّها بتأجيل حلمها ما دامت لا تريد أبًا لطفلها في قبضة الأعداء، ففاجأها بأن الطفل الذي تحلمين به «قلب والده عبد» والعبد في اللغة هو المَمْلوك لسيِّدِه، وفي اصطلاح الشاعر، العبد: هو الملتزم بقضيته التي آمن بها وفي سبيلها يتأجَّلُ كُلُّ مَأمول.

وهكذا انتهى الحوار الشائق بهذه المفارقات التي جعلت الشاعر ينتصر لقضيته العادلة ويقدمها بوصفها قضية إنسانية التزم بالدفاع عنها وجعل مضمون الحوار وسيلة فنية استدعى لها الرموز الموازية التي أقنع من خلالها المتلقي أنّ القضية الفلسطينية، هي قضية عادلة ولا ينبغي التخلي عنها بحال

بين الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية:

لا يرى إبراهيم عبدالرحمن فرقًا بين الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية؛ لأن الوحدة الأولى موجودة بالقوة والوحدة الأخرى موجودة بالفعل، ومن ثَمَّ لم يعد الفصل بينهما له ما يبرِّرُه ولعلَّ الذي حَدا به إلى هذا الفصل هو شيوع الوحدتين باعتبارهما منفصلتين كما في نظر بعض النقاد والدارسين في القرن الماضي، وقبل أن نسوق حديثه عن المصطلح موضوع

الحديث، نشير إلى أنه سبق وأن تحدث عن الوحدة النفسية التي تشيع في الشعر القديم والجاهلي منه خاصة[1].

أما قوله في الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية كونهما سواء: «فالوحدة التي نقصدها وحدة الموضوع ووحدة المشاعر والمواقف.» [2] المواقف التي يثيرها ويعبّر عنها هذا الموضوع وهي التي تجعل لهذه الأغراض والصور المختلفة المتباينة في القصيدة غاية بعينها...هي هذا الموقف أوذاك الذي يقفه الشاعر من ظواهر الحياة ومن حوله وهو ما عبَّر عنه بالمعنى الرمزي للقصيدة جميعا [3].

لذلك فهو يرى أنَّ كل قصيدة تدور حول معنى واحد اصطلح عليه بـ»مقولة القصيدة» وهو نفسه المعنى الرمزي الواحد لكل قصيدة «وبه فالأغراض المختلفة تصبح جزئيات في بنية عضوية متكاملة، تؤدي في تآلفها واتساقها إلى إبراز رؤية بعينها أو قل إلى إدراكٍ فكري بعينه، بحيث لا يؤدي هذا الغرض أوذاك نفس المعاني التي يمكن أن يؤديها إذا كان وحده موضوعا للقصيدة غير مختلط بغيره من الأغراض في قصيدة شعرية»[4]. يشير إبراهيم عبدالرحمن إلى أنّ الأغراض المختلفة في القصيدة استدعاها الشاعر بوصفها جزئيات تسهم في المعنى الذي رسمه والفكرة التي يريد طرحها أو التعبير عنها أو اقناع المتلقي بها بصفة خاصة؛ بحيث تصبح الأغراض المختلفة لبناتٍ تتأسس بها الفكرة الكلية، وفي غياب هذه الجزئيات لا يمكن بحال أن تخرج

(1)- بين القديم والجديد ص2 هامش (1،2)

(2)- بين القديم والجديد دراسات في الأدب والنقد ص9

(3)- إبراهيم عبدالرحمن محمد، الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 246.

(4)- إبراهيم عبدالرحمن محمد، بين القديم والجديد دراسات في الأدب والنقد، ص 9

القصيدة على ذلك الإخراج المتكامل والمعبّر في آن معا وهي حقيقة نجدها أيضا في الصور الجزئية التي تتضامن في رسم صورة فنية تعبّر عمّا اختلج في ذات الشاعر فصاغها صياغة أسهمتْ في تحديد معالمها صور جزئية فكانت كالنسيج المتناسق في قطعة قماش أو صور متناسقة الألوان والظلال أو قطعة موسيقية أسهمت في تكوينها جميع الآلات المُسْتَعْمَلَة. وحاصل القول أن التعبير عن فكرة أو رسم الصورة أو تكوين قطعة موسيقية، هذه جميعها تحتاج في أثناء تكوينها إلى جزئيات تتعاون في الرسم والتصوير لِتُعَبِّرَ كُلٌ بأدواتها الجزئية المنتخَبَة. نسوق لهذا مثلا تُجَلِّيه مُعَلَّقَة النابغة الذبياني التي تتعاضد فيها الصور المبنية بناء لغويا مُحْكَمًا، وإنْ كانتْ موضوعات الصور الجزئية غير مرتبطة ارتباطا موضوعاتيا، كما يتهيأ للقارئ، غير أنها مرتبطة ارتباطا نفسيا وهو العقد الجامع المُنظِّم، لتلك المواقف التي يعني الشاعر أن يتحدث عنها؛ بوصفها مَهْدًا يقدِّم به إلى ممدوحه. ضمن اللياقة النمطية التي درج عليها الشاعر الجاهلي، أن يحرص على المقدمة الطللية ثم وصف الراحلة، وفي الأثناء وصف صورة من صور الرحلة وهي مُطارَدَتُهُ الثور الوحشي بكلبيه: ضُمْران و واشق اللذين عَبَرَ من خلالهما إلى مدح النعمان، فكان انتقالا سلسا. قال يصف كلبه ضمران وقد أصابه الثور بضربة لازب:

وكان ضمران منه حيث يُوزِّعُه ... طَعْنُ المَعارِكِ عند المُحْجَرِ النَّجُدِ

شكَّ الفريصةَ بالمدْرَى فأنْفَذَها ... شكَّ المُبَيْطِرِ إذْ يَشْفَى من العَضَدِ

كأنَّهُ خارجا من جنب صفحته ... سفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عنتدَ مُفْتَأَدِ

فظلَّ يعجِمُ أعلى الرَّوق منقبضا ... في حالك اللون صَدْقٍ غيرذي أَوَدِ [1]

(1)- الشيخ محمد طاهر بن عاشور، ديوان النابغة، جمع وتحقيق وشرح، دار سحنون للنشر والتوزيع تونس، ط1، 2009، ص 80 - 81

ثم نقل ما حدَّثت به نفسُ كلبه واشقٌ، وقد رأى أنْ لا طائل من ... المُبارزة فقال:

لما رأى واشقٌ إقْعاس صاحبه ولا سبيل إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ

قالت له النفس إني لا أرى طمعًا وإنَّ مولاك لم يسلم ولم يَصِدِ[1]

ولكن المعنى النفسي العميق الذي رنا إليه الشاعر ليس انهزام كلبيه ضمرانُ وواشقٌ، وإنما هو إسقاط نفسي يعنيه هو، للخيبة التي مُنِيَ بها في هذه المعاركة الخاسرة. وقد أحسن الانتقال في يُسْرٍ وسلاسة إلى الانتقال إلى النعمان،

لهذا المعنى ويدعوله قوله:

فتلك تُبلِّغني النعمان إنَّ لـه فَضْلًا على الناس في الأدْنى وفي البُعْد

ولا رأى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقـوام من أَحَـد[2]

الشاعر حريص على تصوير معاناته قبل الوصول إلى ممدوحه جرَّاء ما لاقاه من صعاب ومخاطر، وفي قصيدة النابغة كان أسلوب التصوير جسرا ملائما للانتقال من المعاناة المُسْقَطَة جعله مَهدا لمدح النعمان: فتلك تبلِّغُني النعمان ... ففضلُ النعمان –برأي الشاعر-مشمول به الأقارب والأباعد، فالمحاويج متساوون عنده، سَيَّان في ذلك القريب والبعيد ثم يرى الشاعر أن ما تحلى به النعمان من المكارم قد بزَّ به غيره ثم استدرك مُستثنيا نبي الله سليمان:

(1)- ديوان النابغة، ص 81

(2)- ديوان النابغة ص 82-81

إلَّا سليمانَ إذ قال الإله لـه قُمْ في البرية فَاحْدُدْها عن الفَنَدِ

وخيِّسِ الجِنَّ إنّي قد أذِنْتُ لهم يبنون تدمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

فمن أطاعك فانْفَعْه بطاعتـه كما أطاعك وادلُلْهُ على الرَّشَدِ

ومن عصاك فعاقبْهُ مُعاقبـةً تنهى الظَّلومَ ولا تَقْعُد على ضَمَدِ [1]

إنَّ الرابط النفسي جعل الانتقال يَتِمُّ بسلاسة؛ بحيث انتهى الشاعر من الحديث عن سليمان وما خصَّه الله به، كتسخير الجن وغيرها مِمّا حباه الله به... ثم أدمج «تفضيل النعمان على غيره من الملوك أمثاله»[2] وعندما يلتمس إليه أن يحكم بينه وبين من ادَّعَوا عليه عُنْوَةً وحالوا بين الشاعر والنعمان ظلما وعدوانا فدعاه إلى الحكم العادل، مُلْتَمِسًا ذلك بالقياس المُوَضِّح قوله:

احْكُمْ كحُكْم فتاة الحيِّ إذْ نظرتْ إلى حمام شِـراع وارد الثَّمَدِ

يحفُّه جانبا نيـقٍ وتُتْبِعُـه مثل الزجاجة لم تُكْحَل من الرَّمَدِ

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنـا إلى حمامتنا أو نصفه فَقَـدِ

فحسَّبُوه فألفوه كما حَسَبَتْ تسعا وتسعين لم تَنْقُص ولم تَزِدِ

فكمَّلتْ مائةً فيها حمامتها وأسرعتْ حِسْبَةً في ذلك العَدَدِ[3]

النابغة الذبياني وهو يلتمس من النعمان إعادة النظر في ما ادَّعاه عليه حاسدوه؛ دعاه أن ينظر نظرًا كالذي تمتَّعت به فتاة الحي التي حباها الله بعينين لم يصبهما الرمد فكان نظرها صحيحا يصل إلى الآفاق البعيدة الواسعة. ثم عقَّبَ على حكم فتاة الحي بالقسم الموطئ لبراءته فقال:

(1)- ديوان النابغة الذبياني ص 82

(2)-ديوان النابغة ص 82 هامش 1

(3)- ديوان النابغة ص 85-84

فلا لَعمْرُ الذي مسَّحتُ كعبتـه ... وما هرُيق على الأنصاب من جَسَدِ

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَتمسحها ... رُكْبانُ مَكَّةَ بين الغَيْل والسَّنَـد

ما قُلْتُ مِن سَيِّءٍ مما أُتِيتَ بـه ... إذًا فلا رفعتْ سوطي إليَّ يـدي

إذًا فعاقبني ربِّي معاقبـةً ... قرَّتْ بها عينُ مَن يأتيك بالفَنَـدِ

إلَّا مقالةَ أقوامٍ شَقيتُ بهـم ... كانت مقالتُهم قَرْعًا على كَبِـدي[1]

بعد أن بيَّنَ أنَّ ما ادَّعاه عليه أعداؤه هو فِرية وزعْمٌ، لا يصدِّقُهُما واقع الحال وقد أكَّدَ الشاعر صدق دعواه بالقَسم ثلاث مرات، ثم دعا على نفسه حتى لا يسطيع رفع سوطه بيده، ولمَّا كان الشاعر مؤمنًا موحِّدا؛ عَلِمَ أنَّ الله ينتقم لأعدائه ويعاقبه معاقبةً تريحهم ، عندما علم أنَّ النعمان؛ أبا قابوس قد أوْعده بالعفو أو هكذا يُمَنِّي النفس، فاستراح لذلك وقال:

أُنْبئتُ أنَّ أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زَأْرٍ من الأَسَد

مَهْلًا فداءً لك الأقوامُ كُلُّهُمُ ... وما أُثْمِرُ مِن مال ومِن ولَـد

لا تقذفَنِّي بِرُكْن لا كَفاءَ لـه ... وإنْ ثَّفـك الأعداء بالرِّفَـدِ[2]

الرابط النفسي بدا في هذه القصيدة، هو الضامن لوحدتها العضوية التي تنامت بها اللغة وتعاضدت معانيها بين الإسقاط والإحكام والقسم المُوَطِّئ للاعتذار من ملك كبير أمدَّه الأعداء بكل مامن شأنه أن يغيضه وقد أحسن الشاعر التصوير والربط وحُسن الانتقال من أسلوب تصويري إلى أسلوب آخر وفي كل هذا كان الرابط النفسي هو الحافظ على الوحدة العضوية للقصيدة. وهذا ما رنا إليه أستاذنا إبراهيم عبدالرحمن حين قال: و»الوحدة التي نقصدها، وحدة الموضوع ووحدة المشاعر والمواقف التي يثيرها ويعبّرُ

(1)- ديوان النابغة ص 86-85

(2)- النابغة الذبياني ص87

عنها الموضوع وهي التي تجعل لهذه الأغراض والصور المختلفة المتباينة في القصيدة الواحدة غاية بعينها هي هذا الموقف أو ذاك الذي يقفه الشاعر من ظواهر الحياة من حوله، وهو ما عبَّرنا عنه بالمعنى الرمزي للقصيدة جميعا»[1]

لذلك يرى أنَّ كلَّ قصيدة مهما تعددت أغراضها فهي تتمحور حول معنى واحدٍ اصطلح عليه بـ»مقولة القصيدة»[2]

الجسارة:

ونحسب أن الجسارة، مصطلح نقدي ذكره أستاذنا إبراهيم عبدالرحمن غير مرة في محاضراته فينا، يَعَد من المصطلحات النقدية التي ربما كادت تتبلور كمصطلح نقدي بثَّهُ... ولعله وجد صداه في أذهان متتبعيه من طلبته أو المحبين أو الباحثين الذين يتابعونه من خلال كتاباته النقدية في أثناء مناقشاته الرسائل العلمية في الجامعات المصرية.

يرى إبراهيم عبدالرحمن أن للشاعر جسارةً تتجلى في استدعاء المتداول من التعبيرات وما أدَّعي اصطلاحه بـ» (السائد المتسلل) وهو ما درج عليه الناس في أحاديثهم ويستضيفه الشاعر أو يستدعيه إلى مَتْنه؛ من ذلك مثلا ما يتحشرج في نفوس النساء المتزوِّجات خاصة حين يتسلل الملل إلى نفسها، جراء مكوث زوجها إلى جانبها دائما. أخذ نزار هذا المعنى ثمَّ صاغه على لسان كل امرأة تريد أن ترى نفسها تتجدَّدُ تجددَ الماء المتدفق...:

بحق أحلى قصة للحب في حياتنا

أسألك الرحيل

(1)- إبراهيم عبدالرحمن محمد، بين القديم والجديد دراسات في الأدب والنقد، ص 9

(2)- إراهيم عدالرحمن محمد، الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية، مكتبة الشباب، د.ط، د.ت، ص246. وينظر بين القديم والجديد ص63

لنفترق أحباب..

فالطير في كل موسم..

تفارق الهضاب..

والشمس يا حبيبي..

تكون أحلى عندما تحاول الغيابا

كن في حياتي الشك والعذابا

كن مرة أسطورة

كن مرة سرابا...

وكن سؤالا في فمي

لا يعرف الجوابا[1]

حينما عمد الشاعر الكبير نزار قباني إلى توظيف «السائد المسكوت عنه»واستدعائه إلى شِعره، عدَّ إبراهيم عبدالرحمن هذا من الجسارة؛ ذلك لأنّ الشاعر عندما يستعير ما تُسِرُّ به النسوة وما يصرّحْنَ به مما يختلج في نفوسهن، لا يجد الشاعر في استضافته حَرجا وهذه جُرأة لا يقدر عليها كل شاعر. ومن هنا عدَّ إبراهيم عبدالرحمن هذا من الجسارة التي إن دلَّت على شيء فانها تدل على مقدرة خارقة، سهلة ممتنعة في آن؛ تمتع بها نزار قباني باختيارنا الأبيات السابقة كشاهد على الجسارة التي عدَّها إبراهيم عبدالرحمن بوصفها مصطلحًا نقديًا تجب مراعاته عند تقييم الشعرونقده؛ ذلك أن المتلقي عندما يستمع إلى مثل تلك التعبيرات الموصوفة بالجسارة تحدثه نفسه بأنه قادر على مثل هذا الفعل الكلامي. لكن هيهات... لذلك

(1)- نزار قباني، قصيدة أسألك الرحيلا

عدُّوا هذا من قبيل السهل الممتنع؛ سهل غير أنه ممتنعٌ لا يقدر عليه إلا مبدع جريء جسور. قال الشاعر نزار:

كن مرة أسطورة

كن مرة سرابا...

وكن سؤالا في فمي

لا يعرف الجوابا[1]

إن الناظر في هذه التعبيرات الجاهزة السائدة بين الناس، يعرفونها... لكن مَنْ أقدم من الشعراء ووظفها وجعلها لبنة في نَظْمه، إنَّ هذا التوظيف المُحْكَم لهذا الكلام الذي تلوكه الألسن، ولا يجرؤ غير الشاعر؛ (القصر بأل الخبس) أن يفتح له الباب ويجعله بصمة من بصماته التي تُسهم في تكوين منظومته الشعرية ويجعل الجسارة علامة دالةً على شاعريته المتدفقة. والجسارة في شعر نزار واسعة المداخل متعددة القضايا والمضامين ويمكن الرجوع إليها في شعره وهي كثيرة.

وقد كان عبدالله البردوني شاعرا إنسانا حرَّكَتْهُ إنسانيته الحانية إلى ذلك «المنتحر» يعالج مآله، كقضية لها أسبابها ودوافعها التي جعلت هذا الإنسان يعتزل الحياة التي لم ير نفسه فاعلا فيها، أو هي غيرمُجدية بالنسبة إليه، أو رأى غير ذلك...

إنّ البردوني كان جريءَ الطرح، عميقا في تناوله الانتحارَ كقضية إنسانية، وإن كان متعاطفا مع المُقْدِم على هذه الفعلة الشنيعة ... وأنهى قصيدته بمقطع صوّر فيه المنتحر وهو يُوارى الثَّرى، وقد تجلت الجسارة في ذلك الأسلوب التصويري حيث قال:

(1)- نزار قباني، قصيدة أسألك الرحيلا

لفظَ الروحَ فاطمأنَّتْ ضُلوعُه وانطفا شوقُهُ ونامَ ولُوعُهْ
وقع المُتعبُ الكئيبُ على الموت فماذا جترى وكيفَ وقُوعُهْ؟
....
نَزلَ المضجعَ الأخير فلانتْ قسوة التُّرب واستراح ضجيعهْ
أسكتَ القبرُ فيه كل ضجيجٍ واحتواه سكونه وهجوعهْ
إنما القبرُ مضجعٌ يستوي العالَمُ فيه رفيعُه ووضيعُهْ
نافقتْ بيننا الحياة فتهذا حلَّ كوخا وذاكَ طالتْ رُبُوعُهْ
يا لِظُلمِ الحياةِ ما أعدلَ القبرَ تساوى فيه الوجودُ جميعُهْ[1]

تميَّز التصوير بالجسارة حين بَيَّنَ الشاعر لقاء المكان بالمكين على غير ما اعتاد اللقاء، فلم تعد للقبر قسوةٌ، بل لانت تربته، فاستراح ضجيعه... فكان القبر خير مُستقبِل لهذا المنتحِر وكان الشاعر خيرَ حانٍ عليه، حتى كأني به يصوِّر مشروعية هذا الفعل الشنيع الذي أقبل عليه صاحبه. قال:

لا تَلُمْ ذلك الفتى حين أردى نفسه فالشَّقا الطويل شفيعُهْ
وانتحار المَضيم أخْصَرُ للضَّيْم وأجْدى مِن أنْ يَطولَ خُضوعُهْ
مَزَّق العُمرَ حين ضَيَّعهُ العُمرُ وحُمْقٌ حِفْظُ الفتى ما يُضيعُهْ
كم شوتْ روحُهُ الضُّلوعَ ويومًا لَفَظَ الرُّوحَ فاطْمَأَنَّتْ ضُلوعُهْ[2]

الشاعر البردوني كان جريئا في طرحه وتناوله لهذه القضية التي تفشَّت في عالمنا المعاصر وللإسلام موقفه المعروف منها وتبدو جرأة الشاعر في الصراحة

(1) -ص325 - 326 عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية، المجلد الأول، الهيئة العامة للكتاب، ط1 2002، صنعاء،
(2)- المرجع السابق ص326

التي عالج بها هذه القضية فكان جسورا في التعبير على لسان كل منتحرٍ، ولا تفوتنا الإشارة إلى أن القصيدة مبثوثة بالأحزان والأوجاع والآهات التي تضمَّنَها رَوِيُّ القصيدة وهي جسارة وصراحة لا يقدر عليها غير البردوني.

التشريع اللغوي:

اعتنى إبراهيم عبدالرحمن في أثناء محاضراته بالحديث عن التشريع اللغوي بوصفه قضية من القضايا التي اعتنت بها الدراسات اللغوية المعاصرة ويعيب عليها أنها لا تزال عبئًا على الدَّرس اللغوي القديم حيث يقول:»ومن المؤسف أن هذا التخلف اللغوي لا يزال يجثم بكلكله على الدراسات العربية المعاصرة، سواء على المستوى العام أو المستوى الأكاديمي. فالدراسات النحوية لا تزال مجرد تلخيص مخل لجهود القدماء من النحاة الذين نجحوا في ضبط هذا الجانب التقنيني للقواعد النحوية ضبطا علميا رائعا ومباحث فقه اللغة-إذا استثنينا هذا القليل الذي أنجزه الرواد من أمثال الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور يعقوب بكر...- لا تزال هي الأخرى مشغولة برفع الشعارات اللغوية الغربية الحديثة دون تطبيقها عمليا في حل مشكلات اللغة العربية التي تتراكم يوما بعد يوم»[1].

ومما حدثنا في قاعة الدرس، أن التشريع اللغوي إلى جانب ما سبق، نظر إلى التشريع اللغوي من وجهة أخرى وهو التشريع المتعلق بالشاعر ومما حفظتُ عنه قوله: «إنّ الشاعر هو الذي شرَّع للغة» أي أنَّ الشاعر هو الذي يضيف إلى اللغة على مستوى المعاني الجديدة للألفاظ اللغوية المتداولة. وأحسب أن التشريع يكون على مستوى التراكيب كذلك. ما دام الشاعر «إرستقراطيا في استعمال اللغة» على حد تعبير أستاذنا إبراهيم عبدالرحمن.

(1)- إبراهيم عبدالرحمن، بين القديم والجديد، ص 47

هذه الفسحة المتصلة بحرية الاستعمال المتعلق بمدى قدرة الشاعر على خلع المعاني الجديدة على الألفاظ، في صورتها الطبيعية الأولى أو المعاني المعجمية التي تواضع عليها أهل اللغة واستقرت في أذهانهم؛ بوصفها معنًى واحدا، لا يتغير ولا يتبدل، لكن الشاعر هو المؤهَّلُ لِتَخَطِّي هذه المعاني المتداوَلة إلى معاني جديدة لم تعهدها اللغة من قبلُ. ومن هنا وصف إبراهيم عبدالرحمن الشاعر بالارستقراطي وهو جدير بهذا الوصف وهو مدخل آخر، يمكن التفريق به بين الشعر والتنضيد وبين الشاعر والناظم؛ ذلك أن الشاعر تستفيد منه اللغة وتتطور به المعاني الجديدة التي يضيفها لألفاظها. وأما الناضد فيظلُّ عالة على اللغة يأخذ منها ولا يقدِّم لها شيئا.

ولمّا كان الشاعر ارستقراطيا في استعمال اللغة، فإنه كذلك تمتَّع بفسحة أخرى لم يُجِزْها النقاد للكاتب حين قالوا «يجوز للشاعر مالا يجوز للكاتب» وبذلك كانت الدائرة التي يتحرك فيها الشاعر على مستوى الصياغة التراكيبية فسيحة وممتدة مادامت تحافظ على سلامة الإبداع من اللحن فإن الشاعر وجد مُتَّسَعا في أن يتخطى النمطي والمنصوص عليه من قِبل علماء اللغة الذين عُنوا بقواعد اللغة، كون هذا من تحصيل الحاصل وتقرير البدهي في أثناء العملية الابداعية.

أما الذي يعنينا من الشاعر التراكيب الجديدة التي يصوغها وتكون علامةً دالَّةً عليه وبصمة من بصماته الفنية التي يُعرف بها. فالمتنبي شاعر العربية -كما يسميه د.شوقي ضيف- جعل للعربية تراكيب تسهم بقسط وافر في إثراء العربية في شقها المتصل بالصياغة التعبيرية ولذلك تتبّعه النقاد بين مُعجب به كأبي العلاء المعري الذي صنع شرحًا لشعر المتنبي الموسوم بـ«مُعجز أحمد» وعندما يقرأ قوله:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مَن به صَمَمُ

قال أبو العلاء: كأن هذا الفتى رآني أتخبَّط ي شعره ثم قال البيت السابق.

وشرحُ ديوان المتنبي من قِبل أبي العلاء هو جُهدٌ لا نحسب الذي قاده إليه هو الفضول لكنه البحث عن التشريع الجديد المتعلق: إمَّا بتوظيف الكلمة في البين؛ بحيث تكون ملتئمة في النظم غير قلقة أو أخرى لم تكن على ذلك النحو وتلك يبحث عنها من تعنيه هنَّات المتنبي وسقطاته أو الصياغة الأسلوبية وما توصف به من أحكام تجعلها آية دالة شاعريته أو سقطات يتصيَّدها النقاد للغمز واللمز في شعره.

أما أبو العلا بوصفه شاعرا وفيلسوفا ومتكلما فإنه يقدِّر شعر المتنبي ويقرأه قراءة المتأمل الأفكارَ والتراكيبَ التي شاعت في شعره شيوعا مُنقطع القرين، لذلك كان شعر المتنبي قُطبا دارت حوله شروح لم تجتمع لشعر شاعر في العربية منذ ذلك التاريخ الذي نظم الشاعر ديوانه وشرع النقاد يشرحونه ويفسِّرونه ويبحثون في مشكلاته...

وأحسب أن هذا الزخم من العناية والاهتمام بشاعر العربية؛ يعود إلى صياغة العبارة التي تفي بالغرض وتتخطى السائد من الأنماط الدارجة فضلا عن الأفكار والمضامين التي حفل بها شعره وكانت مُسَوِّغًا من مُسَوِّغات العناية ومَعْلَمًا من معالم الاستمرار والحياة المتدفقة في شعره، فكان كُلَّما هُيِّجَ بالقراءة أعْطى الجديد على قدر الاهتمام والاغتمام.

أما بعد...فهذه هي المصطلحات النقدية التي تناولها إبراهيم عبدالرحمن في قاعة المحاضرة أو في كتاباته النقدية، وقد عُنِيَ بها عناية خاصة. إمَّا لأنه رأى أنها غير واضحة في أذهان الطلبة وتلتبس على بعض الباحثين، أو أنها

غير متداولة عند جمهور النقاد. مما حدا به إلى التذكير بها وإعادة النظر فيها بالتأمُّل والقراءة التي تزيدها مع الأيام كشفًا وإيضاحا، فضلا عن بعض المُسَلَّمَات التي علَقَتْ في التفكير النقدي المصري ثم العربي، ويتعلَّقُ الأمر بجماعة الديوان التي كشف عن أصولها النظرية المتعلقة بتراثها النقدي، وانتهى بعد القراءة المتأنية الفاحصة إلى أنها «أصنام يجب أن تُحَطَّم» حتى لا تظل جاثمة بكلكلها على التفكير النقدي العربي، وهذه جرأة في الحق لم يقدُم عليها غيره، وهذا يُحسب له، بوصفه ناقدًا لا يخاف أن يَصْدَعَ بالحق. بل يسعى أن يخطو بالنقد العربي خطواتٍ واسعةً. وبعضُ هذه المصطلحات تُعَدُّ إضافة لمعجم المصطلحات النقدية، ويتعلَّق الأمر بـ: الجسارة والتشريع اللغوي وقد أشار إليهما في قاعة المحاضرة، وكتاباته وحاولتُ أن أقدم فهمي لها مستعينا بما اخترته من الشعر، ودرسته دراسة قاربتُ من خلالها ما بين المصطلح النقدي والمعاني المترجمة لهذا المصطلح أو ذاك.

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية - الجزائر -
2020
Achevé d'imprimer sur les pressesENAG, Réghaïa -Algérie-
Bp 75 Z.I. Réghaïa Tél: (023) 96 56 10 /11

الإيداع القانوني : 1513–2005
ISSN : 1112-65-23 ردمد